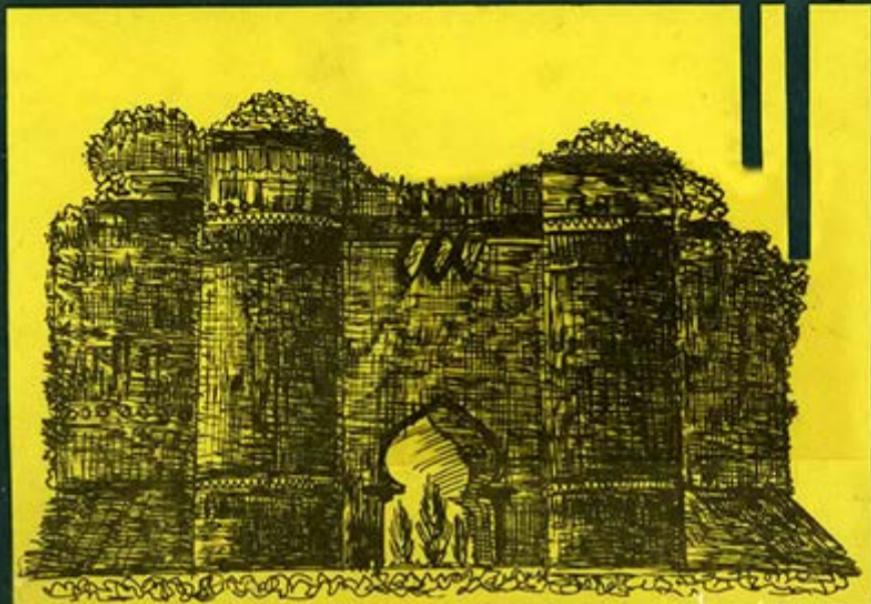


الشام

المَحَاتِ آثارِيَّةُ وَفَنِيَّةُ

د. عَفِيفُ بْهَنْسَيْ



الله

لِحَاظَاتُ اثْنَيّْةٌ وَفَنِيَّةٌ

د. عَفَيْفُ بَهْنَسِيُّ





مَرْكَزُ اتْخِذَاتِ تَكَمِيرِ عَلَوْجِ مَسْدَن

دار الرشيد للنشر
١٩٨٠



سلسلة الكتب الفنية

الجمهورية العراقية - وزارة الثقافة والاعلام

مقدمة

ما زال اسم الشام يتردد على لستنا ، على الرغم من الاسم البديلة الرسمية ، فالناس في جميع أنحاء البلاد العربية ، عرّفوا «الشام» من خلاله التاريخ ، وتضطّرهم ظروفهم لكي يعرفوا الشام من خلال الحدود السياسية ، فيتبادلون تسميات أخرى . ولكن اسم الشام ما زال أكثر تداولاً ودون أن يحرجنا ذلك ، على الرغم من أن حجم هذا الاسم تكثّف في مدينة واحدة هي دمشق .

إن اسم الشام قديم ، ولقد استعمله العرب للدلالة على الشمال ، وما زال أهل الحجاز واليمن يستعملون هذه التسمية للدلالة على جميع المناطق الشمالية . كما إن عرب الشمال كانوا يطلقون اسم اليمن على مناطق الجنوب وكان الهمذاني في كتابه الأكيل قد ذكر لأول مرة اسم الشام .

ولم يكن بلاد الشام حدود سياسية ثابتة ، ولكن الاصطخري^(١) كان أقدم من أوضح حدود الشام فهو يقول :

«واما الشام فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حد الروم وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه

(١) المسالك والممالك من ٤٣ .

يني «اسرائيل»، واخر حدودها مما يلي مصر رفح ، وما يلي الروم الشعور » .
 ويضيف الاصطخري^(١) وهو يتحدث عن الحدود الشمالية لبلاد الشام
 انها مما « يلي الروم وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية وعين زربه
 والمصيصة واذنه وطرسوس » وهي ثغور شامية ، وتقع اليوم في تركيا
 ويتفق الاصطخري مع ابن حوقل^(٢) والمقدسي^(٣) في تحديد اقسام او
 احياء بلاد الشام فيرون أنها فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين
 ويضيفون اليها الجبال والشراة .

ويرى المقدسي ان دمشق هي المكان الوحيد في اقليم الشام الذي يصح
 ان يسمى مصراً . والمصر عنده « كل بلد حله السلطان الاعظم وجمعت اليه
 الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيف اليه مدن الاقليم ، مثل دمشق » .
 وأما حلب وحمص وطبرية والرملة وصفد فهي قصبات وما تبقى فهي
 مدن عادية ، ولم تكن هذه القصبات وحدات ادارية ثابتة .

حدود بلاد الشام اذن ، وبحسب ما اورده الجغرافيون العرب الاولئ
 هي تقريباً سورياً الحالية ولبنان وفلسطين والاردن وسيناء .

ولم يكن اسم سوريا قد ورد على لسان العرب قبل الروم البيزنطيين
 ولعل التسمية جاءت عن اللغة الآرامية التي كانت مشتركة بين اهل الشام
 والأراميين وبين الآشوريين فكانت آشور ، آسور التي أطلقت على الشعب
 الذي يتكلم هذه اللغة التي حملت اسم السريانية .

(١) المسالك والممالك ص ٤٣ عام ٩٢٠ - ٩٢٣ والاصطخري من الجزيرة

(٢) صورة الارض ص ١٥٤ و ١٦٠ وتوفي ابن حوقل في القرن العاشر .

(٣) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٥٤ - ١٥٥ وتوفي المقدسي عام ٩٨٨
 وهو من الرملة .

اننا هنا ونحن نستعمل مصطلح الشام انما نستعيد التسمية العربية
الصحيحة ونؤكده اصطلاحاً متداولاً ، ثم اننا بذلك تتجاوز الحدود السياسية
لكي نربط الاسم بالتاريخ .

وإذا لم يكن بحثنا تارياً ، فإنه بحث حضاري أردننا به أن نكشف
عن الرابطة العضوية بين معنى الشام كجهة من جهات العالم العربي ، وبين
الحضارة التي هي جزء من الحضارة العربية .

ولهذا فانتا سنرى أننا ونحن تحدثت عن الشام من خلال دمشق ، فانتا
تحدث أيضاً عن كثير من مظاهر الأرض العربية ، ولعل هذا ما يميز هذا
الكتاب عن غيره من الكتب المدرسية . وحسبنا أن نعرف بالشام ليس من
خلال الحديث بل من خلال الآثر ، وليسنا نزعم انه تعريف كامل ولكنه محاولة
جادلة للتعریف بحقيقة الشام .

ع . ب



مَرْكَزُ اتْخِذَاتِ تَكَمِيرِ عَلَوْجِ مَسْدَن

الفصل الأول

الشام والحضارة

- الشام ثقافيا
- الكشف عن آثار الشام
- بيت آدم في الشام
- الشام والترااث
- امتداد التراث الشامي إلى الاندلس
- الشام مهد الكتابة العربية
- نشوء النقد الإسلامي في بلاد الشام

الشام ثقافيا

الشام ثقافيا ليست الشام اسمها جغرافيا ، تتغير حدوده من عصر الى عصر ، بل معنى تاريخي يمتد عبر حضارة اصيلة ، من انسان قبل التاريخ في العصر الحجري الى يومنا هذا .

وليس من السهل التوسع الان بشرح هذا المعنى التاريخي .. ولكن لا يأس ان تمر مرورا سريعا من خلال تحولات التاريخ في بلاد الشام لكي تتلمس الجانب الثقافي ، الذي كان اكثرا الجوانب أهمية ، لانه شع واتشر فاعطى للإنسانية زادا من المعرفة والعلم ، استفادت منه في تعين القيم الأخلاقية والاجتماعية .

ولكن لنرجع الى الموقع الجغرافي لبلاد الشام ، لنرى كم أعطى هذه البلاد من مسؤولية نقل الحضارة من الشرق الى الغرب وبالعكس . ثم مسؤولية احتزان ارقي حضارات المتوسط ، فلقد كانت الشام تقع في قلب العالم القديم الذي قدم الحضارة المصرية والرافدية ثم الحضارة الاغريقية والرومانية .

منذ قبل التاريخ وفي العصر الباليوليتي المتأخر الذي يرجع الى الاف السنين . كان الانسان على هذه الارض قد مارس الزراعة ثم اكتشف النحاس وتحركت حياته من الصيد والبداوة الى الزراعة والاستقرار في الارض ، واستصانع الاواني الخزفية التي تدل على ذوق ومهارة .

ولقد كانت اللغة منذ ذلك الوقت ولاشك ، ولكنها كانت لغة بدائية ، لعل المقارنة بين اللغة الآرامية والعربية تبين لنا المعنى الذي تطورت عليه لغة الانسان القديم الى اللغات الاولى .

ولكن الكتابة ، او نقل الابجديات التي نشرت الكتابة ، اذا تأخرت عن ظهور اللغة ، فهي تبقى أول ابجدية ظهرت في التاريخ ، وبها دونت أروع الآداب ، ومنها نقل اليونان لغتهم وكتابتهم ، ثم قدموها للرومان وبالتالي شعوب اوربا الحديثة .

والعرب اليوم يكتبون بأحرف ، نقلها الآراميون الشاميون من الكتابة القديمة ، فجاءت معدلة قليلا ، ثم انتقل الحرف العربي هذا الى الفرس والهنود والى اجزاء اخرى من آسيا وافريقيا .

وماذا أردت ان انقل بتواضع مقاله المؤرخون ، لزادني ذلك اعتزازا بمركز الشام الثقافي ، لقد قيل (لو ان الشام لم تقدم للعالم اي خدمة اخرى ، لكان ذلك كافيا بأن يتميز السوريون كأعظم المحسنين للبشرية) .

ولقد ظهرت بوادر الفن الاولى منذ العصر الحجري ايضا ، فكان من جملة اللقى الرائعة تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم ، يرجع الى العصر الحجري المتوسط ، ولعله كان واحدا من التمائم التي تقدم للالله .

لقد عرف انسانا القديم الالهة وربطها دائما بالحقول والارض والمواشي . وعثر ايضا على قطع خزفية تبين ان أهل هذه البقعة اخترعوا

دولاب الخزف قبل الالف الرابعة من ظهور المسيح وانهم ارتفعوا في مضمار هذا الفن الى مستوى لا يق .

واستعملت الشام المعدن ، فكانت الاختام والحلبي والاواني .

الاموريون ، اجدادنا الساميون الذين نزحوا من الجنوب الى بلاد الرافادين ثم نزحوا نحو الغرب ، في الشام ، واطلق عليهم اسم الاموريين هؤلاء الاجداد الاولئ ، كانت لهم حضارة تشهد عليها مدينة ماري (تل الحريري) وخاصة قصرها الرائع . ولقد وصلوا الى دمشق ، وكانت لهم مدن مثل قطنة وحرانو في الشمال . واقام الكنعانيون في الجزء الساحلي من بلاد الشام ، ولقد برعوا بصناعة المعادن فكانوا لا يبارون في هذه الصناعة وابتكرموا الخزف البراق وأستعملوا النسيج من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وهم الذين اوجدوا اللون الارجوانى من السمك الصدفي ، وهم الذين استخلصوا اللون القرمزي من حشرة تتف على جذع شجر السنديان في اواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، تأسست مملكة الشام الآرامية التي امتدت حتى الفرات والى اليرموك ، وسيطرت على لبنان وسوريا الشمالية وكان اسمها بلاد آرام او سوريه (وكلمة سوريه او اشوريه وقد اصبحت سوريا واطلقت على الآراميين انفسهم واصبحوا يعرفون بالسرفان) ، وعاصمتها دامسكي اي دمشق او درمشق – اي الارض المسقية)

وازدهرت الاداب والفنون الآرامية وكانت الآرامية كما ذكرنا تكتب بالاحرف الابجديه التي لا تختلف كثيرا عن الكتابة العربية اليوم ، ولقد عثر على رسم يرجع الى عام ٧٣٠ ق م يمثل كاتبا يدون بالآرامية ممسكا بيده ملف بردى وريشه – وليس اسفينا – ومما يؤكده انه كان يكتب بالابجديه . ولقد سيطرت الآرامية التي اشتقت منها العربية ، واصبحت الاولى لغة المسيح وشعبه ، واول كتابه ارامية مسيحية ترجع الى عام ٧٩ م .

ولقد عبد الآراميون الاله حدد ، الـ البرق والرعد والمطر ، الـ الخصب اذا رضي ، والـ السيل اذا غضب . وكانت زوجته أثارغاتيس الـ شاميين ربـة الخصب ، تعرف بتاجها واسدها ، وبالـ هلال وقرصـ الشـمس معـها ، ولقد تفنـنـ النـقاـشـونـ بـتـصـوـيرـهـاـ ، كما توسعـ الـادـبـاءـ بـوـصـفـهـاـ وـسـرـدـ اـخـبـارـهـاـ المـثـيـرةـ والـاسـاطـيـرـ الـمـحـيـطـةـ بـهـاـ .

ألفـ عـامـ عـاشـتـهـاـ الشـامـ ، تـأخذـ فـيـهاـ وـتـعـطـيـ فـيـ خـلـ الفـنـ الـكـلاـسيـ وـالـفـكـرـ وـالـعـقـيـدةـ وـالـادـابـ الـكـلاـسيـةـ ، وـلـلـشـامـ اـنـ تـفـخـرـ بـماـ أـعـطـتـ ، ذـلـكـ اـنـ هـذـهـ الـحـضـارـةـ الـتـيـ وـصـلتـ اـلـىـ ذـرـوـتـهـاـ فـيـ اـئـيـنـاـ فـيـ عـامـ ٤٥٠قـمـ ، كـانـتـ قـدـ اـعـتـقـدـتـ اـنـهـاـ وـصـلتـ اـلـىـ ذـرـوـةـ الـكـمـالـ عـلـىـ يـدـ حـكـمـاءـ عـظـيـمـاـ مـنـ اـمـثـالـ سـقـراـطـ وـافـلاـطـونـ وـارـسـطـوـ ، اوـ عـلـىـ يـدـ فـنـانـينـ بـارـعـينـ مـنـ اـمـثـالـ فـيـديـيـاسـ وـسـكـوـبـاسـ وـآـشـيلـ وـسـوـفـوكـلـ .

ولـكـنـ مـنـ الشـامـ ظـهـرـ تـيـارـ فـكـرـيـ غـزـاـ ذـلـكـ الـبـنـاءـ الـفـكـرـيـ الـكـلاـسيـ الرـصـينـ ، فـكـانـ زـيـنـوـنـ الصـيدـاوـيـ ، مـؤـسـساـ لـلـمـدـرـسـةـ الـروـاقـيـةـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ ، وـلـقـدـ اـسـتـكـبـرـ الـاـغـرـيقـ اـنـ يـأـتـيـ شـامـيـ بـمـاـ يـخـالـفـ الـفـلـسـفـةـ الـاـفـلاـطـوـنـيـةـ وـلـكـنـهـمـ مـاـلـيـشـواـ اـنـ اـعـتـرـفـوـاـ بـفـضـلـهـ وـفـضـلـ بـلـادـهـ ، عـنـدـمـاـ كـتـبـواـ عـلـىـ قـبـرـهـ (اـذـاـ كـانـتـ بـلـادـكـ الـاـصـلـيـةـ هـيـ فـيـنـيـقـيـاـ فـهـلـ ثـمـةـ مـاـ يـضـيرـ ؟ اـلـمـ يـأـتـ قـدـمـوـسـ مـنـ هـنـاكـ لـيـعـطـيـ الـيـوـنـاـنـ كـتـبـهاـ وـفـنـ كـتـابـهـاـ) .

الـحـيـاةـ الـثـقـافـيـةـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ كـانـتـ اـكـثـرـ اـزـدـهـارـاـ مـنـ اـئـيـةـ بـقـعـةـ اـخـرىـ مـنـ بـقـاعـ الـامـبرـاطـورـيـةـ . وـلـقـدـ تـحدـثـ بـوـسـيـدـوـنـيـوسـ الـاـفـامـيـ وـهـوـ مـنـ اـبـرـزـ الـكـتـابـ الشـامـيـنـ وـهـوـ فـيـلـسـوفـ وـمـؤـرـخـ وـعـالـمـ طـبـيـعـيـ ، عـنـ وـاقـعـ الـحـيـاةـ الـثـقـافـيـةـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ فـقـالـ (كـانـتـ هـنـاكـ عـدـةـ اـنـدـيـةـ وـكـانـ الـفـنـانـونـ وـالـمـفـكـرـونـ وـالـادـبـاءـ يـجـتـسـعـونـ فـيـ الـحـمـامـاتـ وـاـمـاـكـنـ الـرـياـضـةـ وـيـسـتـخـدـمـونـ الـمـدارـسـ لـاـجـتمـاعـاتـهـمـ) وـبـرـزـ مـنـ الـشـعـرـاءـ الـتـبـيـاتـوـ الصـيدـاوـيـ ، فـقـدـمـ اـشـعـارـاـ لـكـلـ مـنـاسـبـةـ وـحـادـثـةـ مـنـ تـارـيخـ الشـامـ ، وـلـنـسـمـعـ يـشـدـ مـرـةـ وـيـقـولـ :

« اسجعوا مراسيكم المبللة أيها البحارة ، واحرجوا المراسي المدفونة في الرمال ، وأرفعوا الاشارة المتبعة الصنع عندما أمركم . »

هكذا يأمر ابن باخوس وسيد الميناء لوقيانوس السيساطي الرحالة الذي جاب بأرجاء الامبراطورية كتب « المعاورات » و « قصة صبيمية » و « الالهة السورية » واصبح حاكما على مصر . وفي روما العاصمة انتقل من الشام ابتيموس مكسيموس الدمشقي ، واصبح عضوا في مجلس الشيوخ وحمل معه عقيدة الشاميين المتمثلة بجوبيتر الدمشقي ، والطبيب ارشيبعين اصبح طيبيا لتراجان . اما بابيان ولوبيان فهما مشرعان في عهد سبتيم سيفير اضافا على شريعة جوستينيان ستمائة مادة ثم أبو للودور الدمشقي ، الفنان المعمار الذي مرض في عهد ادريان الى روما لكي يقيم ساحة وجسرا وقبابا . هؤلاء وغيرهم من أهل الشام لعبوا دورا حضاريا هاما ومنهم من لعب دورا سياسيا وأصبح امبراطورا . جوليا دومنا زوجة الامبراطور سبتيم سيفير واختها جوليا ميزا زوجة ييللوس افيتوس التي اعجبت جوليا ماميا وابنها الامبراطور اسكندر سيفير الذي قتل عام ٢٣٥ . هذه الاسرة الشامية نقلت الى روما حاضرة العالم آئند ، التشريع والاداب والفنون والعقيدة الجديدة المتمثلة بالحجر المقدس السوري . ثم فيليب العربي هذا الامبراطور العظيم الذي ولد ونشأ في حوران كان هو الذي رعا احتفالا خارقا في روعته بمناسبة مرور ألف عام على تأسيس روما .

مرة أخرى لتعتز الشام بما قدمت للعالم من امثلة ثقافية ، وليس الاعتزاز بالعطاء غرورا بل دافع للمزيد من العطاء والحب .

ان هذا يذكرني بقول شاعر شامي هو فيلوديمس اليرموكي وهو يقول : « لقد وقعت في حب ديمومن يافوس في هذا مايدهش ، ثم احبيت ديمومن ساموس ، ولم يكن هذا امرا أكثر أهمية . وللمرة الثالثة احبيت ديمومن ناكوس ، ولم تعد القضية نكتة ، وفي المرة الرابعة احبيت دنمومن ارعوس .

ويبدو ان القدر ذاتها قد اسمتني (فيلوديموس) اي محب الناس ،
لأنني اشعر دائما برغبة ملحة لشخص محب . »

الشام التي تحب الناس جميعا وتحب عنهم في كل مكان تشد حبهم ،
تستقبلهم في أرضها رحبا وسهلا . وهذا شاعر آخر هو ميلغر الشامي يقول :
« سر بهدوء أيها الغريب الزائر وأهلا فالرجل المسن ينام بين الموتى
الأشقياء يلتفه النوم الذي هو نصيب الجميع »

بنعت الشام او же مكانتها أيام الاموريين واصبحت دمشق عاصمة اكبر
امبراطورية حتى ذلك الزمان ، امبراطورية امتدت حدودها من الاطلس وقزم
البرية حتى حدود الصين .

وكانت كلمة الخليفة في الشام هي القانون الساري لهذه الامبراطورية
الواسعة . ومنها انبثقت حركة التعرّف التي امتدت على اراضٍ واسعة ما كانت
تنطق أو تكتب بهذه اللغة . ومنها سمع العرب اصداء اشعار الفرزدق وجرير
وكان موقعاً للعلماء . فيها كان الطيب ابن آثار و خالد بن يزيد الخليفة عالم
الكيسياء و عمر بن عبدالعزيز اول من افتتح معاهد للطب . وفيها كان يوحنا
الدمشقي قدسياً مسيحيَا انتقلت رسالته الى ارجاء العالم المسيحي .

في الشام كان اول مسجد ادهش العالم بروعته ، وكانت اروع القصور
الخير و عمره ، والمفجر وأسس وفيها روائع الرسم والنقش .

الشام الثقافية هي التي احتوت صبوت ابي تمام وصبابات البحيري
ومأساة ديك الجن ، ومنها ترسخت عزة الادب العربي على لسان ابي الطيب .

واسمعت كلماتي من به صمم
انا ملء جفوني عن شواردها
ويشهد الخلق جراها ويختص
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
الخيل والليل والبيداء تعرفني

ومن الشام كان كشاجم (ك=كاتب ش=شاعر أ=أديب ج=جدلي
م=منجم) موسوعة معرفة وابداع . وكان الوأوء الدمشقي من بنى نسان
يصور لوحة رائعة لشامية جميلة .

واستطرت لؤلؤا من فرجس وستت وردا وعشت على العتاب بالبرد
وفي الشام عاش المعلم الثاني الفارابي ، فيلسوفا منطقيا وموسيقيا . فيها
قدم المقدسي أضخم كتاب جغرافي (احسن التقاسيم) . فيها ولد وعاش المعري
(Ubriah ibn Khaldun) الذي لم يجعل شعره للتكميل بل كان فلسفة وقضية
تدعوا الى التأمل والقلق والهم .

ضحكتنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لابناء البسيطة ان يكروا
وكلت اريد الوقوف كثيرا عند ابي العلاء ولا يأس ان اذكر برسالة الغفران
وبتأثيرها على أدب عصر النهضة ، وخاصة على الكوميديا الالهية .

لابد ان نذكر هنا كتاب المجسطي الذي نقل الى اللاتينية وكتاب اسامه بن
منقذ عن حياة الصليبيين ومخاذبهم، لابد ان اشير الى ابن النفيس الذي اشرف
على التطبيق في مارستان الثوري بدمشق فكان لا يصف دواء متى كان الغداء
وافيا بالغرض . وله الفضل في اكتشاف دورة الدم

ولعل ابن ابي اصيبيعة الشامي الطبيب ابن الطبيب ، سيتحدث وافيا عن
الاطباء الشاميين . كذلك فعل ابن النعيمي الذي عدد المدارس ، الدارس منها
وغير الدارس ، وما زالت دمشق تجوي عددا من آثار هذه المدارس ومنها
المدرسة النورية والمدرسة العادلية .

هذه هي الشام الثقافية ، الشام التي اسمعت العالم آراء ابن العربي
اعظم عبقرية تأملية في التصوف . وفيها قدم ابن عساكر المؤرخ الكبير ، تاريخ
دمشق وفيها كان ابن خلkan والصفدي وابو حيأن وابو شامة وابو الفداء
من كبار كتاب التاريخ المفصل .

الكشف عن آثار الشام

تعتبر بلاد الشام مهد الحضارات القديمة التي قدمت روائع الشواهد الفنية الماثلة حتى يومنا هذا . والفن في الشام قديم قدم الحضارة فيها ، ولقد تطور مع تطور الظروف السياسية وتقلب الحياة الاجتماعية خلال تاريخ الشام الطويل ، كما أثر وتأثر بغيره من الفنون ببعضها لحركات التوسع او التقلص التي كانت تتم مع الامم الكبيرة المجاورة . ويرجع ظهور النشاط الفني في الشام الى ما قبل التاريخ ، حيث عثر على اصول سكنية ولقى ترجع الى العصر النيوليتي توضح مقدرة الانسان القديم على الابداع والابتكار . على ان الحضارات التي سادت منذ فجر التاريخ كالحضارة الرافدية والامورية والكنعانية تركت لنا اروع الاثار ، وبين جدران متاحفنا شواهد واثار عن الفن الرافدي عثر عليها في تل حلف ، ومن الفن الاموري عثر عليها في ماري وتل مرديخ ، كما عثر على آثار حثية رائعة في عين دارا ، ومثلها في الفن الكنعاني عثر عليها في رأس الشمرة ، وما زالت التنقيبات جارية للبحث عن معالم الفن الارامي .

وفي تدمر العربية آثار حضارة رائعة تضاهي ما يبلغه الرومان معاصرها الزباء ، وفيها نرى الشخصية الشامية متميزة في الطرز الكلاسيكية ذاتها . كما نرى ذلك واضحا جدا في أقاميا وبصري وشهبا وغيرها .

ومنذ بداية العصر الاسلامي توالت الشواهد الرائعة ، وكانت القصور الاموية والجامع الاموي ومدن الرقة والرصافة والآثار المنقوله التي تحفل بها المتاحف السورية شاهدا على ظهور فن جديد هو امتداد للفنون القديمة التي ظهرت في بلاد الرافدين وسوريا .

وتفوكد الشواهد في قصر العير الغربي المنقول الى متحف دمشق ، على ان الاسلام في صدره لم يحرم الفن التشبيهي ، وانما هي المواقف القومية التي

حرمت التشبيه في التصوير تبعاً للحديث النبوى ومما التقاليد الفنية من
التأثيرات الهلنستية .

وتعاقب مدارس الفن الإسلامي في عهد الفاطميين والأتراك والأيوبيين
والمالكية ، تاركة شواهدها في الآثار والأوابد المتشرة في دمشق وحلب
والمدن الكبرى .

وبشكل مواز لاستمرار الفن الإسلامي كان الفن الإيقوني المسيحي
يستعيد أبعاده الأصلية على يد المصورين الشاميين في حلب وحمص ودمشق
والقدس

وبعد تحرر البلاد من رقبة التبعية العثمانية قام الانتداب الفرنسي بدوره
الاستعماري الجديد ، ولكنه فتح الابواب على الثقافة الفرنسية والفنون
الغربيـة .

على أن الحركة العربية التي تجلت في الثورات المتعاقبة ضد الاحتلال
الفرنسي ، بدت أيضاً في محاولة البحث عن التراث والعناية به وتطويره . وتجلى
ذلك في محاولات الكشف عن الآثار وجمعها في متاحف ، كما تعجل في تشجيع
الصناعات اليدوية .

وقد بوشر بالتنقيب منذ عام ١٩٠٦ في تل حلف ثم في تدمر ، وفي عام
١٩٢٩ باشر شيفر حفرياته في رأس الشمرة ، وكان لأكتشافاته أثر كبير في فهم
حقائق التاريخ القديم في الشام والدول المجاورة . وفي عام ١٩٣٤ اكتشف بارو
مدينة ماري التي أمدتنا بمعلومات هامة جداً عن الفنون الرافدية والفن الاموري
وتعاقبتبعثات الأوربية والأمريكية معبعثات الوطنية للكشف عن الآثار
في المناطق الأثرية مثل تدمر وبصرى وعمرى وشهبا وأقاميا ، وفي التلال الأثرية
مثل تل الكزيل وتل أم حوران وتل العبد وتل دينيت ، وفي موقع ماقبل
التاريخ مثل اللطامنة وتل الرماد والمريوط .

ولقد حفلت مجلة الحواليات الأثرية بنتائج هذه المكتشفات التي توسيع اصحابها في نشر أخبارها ضمن كتب مستقلة . كما امتلأت مستودعات المتحف السوري وأروقتها بروائع الآثار ، عدا ما تسرب منها الى خارج القطر مما نراه معروضاً في المتحف العالمي . كما ان عدداً من الهواة السوريين او الاجانب المقيمين في سوريا قد جمعوا اعداداً هامة من هذه الآثار نذكر من هذه المجموعات مجموعة هنري فرعون في بيروت ، ومجموعة الدكتور يوسف عرقتنجي في دمشق ، ومجموعة مرکوبولي في حلب .

بيت آدم في الشام

لم يدر بخلد علماء الآثار أن يضعوا ضمن خططهم البحث عن بيت آدم الذي طرد من الجنة ونزل الى الارض ، على الرغم من ان الروايات المتواترة منذ زمن بعيد تقول ان آدم أقام في ضواحي دمشق في قرية بيت أبيات ، وان حرمة الناشرة تعيش في قرية اخرى تسمى بيت الله أو بيت لهاها وهي قرية مازالت قائمة حتى الآن .

ولقد تأكّدت هذه الروايات بما رواه الرحالون الكبار مثل اليعقوبي والبلاذري وابن جبير من انهم شاهدوا بأم أعينهم ضريح قايميل في طرف من جبال دمشق وانهم رأوا الحجر الملطخ بالدم الذي كان أدلة جريمة هايل الاولى .

تُرى ألم يصدق الأثريون هذه الأقوال المسندة ، وفي طول البلاد وعرضها أماكن وأشياء مقدسة مازالت قائمة يؤمن بها الناس ويتجهون اليها بقلوبهم وعقولهم أيضاً .

ويبدو أن هؤلاء الآثاريّين علمانيّون متطرفون ، فمُعَنِّي التوراة روت كثيراً من احداث العهد القديم فانهم لا يأخذون ماورد على محمل

البيتين ، شأنهم في ذلك شأن مؤرخي اليونان الذين لا يأخذون من الايات
الا ما أكدهه الآثار الملموسة أو الكتابات .

لقد كان على الاثري ان يبحث عن الحقيقة من خلال الادلة الملموسة
فلا يلتفت الى الاساطير والروايات والكتب المقدسة المحرفة الا بما يسعه
لاستقراء هذه الحقيقة ، فهو يؤمن بما يحتويه لوح صغير من الطين عليه
كتابه مخربة أكثر من ايمانه بكل ما توارد على لسان المتحدثين ، و اذا غاص
في أعماق الارض منقبا فانه يتحسس موقع قدمه من التاريخ القديم ليس
على اساس ما يكتشفه من مظاهر قد تكون تتفق مع القصص التاريخية
الموهومة او مع الاسطورة ، بل على اساس ما تقدمه له مخابر التحليل التي
تحدد له الزمن بخطأ قد لا يتجاوز السنوات عشر حسب . النقوش والكتابات
القديمة والوسائل العلمية لتحديد الزمن هي التي يعتمدتها الاثري في تقديم
المادة الأساسية للمؤرخ .

ومن دواعي الفخر والاعتزاز ، ان تكون بلادنا من الفرات الى النيل أعرق
منطقة في العالم تحفل شواهد الماضي البعيد ، حتى ان هؤلاء الاثريين العلمانيين
جدا وجدوا انه لامناص من اعتبار هذه المنطقة هي مهد الحضارة ومهد التاريخ
وأنها مؤلفة من طبقات متواضعة من آثار الانسان ، كل طبقة تشكل فصلا
كاما من فصول الحياة الإنسانية وحضارتها ، وان هذه الفصول الاولى كانت
فريدة في نوعها ، فلم يكتشف في جزء من انحاء الارض نظير لها في زمانها ،
فكانت بذلك البداية الحضارية والوجودية للعالم اجمع وللإنسانية جماء .

فإذا قيل ان آبا البشر آدم وجد على هذه الارض فان ما يكشف من آثار
بالغة في القدم على هذه الارض يدفع الى الاعتقاد ان آدم القديم جدا ، سواء
كان آبا البشر او كان نبيا فلقد وجد حتما في مكان ما من هذه المنطقة
القديمة .

ويتهافت الاثريون على هذه المنطقة فيكتشفون آثارا سومرية في جنوب العراق ترجع الى الالف الرابعة قبل الميلاد . وهي آثار تدل على بداية حضارة عريقة كما تفاجيء الآثار الضخمة في منطقة الاهرامات جميع العلماء الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر ويحل راولنسون كتابات بها يستون ويكتشف الكتابات المسارية التي عرفتنا على تاريخ الرافدين والشام . كما يفك شامبليون رموز حجر رشيد ويكشف سر الهيروغليفية ويصبح تاريخ مصر مقروءاً جداً ، وهكذا نعرف تفاصيل الماضي المجيد الذي ابتدأ مزدهراً قبل عشرين قرناً على الاقل من ظهور أية حضارة عريقة في أية بقعة في العالم .

ولا يكتفي الاثريون بما تم اكتشافه فالانسان القديم واذا كانت الالف الرابعة قبل الميلاد هي بداية التاريخ فلا يعني ذلك ان الانسان لم يترك آثاراً أقدم من بداية التاريخ . ويتسابق العلماء سعياً وراء العودة الى الماضي الموجل بالقدم ، فما ان يكتشف العالم عصراً حتى يبحث عن عصر أقدم وكأنه ينشد في النهاية عصر آدم الاقدم .

لقد جرى مثل هذا السباق الاثري التراجعي في كثير من مناطق ارضنا القديمة ، ولكنه لم يكن كثيماً ومركزاً كما تم في حوض الفرات خلال السنوات الاخيرة .

ففي مكان محدد على نهر الفرات اصبح يحمل اسم الثورة كدلالة على أهمية المشروع الاقتصادي الهام الذي انشيء هناك ، وهو السد الكبير الذي ادى الى توليد طاقة كهربائية (١٦٠ مليار كيلو واط ساعي) تعادل اربعة اضعاف الطاقة الراهنة في كل البلاد . كما ادى الى رى منطقة عطشى تبلغ مساحتها اكثر من مليار هكتار . ولقد كان على السد العظيم ان يتحدى نهر الفرات الهادر فيكبّح جماحه ويوقفه عند حد معين لكي ترتفع مياهه في خزان كبير الى ستين متراً حتى يصبح ارتفاعه عن سطح الارض ٣٩٠ متراً على الاقل ، ويصبح هذا

الخزان ببحيرة الاسد التي يبلغ طولها ثمانين كيلو مترا وعرضها ثمانية كيلومترات وكان على هذه البحيرة ان تغمر منطقة مساحتها ٦٣٠ كم ٢ تحمل في طياتها آثار عصور خالية ، ليس من السهل تحديد قدمها ، ولعلها تصل الى عهد آدم نفسه .

ولأن الفرات كان موطن أقدم البشر كما تناقله المؤرخون حسب دلالات مبهمة ، فلقد كانت فرصة ذهبية لأولئك المنقبين في اعماق الارض والتاريخ ، لكي يتهافتوا بسرعة نحو هذه المنطقة التي تضم ثلاثين موقعاً أثرياً معروفاً على الأقل . وتقاسطت بعثات من المانيا وفرنسا والولايات المتحدة وایطالیا وبلجيكا وهولندا وسويسرا ومن لبنان وسوريا طبعاً هذه المواقع الاثرية او بعضها .

ان ألف سنة خلت تدخل ضمن نطاق العصر الحديث وما يعثر عليه من آثار اسلامية ترجع الى العهد العباسي او السلاجوفي او الملوكي هي آثار الطبقة الاولى . ولقد اعطتنا مناطق في مسكتة وفي جعبر وفي تل حديثي كثيراً من المعلومات التاريخية والمعمارية عن ذلك العصر وليس آثار العصر المسيحي التي عثر عليها في دبسي فرج على أهمية ما اضافه من معلومات تاريخية ، مما يشير الغرابة والمفاجأة . حتى آثار العصر الروماني في عناب السفينة على جمالها وكمالها وقد أصبحت نواة متحف في جعبر فان زمانها لا يكاد يسبق ميلاد المسيح . ولكن ما يهم الأثريين هو البحث عن آثار اكثراً قدماً ، آثار خاصة بهذه المنطقة ومستقلة عن اي تأثير غريب .

ان آثار سوريا القديمة الارامية وقبلها الامورية والمحثية ثم آثار ما قبل التاريخ هي اهم ما يشغل بال الاثريين في العالم ، لأنها توسع أبعاد حضارة الانسان في أقدم الحقب التاريخية . ولقد عثر المنقبون على آثار ترجع الى احقاب وادي الرافدين ، مما اعطى دلالات على وحدة الحضارات القديمة ووحدة التطور الانساني على ضفاف الفرات .

ففي مدينة مسكنة العريقة والتي كانت تقع على ضفاف الفرات ، اكتشف ايمار مدينة هامة لموقعها التجاري بين بلاد الرافين و الشام الشمالية والبحر المتوسط ، وهي نفسها مدينة بالس العربية والتي تعرضت الى الغزو المغولي وتهدمت ، وهي نفسها مدينة بارباليوس التي كانت مزدهرة في العهدين الروماني والبيزنطي ، ثم هي مدينة ايمار التي وردت في كتابات ووثائق حارى ، وكانت ثالث مدينة في الشام من حيث الاهمية السياسية خلال النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد .

لقد قامت بعثة فرنسية برئاسة الاستاذ ريمون بالتنقيب في مسكنة الاسلامية ، وكانت ثمة تنقيبات قد ابتدأت منذ عام ١٩٣٩ ، وكان على البعثة الجديدة ان تسرع في دراسة المذنة العظيمة التي تعتبر اروع مذنة في منطقة الفرات ، وان تدرس القصر والمسجد والتحصينات ، كما تدرس مخطط المدينة المعاري . ويبعدوا ان هذه الاوابد ترجع الى العصر الايوبي والمملوكي . وكما هو الامر دائما في حياة المنقبين ، يظهر فجأة بين ايديهم في هذه المنطقة لوح فخاري مكتوب بالمسارية لا يليث ان ينبيء عن تأكيد اولى ان هذه الارض كانت مقراً لمدينة ايمار المدينة التجارية الشهيرة ، ويتهافت الاختصاصيون من فرنسا لكي يشكلوا بعثة جديدة برئاسة مرغورون للبحث عن ايمار ، ومن خلال مئات من الالواح ومن خلال الحفريات ، تبين وجود مكان القصر والمعبدرين وان احدهما كان مكرساً لعشائر الله المدينة رب الخصب ، والثاني لتشوب او حدد الرب رمز الرجلة والعرب ، وقد عثر على تمثال صغير لهذا الرب . وفي معبد ثالث اكتشف مؤخراً ، تمكّن المنقبون من العثور على مكتبة كاملة من الرقم بلغ عددها الفا وخمسماة لوحة مسمارية ما زالت الدراسات قائمة للتعرف من خلالها على حقبة ترجع الى القرن ١٣ ق.م . ان الحديث عن الآثار المكتشفة خلال العصر البوزنوي اي الالف الثالث والثاني هي فترة هامة بالنسبة لتاريخ سوريا . ولقد قدمت لنا الاسبار

التي اجرتها البعثة الهولندية في طس وحديدي وجبل عرودة معلومات هامة كما أبانت بعثة اخرى أهمية تل سلنكيه القريب من ايمار ، ولكنها ترجع الى عام ٢٤٠٠ ق .م ، كما عثرت بعثة بلجيكية على آثار في تل فناص ترجع الى الالف الثالث كذلك شأن حفريات تل الفرى التي كشفت عن وجود مدينة ياخاريشا التي تعود الى القرن ١٤ ق .م اما الحفريات الالمانية في جبوبة الكبيرة فقد كشفت لنا عن وجود مدينة اكتر قدما ترجع الى النصف الثاني من الالف الرابع وهي المدينة الوحيدة المعروفة من ذلك العهد حتى الان . وهي مدينة منظمة مزودة بشبكة قنوات وطرق ومحاطة بسور محصن وقد عثر على اختام للبضائع اشبه بأختام الشمع لحفظ البضائع من السرقة والعبث ان مكتشفات جبوبة الكبيرة كما تقول منستر ومنفرز رئيسة البعثة العالمية الشيطة لها قيمة بالغة فيما يتعلق بمعروفتا بالأهمية التاريخية في منطقة الفرات الشامية ، فالمعماريون والفاراريون ونحاتو الحجارة والاختام بلعوا من المهارة مستوى لم يتسم الوصول اليه في العهود التالية .

وفي موقع آخر على الفرات قامت بعثة عربية مشتركة باكتشاف آثار سوريا ترجع الى عصر تل حلف . ولكن الاكتشاف الاكتر قدما كان في ابي هريرة .

لقد تهاافتت بعثات التلفزيون وكبريات المجالات العالمية والصحف الى المربيط خلال عام ١٩٧٣ لكي تصور آثار اقدم مستوطن مبني معروف في العالم ، ولقد اورد بعض الصحفيين عبارة بيت آدم .

انه بيت آدم حقا على الرغم من ان بني البشر موجودون قبله بآلاف القرون ولكن هذا البيت الذي يرجع الى احد عشر الف عام من يومنا هذا كان قد شهد رقيا معماريا تجلى في اقامة بيت من الطين المدعم بأعمدة الحور والنخيل المشرب بواسطة قدوم من الصوان ، والممؤلف من غرف واسعة دائمة.

الشكل مغطاة بزخرفة هندسية ملونة بالاحمر والاسود . كما شهد هذا البيت رقيا اجتماعيا وثقافيا ، فلقد عثر على تماثيل صغيرة من الحجر والطين لامرأة عارية تمثل ربة الخصب ، مما يقدم لنا معلومات عن البيئة العقائدية والفكرية لشعب آمن بأهمية خصب الارض ودور الطبيعة وان كان يجهل حتى ذلك الوقت الزراعة وتربية الماشي . وكانت المرأة منذ ذلك الوقت تبحث عن زيتها ، لم يكن في ذلك الوقت ثمة محلات لتزيين الشعر وبيع الطرائف ، ولكن المرأة تتذكر لنفسها حلتها من حجارة الصوان والواقع وعظام الحيوانات والاحجار الصغيرة المثقوبة .

اما الرجال فكان لهم الرماح من الصوان يصطادون بها ويذودون بها عن حماهم . والشيء الاكثر اهمية في هذا الموقع ، هو اكتشاف الفخار ، لقد عثر في هذا الموقع على اوابد من الطين المشوي ونحن نعلم ان ذلك لم يحدث الا بعد الالف الرابع ولكننا هنا نجد اقنسنا في الالف التاسع امام حياة بيئية متطرورة جدا سبقت أقدم ما عثر عليه من مواقع ، وهو موقع شتال هوبيوك في تركيا بـالـاف عام .

ويبدو ان هذا الموقع التاريخي القديم لم يكن وحيدا في الشام . ففي ابى هريرة اجرت بعثة انكليزية حفريات اثبتت ان هذا التل كان قد استوطن منذ الالف التاسع ق . م وحتى عام ٥٥٠٠ ق . م .

ان هذه المكتشفات الغارقة والتي غيرت كثيرا من المفاهيم التاريخية بل انها غيرت ايضا التصنيفات التي كانت سائدة ، توضح أهمية الشام كمنطقة اولى لنشأة التحضر الانساني في العالم .

لقد كان على السلطة الائرية ان تسعى جاهدة لانقاذ آثار هذه المنطقة الهاامة . التي كانت الاسبار والحفريات السابقة قد اكدهت اهميتها وكان بناء سد الفرات في منتصف الفرات الاعلى قد وضع الایريين أمام مسؤولياتهم في

حد كل طاقاتهم للتعجيز في الكشف عن كنوز هذه الأرض وفي اتخاذ الأوابد
المائلة على سطح الأرض .

ولابد ان نذكر كلمة عن اخر المكتشفات التي جذبت اهتمام العالم وهي
اكتشافات اييلا .

في عام ١٩٦٨ تم العثور على تمثال رجل من البازلت بين انقاض المدينة
المرتفعة (الاكربيول) وعلى كتف التمثال سطور منقوشة بالكتابة المسماوية
 وباللغة الاكادية تذكر اسم اييلا .

اذن هذه هي مدينة اييلا ، المدينة الصعبة المراس الشديدة البأس
الواسعة السلطان التي غابت عن الوجود شأن أكاد ذاتها الخصم العنيد
لاييلا ، كلابها كان مفقودا . ولكن اييلا تكتشف اليوم بينما أكاد ما زالت
مجهولة الموقع والاثر .

منذ عام ١٩٧٣ أخذت معاول التنقيب تكشف في تل مرديخ (ايلا
القديمة) عن معالم القصر الملكي الذي تهدم حوالي عام ٢٢٥٠ق.م وهذا
القصر مؤلف من باحة ساوية محاطة بأروقة ولعلها قاعة الاستقبال الملكية
ويحيط بالقصر جدار بارتفاع خمسة عشر مترا له ثلاثة مداخل ، أحدهما
ما زال يحتفظ بمصطلبة الشرف يجلس فيها الملك خلال مراسم الاستقبال ،
ومدخل اخر على شكل بوابة ضخمة ذات درج ينتهي الى غرف القصر في
الطابق العلوي .

وفي انقاض هذا القصر الذي تهدم كليا في أقسامه الامامية ، وفي احدى
غرف القصر الواقعة عند الرواق الشمالي ، تم العثور على آلاف الرقيم الطينية
وهذه الرقيم هي ألواح طينية منقوش عليها كتابة مسمارية تجفف و تستعمل
كفراءطيس .

ان اللغة التي كتبت بها هذه الالواح هي أقدم لغة عربية معروفة ، وهي مع ذلك لهجة من لهجات ثلاثة كانت معاصرة ولاحقة ، هي اللهجة الأكادية في الرافدين واللهجة الآيلائية في داخل سوريا ثم اللهجة الكنعانية في الساحل السوري والتي تتضمن ايضاً لهجات فرعية كاللهجة الاوغرافية واللهجة الفينيقية ، واضافة الى هذه اللغة كان ثمة مصطلحات سومرية كانت هي اللغة الثقافية والدبلوماسية في المنطقة كلها ، وكانت ألفاظها منتشرة ان هذه الالواح المكتشفة والتي لم يتم بعد ترجمة كتابتها تمتاز بالامور التالية ٠

- ١ - تتضمن أقدم معجم لفظي بين اللغتين واقدم عرض لفظي للمفردات الواردة في المعجم ويرجع الى ٢٣٠٠ ق.م على الاقل ، ولقد كانت أكثر ألفاظ اللغة السومرية مجهولة ولكن عن طريق هذه الرقم كشفت المزيد من معاني الالفاظ السومرية وخاصة بعد ان عرفنا معناها من خلال المعجم المكتشف ٠
- ٢ - آييلا هي اول من طور نظام الكتابة المسماوية ، وعنها اخذت أكاد وغيرها ٠
- ٣ - أقدم تحالف سياسي تم في التاريخ كان بين آييلا وآشور ٠
- ٤ - أقدم لهجة عربية سورية وجدت حتى الان وهي لهجة العموريين أي لهجة سكان الغرب نسبة الى الرافدين ٠
- ٥ - أقدم تعديل وتطوير في الكتابة السومرية ٠
- ٦ - أول كشف تاريخي لفترة كانت مجهولة المعالم والآثار ٠
- ٧ - أقدم كنز أثري تاريخي عشر عليه في مكتبة واحدة حتى الان وهكذا فان هذا الكشف يعتبر واحداً من اهم الكشوف في العالم ٠

ولسوف يصبح موقع ايلا كعبة الاثرين الى زمن بعيد ، كما ذكرت الصحف العالمية .

لقد اوضحت الحفريات المستمرة التي قامت بها بعثة ايطالية برئاسة البروفسور ماتييه المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة ايلا ، واخر ما اكتشف من مراحل كان عام ١٩٧٥ حيث تبين ان هذه المدينة كانت تعيش منذ عام ٢٤٠٠ ق.م واستمرت على الرغم من الاحاديث القاسية التي مرت بها حتى عام ٢٢٥٠

٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ كانت ايلا مركزاً لدولة عظيمة تحمل المركز الثالث بعد مصر والرافدين ولقد قدمت لنا الاف الرقم المكتشفة معلومات واسعة عن تاريخ وحضارة ايلا في ذلك الوقت .

٢٠٠٠ - ١٨٠٠ كانت مركزاً حضارياً هاماً في شمال سوريا وبلغت قوتها السياسية أوجها فلقد سيطرت على المنطقة وكانت أكثر نفوذاً من مملكة حلب خلال حكم الملك شماش حدد الاول ، ومن بابل أيام حمورابي .

ولقد عثر على شواهد من حضارة هذه المرحلة تمثل بثلاثة معابد وقصر ملكي وببوابة ضخمة تقوم جنوبى المدينة . ويعتبر طراز هذه العمارة أساساً للعمارة السورية فيما بعد .

وفي النحت أثبتت التماثيل المكتشفة أنها أساس الفن الذي اتشر في هذه المنطقة العمورية فيما بعد .

الشام والتراث

عندما دخلت جيوش المسلمين بلاد الشام ، وكان ذلك سنة (٦٣٦) بعد معركة اليرموك ، لم يكن يطلق اسم سوريا الا على القسم الغربي .

الاوسط من خارطة ديار الشام كما نعرفها ، ويدخل في ذلك قسم من العراق ولم يستعمل العرب اسم سوريا بل أطلقوا اسم الشام على هذه البلاد التي أقام فيها العرب النازحون من الجنوب حضاراتهم المتعاقبة ، الاكادية والعمورية والارامية والكنعانية • أما الفرس والرومان أنفسهم فقد كانوا يطلقون اسم (سوريا) مشتقاً كما يبدو من اسم (السوريان) أو السريان وهو اسم اللغة التي كان يتكلمها الكلدانيون والاراميون والأنباط ، ولقد عم استعمال لفظ سوريا على جميع البلاد الممتدة من الراها وأنطاكية شمالاً إلى الأردن جنوباً بما في ذلك الساحل الكنعاني •

وكان سكان الشام من العرب الذين كانوا قد نزحوا من شبه الجزيرة العربية بسبب القحط وصعوبة العيش • ومنذ عام (٣٣٣ ق. م) تتعاقب على حكم سوريا ، السلوقيون والرومان والبيزنطيون • وعند الفتح الإسلامي كان الروم (البيزنطيون) غرباء في الشام يحتلون فقط المناصب المدنية او العسكرية • ولم يكن هؤلاء بقادرين على فرض لغتهم وعاداتهم على الشاميين العرب • ومع أن الروم قد عقدوا احلافاً مستمرة مع الفاسنة في جنوب الشام ومع التغلبيين في أرض الجزيرة العليا ، الا ان هؤلاء العرب استمروا على التمسك بتقاليدهم وحضارتهم •

أما سكان الشام المنثرين في القرى والجبال ، فكانوا من الاراميين ، وكانوا مع العرب المسيحيين من سكان المدن ، من اشد أنصار الفتح الإسلامي رغبة بالخلص من سيطرة البيزنطيين القاسية •

وكانت اللغة السائدة بين جميع سكان بلاد الشام هي اللغة العربية واللغة الارامية على اختلاف لهجاتها ، ولقد استمرت هذه اللغة سائدة دون أن تتأثر باللغتين الاغريقية واللاتينية •

ولسوف نرى أن اللغة الارامية ، شقيقة العربية ، قد تجلت بكتابه وحرروف لم تثبت أن أصبحت بعد تطوير طفيف هي الكتابة العربية التي

نستعملها حتى يومنا هذا ، دون تأثير من الكتابتين الشمودية والصفوية ، الجنوبيتين .

ولكن حتى عام (٦٣٦م) وهو تاريخ فتح بلاد الشام ، كان قد مضى على وجود السلوقيين ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون ما يقرب من الف عام ، تركوا على هذه الارض خلالها كثيرا من من التراث الذي نرى اثاره مائلة حتى يومنا هذا .

ولكن هذا التراث الذي بناه الانباط في البتراء وبصري ، والتدمريون في تدمر وغيرهم من العرب أهل الشام في شهبا ، بلد فيليب العربي الذي اصبح امبراطور روما كلها ، وفي أقاميا عاصمة السلوقيين ، ودمشق التي كانت مملكة الاراميين ، نقول ان هذا التراث الضخم لم يكن الا (شكلا كاذبا) كما يقول اشنبلر لشخصية حضارية عربية ، تجلت بوضوح في فني النحت والرسم بل كان لها في العرآن (تنظيم المدن) مجال تعديلات كثيرة

ولقد كان التراث السائد عند فتح الشام ، هو تراث الروم البيزنطيين الذي تزخر سوريا بشواهد في حوران وفي غوطة دمشق حيث كان يوجد خمسة عشر ديرا ، وما زالت أطلال قصر ابن وردان والكنيسة الواقعين الى الشمال الشرقي من حماة ، وأطلال منطقة الاندرین والكراتين الى الشرق من معرة النعمان مائة ، وفي الرصافة المركز المسيحي ماتزال آثار كنيسة القديس سيرجيوس التي ترجع الى نهاية القرن الخامس قائمة . ومن المجموعات المعمارية المسيحية مجموعة قلعة سمعان حيث كنيسة القديس سمعان (٤٩٠م) ذات الشكل المصلب ، وهي من أهم الكنائس المسيحية في العالم . ولم يكن هذا التراث غريبا عن الروح العربية ، بل يمكننا اعتباره (المخلص) من التأثيرات الكلاسية .

وامتد الاسلام بعد عام (٦٣٧) الى العراق الذي كان تحت سطوة الفرس .
ولقد كانت الثقافة الایرانية الساسانية ، قد تمكنت في العراق وامتدت
آثارها الى شرق الشام . وهكذا فان الشام عند نشأة الاسلام كانت تقع
تحت تأثير حضارتين واضحتين ، هما الحضارة الساسانية في العراق والتي
امتد تأثيرها الى الشام لوحدة القطرين في ظل الاسلام ، والحضارة الكلسية
— البيزنطية التي كانت قد توطنت في الشام من شمالها الى اقصى الجنوب
على ان الحضارة الرافدية وهي الحضارة العربية الاولى التي بناها الاجداد
في العراق والشام ، استمرت في جميع العصور شاهدا على شخصية حضارية
هي من اقدم وارسخ الحضارات في التاريخ .

على ان الشيء الذي تفرد به الانسان العربي ، انه لم يفقد شخصيته أمام
الشعوب التي أخضعتها ، بل احتضن بادئه الامر حضارتها وما لبث الا قليلا
حتى صار كل شيء عربيا ، حتى أصبحنا نميز بين ما يعزى الى الفرس
او الى البيزنطيين او الى الاسبان .

وهكذا افتتحت صفحة تاريخية جديدة على ارض الشام بعد الفتح
الاسلامي ، فلقد عاد العرب لحكم أنفسهم بعد انقطاع طويل ، بل لقد أصبحت
الشام ودمشق خاصة ، عاصمة او دولة نظامية عربية بعد الاسلام ، فلقد جعلها
معاوية ، وكان قبله واليا على الشام بعد أخيه يزيد ، عاصمة امبراطورية كبيرة
امتد سلطانها من شواطئ المحيط الاطلسي وجبال البرونة غربا ، الى نهر
الهندوس وتخوم الصين شرقا . ولقد كان على هذه السلطة الناشئة التي
اتتقلمت من ظروف البداية ، ان تكون كدولة متحضره فتوسّس الدواوين
العربية وتضرب النقود وتنشيء البريد وتشيد المباني ، عدا توسيع
الحكم والدفاع عن الثغور ومتابعة التوسع وترسيخ الاسلام كعقيدة وشريعة
وجهاد .

امتداد التراث الشامي إلى الأندلس

كان لتوسيع العرب المسلمين ووصولهم إلى شبه جزيرة إيبيريا مدخل أوروبا الجنوبي ، أكبر الأثر في انتشار الحضارة الشامية الإسلامية الناشئة ، ليس فقط في شمال أفريقيا بل وفي بلاد الأندلس التي احتلها طارق بن زياد عام (٧١١م) بأمر من موسى بن نصير عامل بنى أمية على أفريقيا ، ثم حضر في العام التالي موسى نفسه على رأس عشرة الآف رجل من أهل الشام^(١) . وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك الذي استقبل موسى في دمشق عام (٧١٥م) يصحبه أمراء القوط بملابسهم الرسمية مع مئات من أبناء الأسر الملكية والوف من الأرقاء الأوروبيين .

تم استقبال هذا الموكب في احتفال مهيب في بهو الجامع الاموي ، وكان هذا الاحتفال (أعلى قمة من قمم الفخار في تاريخ الفتوح الإسلامية)^(٢) زينت تاريخ دمشق التي كانت عاصمة امبراطورية متراصة الاطراف ، وفي قلبها قصر الامويين المنيف الذي بناه معاوية ، تحف به الحدائق ويطل على سهل خصيّب ، ولقد سمي بالخضراء ، وكان يقع إلى جانب موقع الجامع الاموي الذي جعله الوليد آية في الفن . ولقد تربع الخلفاء على عروش لم تكن مألوفة في عهد البداوة والخلفاء الراشدين ، فكان جلال مظهرهم وروعه بلاطهم جديراً باستقبال ملوك الفرنجة الذين جاؤوا إلى الشام يجرون الخيبة وذيل الانكسار ليقفوا أمام خليفة هو أوسع الملوك والأباطرة سلطاناً في زمانه .

ولقد تأكّد وجود الشاميين في بلاد الأندلس عندما سير الخليفة هشام عام (٧٤١م) جيشاً آخر من أهل الشام مؤلماً من سبعة وعشرين ألفاً . استقرّ أكثره في شمال أفريقيا ومضى ثلث هذا العدد بقيادة بلج بن بشر إلى الأندلس ، وحلوا جميعاً فيها وخاصة في قرطبة العاصمة ، وتفرق بعد ذلك

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٣ ، وهناك مصادر تجعل العدد ثمانية عشر ألفاً

(٢) فيليب حتى - تاريخ العرب ج ٣ ص ٥٩٢

أكثراً أهل الشام في باقي المدن الاندلسية ، فنزلت جماعة حمص في إشبيلية ، وفرقة فلسطين في شدونة والجزيرة الخضراء ، أما فرقة دمشق فاستقرت في مقاطعة البيره ، وبقيت فرقة قنسرين في مقاطعة جيان^(٢) .

ولقد استمرت قرطبة عاصمة زاهرة للامويين ، الذين استمروا فيها على الرغم من استيلاء العباسيين على الحكم ونقلهم العاصمة إلى بغداد ، إلا أن عبد الرحمن الداخل وقد هرب من دمشق استطاع عام (٧٥٦م) أن يستولي على قرطبة وأن ينادى المنصور في بغداد ويصبح كهناً لشارلمان . وقد جمل عبد الرحمن مدن مملكته فابتلى حول العاصمة سوريا وشيد منهية الرصافة بظاهر قرطبة على غرار قصر العير الذي بناه جده هشام بن عبد الملك في الشام ، ولقد جر الماء إلى هذه المنية (الحديقة) واستحضر لها بعض الأغراض كالدراق والرمان ، وغرس فيها نخلة جاء بها من دمشق ، فلما رآها فريدة انشد يقول :

بَدَتْ لَنَا وَسْطَ الرَّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاهَتْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ عَنْ بَلْدِ التَّخْلِ
فَقُلْتَ شَبِيهِي فِي التَّغْرِيبِ وَالنَّوْيِ وَطُولَ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
وَفِي عَامِ (٧٨٥م) أَنْشَأَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ جَامِعَهُ الْكَبِيرَ فِي قَرْطَبَةِ .

وفي عهد الامويين^(٤) ظهرت صناعات جديدة في الاندلس ، كصناعة الحرير التي انتقلت من الصين عن طريق أهل الشام . وكانت طليطلة قد اشتهرت بصناعة السيوف لوجود الصناع الشاميين فيها . أما فن ترصيع الفولاذ وسواء من المعادن بالذهب والفضة وتزييقها بالصور على شكل الزهر ، وهو فن جيء به من دمشق ، فقد زها في بضعه مراكز إسبانية وأوروبية وترك أثراً في اللغة تدل عليه **الفَسَاظ** : *Damascinage* وتعني التكفيت الدمشقي و **Damassé** وتعني القماش المشجر المدمشق .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٣

(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

ولقد كان تأثير المشرق في فنون الاندلس سبباً في دعم شخصية الفن الإسلامي الذي سبق أن ولد في الديار الشامية ، ولكنه ترعرع ونس وتطور في المغرب والأندلس وكان له تأثير واضح في طراز العمارة المسيحية والفنون الملحوقة بها والتي عمت المشات المسيحية في أوروبا . ولقد عبر م، غ موريينو^(٥) عن مدى هذا التأثير في إسبانيا بقوله :

« لقد افتن الاندلسيون بكل ما هو شرقي ، فاقتصر بهم الترف العقلي وتطلعوا إلى المعرفة وتعلقوا بالثقافة العربية لسموها على الثقافة اللاتينية التي كانت حينئذ جامدة على وثيره واحدة » .

الشام مهد الكتابة العربية

ولئن كانت ولادة الفن الإسلامي قد تمت في الشام ، فإن الكتابة العربية والخط العربي وهما عباد الفن والثقافة قد نشأ أيضاً منذ قبل الإسلام ثم كان لتبلور شخصية الفن الإسلامي أثره في تطور تنسيق الخط العربي الذي دخل دائماً في نطاق الفن الابداعي عند المسلمين .

فلقد اتفق أكثر العلماء على أن الخط العربي نشأ في بلاد الشام ، وأنه استمد أصوله من الكتابة الaramية التي أثرت بصورة واضحة في الكتابة النبطية أولاً . فلقد استعمل الانبات في البتراء وفي بصرى وتدمير الكتابة الaramية وطوروها قليلاً ، بل إن لغة الانبات كانت خليطاً بين العربية والaramية ومن أقدم النقوش النبطية نقش مرانا ملك الانبات . ولكن نقش أم الجمال الذي عثر عليه في جنوب حوران هو أقدم نقش يحمل كتابة قرية من الخط المسمى بالكوفي ويرجع إلى عام ٣٧١ م . وحروف هذا النقش بعضها مرتبط بعضه وبعض غير مرتبط ، كما يلاحظ فيه أن حرفي الجيم والحساء يشبهان صيغتهما في الخط الكوفي ، أما نقش النمارة الذي عثر عليه في قصر

(٥) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٨

النّسارة في حوران (الحرة الشرقية من جبل العرب) في مدفن امرىء القيس ابن عمرو ملك العرب في سنة (٣٢٨) بعد الميلاد ، فقد دون بالخط النبطي المتأخر الذي يشبه الخط الكوفي . وهذا النّقش يقدم لنا الدليل القوي على منشأ الكتابة العربية من جهة ، وعلى أن ما يسمى بالخط الكوفي لا يتسب في الواقع إلى الكوفة التي أنشئت فيها بعد ذلك بل إنما هو يتسب إلى تقاليد الخط في بلاد الشام التي تطورت عن الخط المزوي (ذي الزوايا) ثم ظهرت في الحيرة والرها ونصيبين .

وفي خربة تقع شرقى حلب اسمها زيد اكتشف العالم الاثري ساخاو Sachau عام ١٨٧٩ نقشاً مؤرخاً في عام (٥١٢م)، وهو أقدم وثيقة تحمل خطأ عربياً شبهاً بالخط الكوفي . كذلك عشر في حران اللجا شمالي جبل العرب على أول نص عربي جاهلي يرجع إلى عام ٥٦٨م ، ويحدد ملامح الكتابة العربية التي استقرت بعد الاسلام وتطورت في طريق واضح لاتغير فيه .

وهكذا نلاحظ أن الشواهد التي تدلنا على نشأة الكتابة العربية عشر عليها في ديار الشام ، وأن الشواهد كافية في الواقع لتحديد مبدأ تطور الخط العربي عن النبطي المتأخر وهو الجسر الذي نقل الكتابة من الارامية إلى العربية، ويفكك اعتقاد المستشرق هومل^(٦) من أن الخط العربي الذي كتب القرآن به ، مأخوذ عن الخط النبطي المتأخر بدوره عن القلم الارامي المتفرع عن الفيتيقية .

والواقع أن ابجدية رأس شمرة وهي أول ابجدية في التاريخ ، اذ كتبت بالخط المساري فهي سامية وحروفها ليست مستعارة من الحروف السوميرية الakkadie السابقة ، بل لقد حولت الابجدية السينائية التي عشر عليها في سراييط الخادم إلى غرار الرموز المسماوية التي ظهرت في رأس شمرة (في اللاذقية) .

^(٦) د . الطاهر احمد مكي = الخط العربي - اللسان العربي العدد ٦ ص ٤٥ .

نشوء النقد الإسلامي في بلاد الشام

يُدخل تطور المسكوكات الإسلامية ضمن نطاق نشوء وتطور الفن التشكيلي لما احتوته من نقوش فنية وكتابات ، وابتدأت الكتابة العربية بدونه اعجم او حركات ، وكان الحجاج من الذين عنوا بأمر علامات الاعجم وضبطها للتمييز بين الحروف المشابهة كالباء والباء والثاء^(٧) كما ساعدت على ايجاد صور الحركات من ضم وفتح وكسر نقلان عن السريانية ٠

وكان العرب في الجزيرة قد تداولوا منذ قبل الإسلام النقود الكسرية اي الساسانية التي استمر المسلمين في بلاد الشام بتداولها ، وهي دفانير ذهبية ودرارهم فضية وفلوس نحاسية ، ولقد نقشت هذه النقود بالفهلوية ٠ ومع ذلك فلقد كانت هذه النقود تضرب في البلاد الساسانية ، واول نقد ظهر عليه اسم دمشق وبالعربية كمكان للضرب ، كان عام (٣٧٣هـ) وفي عام (٥٧٥هـ) ظهر اول نقد عربي ، جميع الكتابات فيه عربية ، وعليه صورة عبد الملك بن مروان ولكن صورة الملك الساساني بقيت منقوشة على الوجه الثاني ٠ وعند هذا النقد توحد النقود الإسلامية مع النقود المتطرفة عن النقود البيزنطية التي كانت متداولة في بلاد الشام قبل الإسلام وهي السوليدوس الذهبي ، والدرهم الفضي والفلس النحاسي ٠

وكان تبدو على أكثر النقود البيزنطية صورة الامبراطور وحده او مع اسرته أحياناً في وجه ، ومكان وتاريخ الضرب في وجه آخر مع صورة الصليب مرفوع على اربع درجات^(٨) ثم تطور شكل النقد البيزنطي المستعمل من قبل المسلمين ، اذ ظهرت أسماء مدن شامية وكلمات عربية ٠ ظهرت شخص الخليفة العربي مكان شخص الامبراطور وزال شكل الصليب لتحول محله دائرة ، ثم ظهرت صورة عبد الملك بن مروان مع اسمه الصريح منذ

(٧) ابن خلkan : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢

(٨) انظر :

عام (٥٧٤) . وقد بدت صورة عبدالملك في النقود الاسلامية المتطرفة عن البيزنطية مشابهة لصورته في النقود المتطرفة عن الساسانية والتي ترجع الى العام الذي يليه (٥٧٥) . وفي متحف بغداد درهم يرجع الى عام (٥٧٥هـ) عليه صورة الخليفة عبدالملك بن مروان وخلفه صورة جانبية لخسرو الثاني وهو اول نقد عربي صرف^(٩) كما يوجد في موسكو (المتحف التاريخي) درهم يرجع الى نفس العام (٥٧٥هـ) وعليه صورة مائلة للخليفة نفسه ، ولكن وجهه الثاني يتضمن اربعة درجات متتالية بدائرة كانت قد حللت محل الصليب في النقد البيزنطي . ويدرك الطبرى ان الخليفة عبدالملك ضرب في دمشق عام ٦٩٢هـ-١٠٧٦ أول دنانير ذهبية ودراهم فضية من النوع العربي الصرف^(١٠) وخلال الحكم الاموى كانت النقود التي تضرب في دمشق او تضرب في واسط هي السائدة ، بل ان النقود المتداولة في شمال افريقيا او في الاندلس حتى عهد عبدالرحمن الداخل كانت تضرب في واسط على ما يedo ، فلقد لوحظ ان الدراديم الاموية المسكونة التي تحمل اسم (افريقيا) و(الاندلس) والتي عشر عليها دومورغان في كنز كبير في مدينة واسط كانت بحالة جيدة وجديدة . ويعتقد ان واسط كانت تقوم بستان النقود لحساب افريقيا والاندلس . ولقد كانت الدراديم الاندلسية الاموية مشابهة للدراديم الاموية الشرقة وتميز بعلامات سبطة مثل الهلال^(١١) .

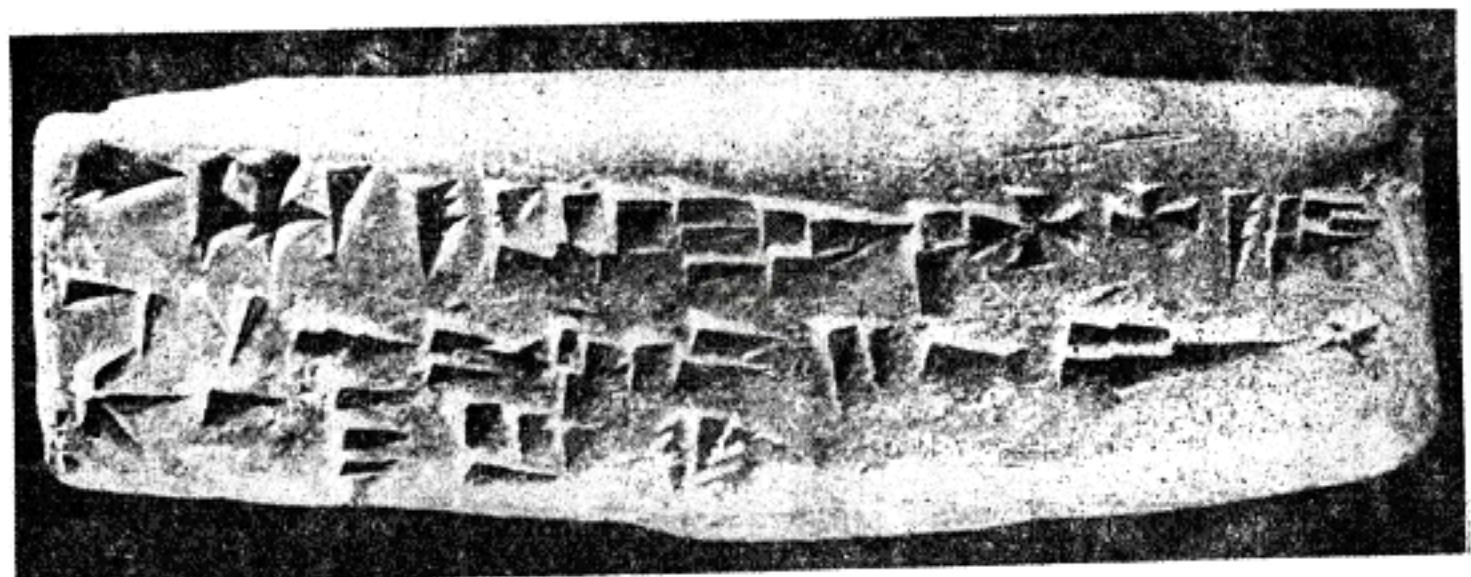
(٩) د . عیسی سلمان : درهم عبدالملک بن مروان - سومر ١٩٧٠/٢٦ ص ١٦٤

(١٠) الطبرى : ج ٢ ص ٩٣٩

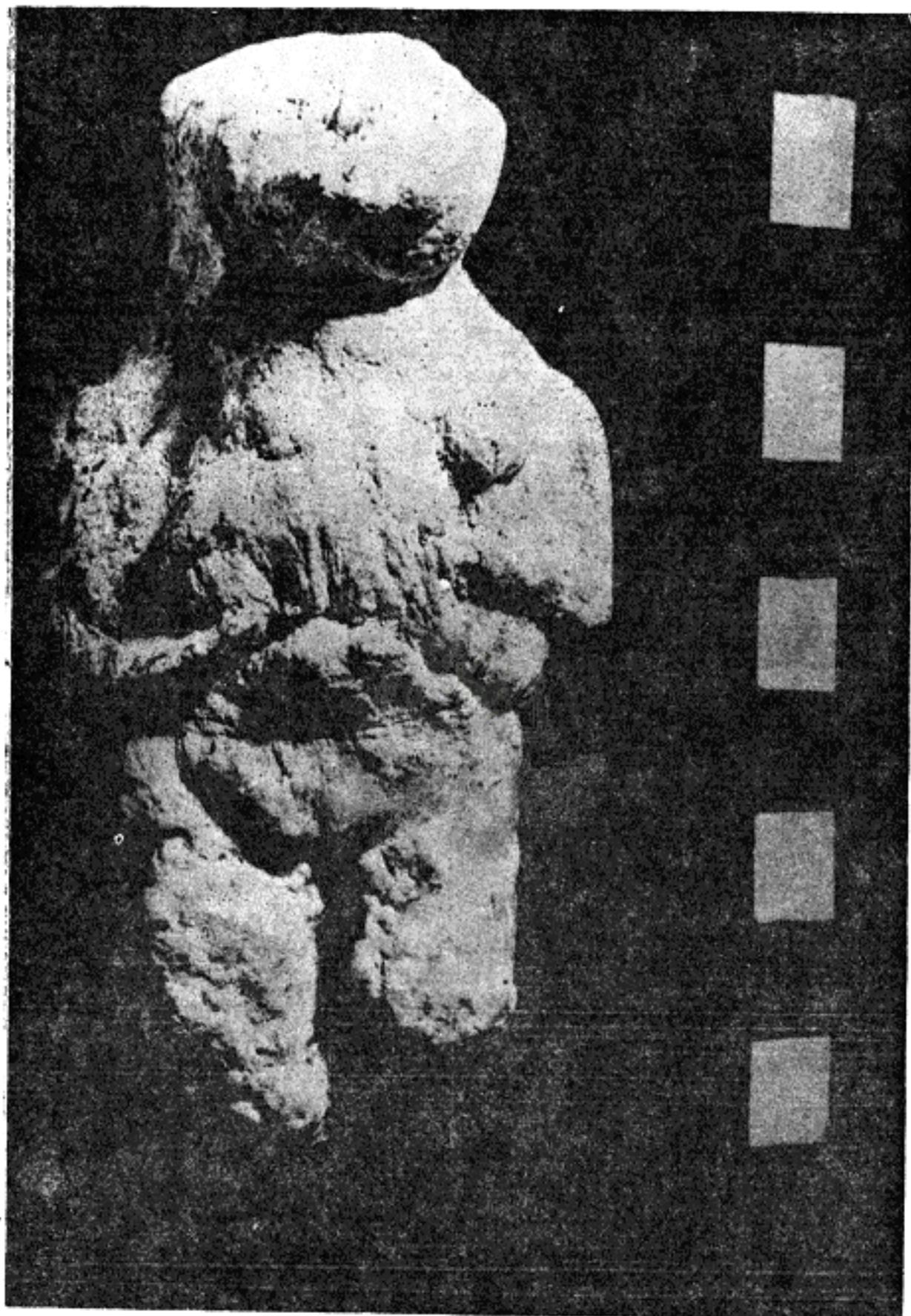
(١١) ويعتقد وولكر ، أن أقدم الدراديم العربية الخالصة تحمل التاريخ ٧٩هـ دون ان تحمل مكان الفرب ، وهو يرى ايضا ان هذا الدرهم قد ضرب تجربة ، ثم نفذ مشروع في السنة نفسها وفي المدن الرئيسية واولها دمشق . ولكن المتحف العراقي اقتني عام ١٩٧١ درهماً يرجع الى عام ٧٨هـ وهو درهم عربي خالص مما يؤكد قول الطبرى السابق الذكر .

^{١٦٦} انظر مقال د . عیسی سلمان ، نفس المرجع ص

وأنظر كتاب كنز أم حجرة الفضي للأستاذ أبي الفرج العش ص ٥٠



أول أبجدية في العالم
أبجدية اوغاريت (اللاذقية) مؤلفة من ثلاثة حروف .



أقدم تمثال طيني يمثل ربة الخصب - عثر عليه في المربيط على الفرات



نقش النمارة - حوران - على قبر امريء القيس

الفصل الثاني

المدينة وال عمران

أشهر مدن الشام : دمشق القديمة - حلب الشهباء

العامل الجغرافي في تكون دمشق الشام

العامل التاريخي

العامل الروحي

العامل الحضري

العامل الثقافي

العامل السياسي

عمران المدن الشامية حديثا

المدينة الحديثة وفقدان الهوية

تغير معالم المدينة وأسماء أحياءها

أشهر مدن الشام دمشق القديمة

عندما يذكر اسم دمشق فإن الاسم يقترن بالماضي الغابر ، ليس مع احداثه الكبيرة وحسب ، بل مع قدم الزمن والتاريخ ، فلقد عرفت هذه المدينة على أنها أقدم مدينة في التاريخ . ولقد اعتاد المؤرخون العرب في كتبهم ورواياتهم كالبلاذري واليعقوبي والمقدسي وابن جبير أن يقرنوا هذه المدينة ببداية الخليقة ، فهم يرجعونها إلى عهد آدم الذي كان يقيم في ضاحية من ضواحيها تسمى (بيت ابيات) وان حواء وقد نشرت ، قامت في قرية أخرى مازالت قائمة في (بيت لهيا) او بيت الالهة ، وان هايل أقام في (مقرى) وان قايل في (قينية) ، وما زال قبر هايل حتى اليوم رأه الرحالون العرب ورأوا اثار دماء هايل اول قتيل في الوجود على حجر ملقم الى جانب الفريح ١٠٠

على ان اكثر المحدثين عن دمشق يجمع انها كانت موطن ابراهيم الخليل ، بل كانت مولده ، وكان آزر أبوه ينحت فيها الاصنام .

ويقول ابن الكلبي أنها ترجع الى دمشق من احفاد نوح ، وقيل ان من بناتها هو جبرون من احفاد نوح . وقيل ايضا ان هودا نزل فيها واسس حائط معبدها وهو اول حائط مبني في التاريخ .

وإذا كان في هذه الأقوال كثير من الخيال ، فلأن منشأ هذه المدينة أقدم من أن يعرف ، فلقد أقام فيها إبراهيم الخليل ولاشك ، أذ أنها كانت موجودة منذ ألف الثالث قبل الميلاد أذ قرئ اسمها تيماسكى على جدران الكرنك ثم في كتابات شلمنصر ، وأخيراً في الألواح إيلا التي ترجع إلى ألف الثالث قبل الميلاد حيث ذكرت باسمها الصربيع « دامسكي » .

ولعل سكانها الأصليين هم العموريون ولكن المصريين أقاموا فيها فترة ثم أصبحت عاصمة مملكة أرامية (دارميسق) بالaramية وهي إدم التي ذكرت في القرآن « ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » ولقد عثر في مكان الجامع الاموي حالياً على آثار آرامية هي لوح يمثل اسداً مجذحاً^(١) .

وسوف تكشف التنقيبات في تل السماكة بدمشق عن حقيقة الوجود الارامي الذي استمر حتى الاسلام ، وكان أكثر الاراميين قد اعتنقا المسيحية ومنهم من يعيش بيننا حتى اليوم ، ويتكلّم اللغة الارامية القديمة ويكتبها وتطبع فيها الكتب تحت اسم السريانية ، والاراميون عرب ولغتهم عربية والكتابية العربية الحديثة اي كتابة القرآن مشتقة من كتاباتهم ، وليس من الصعب علينا اليوم قراءة كتابتهم التي يبدو الشبه قوياً بينها وبين الكتابة العربية ، كما ان كثيراً من الالفاظ مشتركة او متقاربة بين اللغتين .

وفي عام ٣٣٣ق.م يحتل دمشق الاسكندر المقدوني الذي اجتاح الشرق ، وأسس اتباعه السلوقيون في سوريا والعراق وجزء من ايران مدنًا لهم . ثم يأتي الرومان عام ٤٦ق.م فيحتلون سوريا وتُصبح ثغورهم تدمر والعبرة والبتراء وبصرى وهي موقع وممالك عربية متحالفة مع الرومان .

(١) اللوح موجود في المتحف الوطني بدمشق . والاسد المجنح ابتكار عموري قديم نقله المكسوس الى مصر ١٧ق.م

وتزدهر دمشق عندما يعتلي عرش روما عائلة عربية كعائلة سيفيروس للبيهية التي اقترنت دائمًا من أسرات سورية ، ثم عندما يصبح فيليب العربي من حوران امبراطورا ، وما زالت آثار المنشآت الرومانية قائمة في دمشق في معبد جوبيترا الكبير وفي الشارع المستقيم وقوس النصر والباب الشرقي وفي آثار كثيرة لا يمكن الكشف عنها دون التضحية بمعالم دمشق القديمة ويقول استرابون عن دمشق الزاهرة في ذلك العهد : لاتزال دمشق حتى اليوم على جانب عظيم من الامتنان ، وفي زمن الحكم الفارسي كان يمكن اعتبارها أشهر مدينة في هذا القسم من آسيا) ٠

وعندما أصبحت دمشق تحت حكم البيزنطيين ، أصبح سكانها الاراميون مسيحيين ولعبوا دوراً ايجابياً في الفتح الاسلامي لمدينة دمشق واجلاء الروم البيزنطيين ٠

دمشق عاصمة اكبر دولة في التاريخ القديم :

وفي عهد الامويين أصبحت دمشق عاصمة اكبر دولة في التاريخ القديم ووصلت الى اليعاقب شرقاً والاطلس غرباً وكانت الاندلس عربية وكادت فرنسا ان تصبح عربية قبل معركة بواتيه بلاط الشهداء ٠

وفي دمشق انشيء الجامع الاموي (٢) اول عمارة عربية كاملة انشأها الوليد بن عبد الملك عام ٧١٦ م وكان الى جانبها قصر منيف اقامه معاوية يطلق عليه اسم القصر الاخضر ، ما زالت التنقيبات جارية للتعرف على اثاره ٠

وفي العهد العباسي تظهر معالم المدينة التي تعرفها اليوم ، المؤلفة من احياء مغلقة تتضمن مسجداً وحماماماً واسواقاً ، ولكل حي شيخ وحارس وباب مغلق ٠ وتختلف المدينة في عهد العباسين حتى ان هارون الرشيد ارسل الى

(٢) انظر دراستنا عن الجامع الاموي في العدد ١١ من مجلة الثقافة العربية -
ليبيا ١٩٧٤

عامله الحسين بن عمار يعاتبه على تدهور احوال دمشق فيقول له « وليتك دمشق ، وهي جنة تحيط بها غدر تكفا امواجها على رياض كالدراري ، فما برح بك التعدي لارقا قهم ان جعلتها اجرد من الصخر واوحش من القفر » .

أقوال في جمال دمشق وسحرها

ولكن غوطة دمشق ووضع المدينة على سفوح قاسيون تغذيها الانهار السبعة استوت جميلة جذابة حتى ان البحترى قال يصفها :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها

وقد وفى لك مطريها بما وعدا

اذا أردت ملائكة العين من بلد

مستحسن وزمان يشبه البلدا

يسبي السحاب على أجبالها فرقا

ويصبح النور في صحرائها بددا

ويقول اليعقوبي^(٢) « توفي عام ٩٠٥ » : (ومدينة دمشق جليلة وقديمة وهي مدينة الشام في الجاهلية والاسلام ، وليس لها نظير في جميع اجناد الشام في كثرة انهارها وعماراتها) .

وفي رسالة اوردها ابن عساكر^(١) عن ابن أبي الليث ، يصف دمشق ، يقول « ثم أمرنا بالانتقال الى البلد ، فانتقلت منه الى بلد تمت محاسنه (يقصد دمشق) ووافق ظاهره باطنها ، أزقتها ارجحة ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شمت طيبا ، وأين رأيت منظرا عجبا) .

ويقول ابن جبير عن دمشق (١٢٠٠ م) : « واسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد واحسنها انتظاما وابدعها وضعا ، ولا سيما قيساراتها

(١) كتاب البلدان ص ٣٢٥ - ٣٢٦

(٢) ثابت ابن عساكر ج ٢١ ص ١٦

وهي مرتفعت كأنها الفنادق ، مثقفة كلها باباً بباب من حديد ، كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية متفردة بضيّقتها واغلاقها الجديد) ، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير (ما زال قائماً) يتصل من باب الجاوية الى باب شرقي » .
ويقصد ابن جبير نفسه^(٥) أثناء زيارته الجامع الاموي ، الى اعلى قبة النسر ، حيث يطل على مشهد دمشق ، فيقول « من اعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن وهي كلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان » .
واستمرت دمشق على بعائها وحسن تنظيمها وروعه الطبيعة فيها حتى عهد الماليك ، فيقول العمري^(٦) عنها : « وهي مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الابنية بالحجر والخشب والاجر مضبب بين مداميك البناء بالخشب الملبن » .
ودمشق القديمة ما زالت حافلة حتى يومنا هذا بروائع العمارة العربية ويبقى الجامع الاموي اعظم آبدة فيها ، اما الاتابكة فلقد تركوا لنا البيمارستان النوري ومدرسة نور الدين الشهيد ، وترك لنا الايوبيون قلعة دمشق العظيمة التي ما زالت تحتفظ بروعتها وجلالها تقع موازية لاكبر واشهر سوق في المدينة ، هو سوق الحميدية كما تركوا لنا المدرسة العادلية (مقر مجتمع اللغة العربية اليوم) والمدرسة العزيزية (مدفن السلطان صلاح الدين الايوبي) وجامع التوبة والجامع المظفري ومدفن السلطان حسن .

اما الماليك فقد تركوا في دمشق كثيراً من المدارس والمساجد التي ما زالت قائمة ومنها جامع العجمي والقلعي وهشام وتنكز والمعلق . والمدرسة الرشيدية والصابونية والسيائية والجقمقية (مقر متحف الخط العربي) والمرادية والجوهرية والخضيرية .

(٥) ابن جبير - الرحلة ص ٢٤٤ - ٢٧١

(٦) مسالك الابصار ج ١ - ص ١٨٧ - ٢٠٣

وعلى الرغم من جمود الحياة الثقافية والاجتماعية في العهد العثماني ،
خان دمشق ما زالت تحتفظ ببعض الاوابد المعروفة مثل التكية السليمانية التي
صسها المعاشر الشهير سنان باشا ، ومجموعته الدرويشية المؤلفة من جامع
وتربة وسبيل ومدرسة ومن جامع الثنائية الذي يزدهي بكسوته الفيشانية
الملوقة ، ومن الخانات (الفنادق) خان أسعد باشا وخان الحرير (درويش
باشا) وخان الجمرك (سليمان باشا) وقصر العظم (مقر متحف التقاليد
الشعبية) ، وتشتهر دمشق بسدافن العظام فيها ، مثل قبر معاوية بن أبي سفيان
وعبدالملك بن مروان وبلال الحبشي وسكينة وفاطمة بنت الحسين (وقبورهم
في مقبرة الباب الصغير) وقبر أبي الدرداء والستة زينب بنت علي كرّم
الله وجهه ومقامها حسن التنظيم والزخرفة .

وفي دمشق اضحة ظاهرة ، منها ضريح السلطان نور الدين زنكي
والسلطان صلاح الدين الايوبي والملك الظاهر بيبرس والمؤرخ ابن عسكر
وابن كثير والفارابي ومحب الدين العربي وابن تيمية وابن قتيبة .

هذه هي دمشق القديمة العريقة التي ما زالت تحافظ بطابعها القديم ،
تحيط بها مدينة جديدة عصرية ، تزاحمتها الوجود والعظمة . ومدينة دمشق
القديمة بشوارعها المتلوية وأزقتها المحفوفة بالبروزات والاكتشاف والكتيبات
وبحماماتها واسواقها الشهيرة وبيوتها الفسيحة المغلقة ، ما زالت تفوح بأريح
الشرق المعطر

حلب الشهباء

كثيرة هي المدن التي ابتدأت التاريخ مثل اور وتللو وماري ، ومثل
منف اول حاضرة فرعونية ومثل سقارة ، ولكن هذه المدن التي ازدهرت
وأشعت الحضارة ، لم تعمَّ كثيراً كما ان العاصمة الشهيرة اليوم يرجع
خلهورها الى فترات قريبة ويكفي ان يكون عمر اكبر مدينة في العالم وهي

نيويورك لا يتجاوز القرنيين ، فشمة مدن قديمة وصلت الى قمة ازدهارها ثم تلاشت نهائيا ، وشمة مدن زاهرة اليوم ولكنها حديثة فتية .. اما حلب فانها المدينة الفريدة من نوعها في العالم ، فهي قديمة جدا قدم التاريخ ثم هي حديثة تحمل كل سيماء العصر الحديث . ولقد كانت بين الماضي المغرق في قدمه وبين الحاضر المتطرف في معاصرته موجودة ايضا ، ومزدهرة حية ، لعبت ادوارا هامة في تاريخ الشرق القديم وفي تاريخ العرب المسلمين .

وحلب او حلبيا هي كلمة عمورية قديمة تعني النحاس . فلقد كانت حلب مركزا للنحاس تاجر به او تنتجه ، ولقد ورد اسمها منذ عهد ساراغون الاكادي حيث استولى ابه ريسوش عليها عام ٢٣٠٠ق.م كما تغلب عليها حفيده نارام سين واسر ملكها ريد عدد ، كما تغلب على ابلا (تل مرديخ) ومن المؤكد ان حلب كانت موجودة قبل ذلك التاريخ بزمن طويل ، اذ ان وضعها الاجتماعي والسياسي والعسكري لم يكن ضعيفا ، بدلالة ان حلب استعادت حريتها بقوة سلاحها في مرتين متتابعتين مقاومة جيشا قويا ومنظما هو الجيش الاكادي . ثم اصبحت بعد ذلك احدى المدن العمورية الكبرى تضاهي بأهميتها ماري (تل حريري) وقطنة (المشرفة) وكركميش (جوابلس) والالاخ (تل عطشانة) وهي مدن عمورية كبيرة .

واصبحت هذه المدينة عاصمة لمملكة يمحاض التي كانت تضم عشرين مملكة صغيرة ، منها ايمار (مسكنا) وكالسيس (قترين) . وكان ملك حلب يرتبط بعلاقات جيدة مع الملوك العموريين الآخرين ، وخاصة ملك بابل حمورابي وملك ماري زيريليم ، بل كان له سلطان على هؤلاء الملوك . يخلع منهم من شاء وينصب من شاء . ووصلت حلب في عهد العموريين ، وهم سكانها الأصليون ، الى قمة ازدهارها حتى استولى عليها الحشيون ، فاستمرت رازحة تحت عبء هذا الاحتلال حتى القرن ١٦ق.م ، ثم أعقب ذلك الاحتلال ميتاني ، كان قد امتد نحو المدن العمورية الأخرى منذ القرن السابع عشر

وكان سبباً في هجرة المواطنين باتجاه الساحل الكنعاني ، او باتجاه مصر ، كما جرى مع العموريين الذين أطلق عليهم اسم الملوك الرعاة او المحسوك .

ثم تعرضت حلب لغزو فرعوني لم يثبت ان تلاشى بعد موقعه قادوش (تل النبي مند) . واتتهى عهد الحثين في حلب منذ عام ١٢٠٠ بتأثير شعوب البحر ، ثم توطن الاراميون العرب جميع المدن الكبرى ومنها حلب فأصبحت مدينة مقدسة تحوى معبد الاله حدد الاله العاصفة والخصب عند الاراميين ، بل كان الاله حلب منذ العموريين والحيثين . وبعد فترة من حكم البابليين ثم الفرس بقيادة قورش جاء الاسكندر المقدوني مجتازاً الشرق عام ٣٣٣ق.م والذى اعقبه السلوقيون ثم الرومان وعرفت حلب باسم بيروه على اسم المدينة المقدونية سقط رأس فيليب المقدوني والد الاسكندر . وما زال حي الجلوم ذو الشوارع المتقطعة عمودياً من آثار المدينة القديمة في العهد الروماني . ولم يبق من عهود الحقب التاريخية المتعاقبة اثار تذكر ، ولكن التلال الاثرية كتل القلعة والعقبة وعين التل وتل النيرب تحيل بكثير من الشواهد التي لم يتح لنا التنقيب عنها بعد للكشف عن آثار العهد العموري والحيثى . ولقد اكدت بعض المكتشفات العفوية اهمية هذه التلال ، فلقد عثر في عين التل على اختام اسطوانية ودمى ترجع الى العهد الاموي مع تمثال بازلى يرجع الى القرن التاسع ق.م ، وعثر في قلعة حلب على كثير من الاثار الكلاسيكية كالنواويس والتيجان التي أعيد استعمالها في ابنيه تاريخية .

وفي العهد المسيحي تصبح حلب ابريشية واقيمت فيها الكنيسة الكاتدرائية التي ما زالت قائمة حتى الان تحت اسم المدرسة الطورية .

لم تكن حلب بلدة كبيرة في العصور الاسلامية الاولى ، بل كانت تابعة لقنسرين عاصمة الاقطاع الحلبية كما يقول الغزي ، وكانت تضارع انطاكية عظمة واتساعاً وفخامة بناء . وقنسرين اليوم خربة وتقع جنوبي حلب وهي تلال اثرية تحوى اطلال تلك المدينة العظيمة .

وعلى الرغم من تأثير الشعوبية في العصر العباسي فان حلب اصبحت عاصمة دولة عربية من بني تغلب هم الحمدانيون الذين وسعوا حدود امارتهم حلب . ولقد حارب سيف الدولة الروم مدة حكمه في معارك ظافرة سجلها ابو الطيب المتنبي في قصائده الرائعة ، التي مدح فيها سيف الدولة فذاعت شهرته في جميع انحاء العالم الاسلامي . ولقد وصف المتنبي قصر ابي فراس ، (الحلبة) الذي شيده ظاهر حلب ، ضمن مجموعة من البيوت الفخمة والبساتين ، ولقد اتى هذا القصر نقوص ، وبعد ان كانت حلب ثغر الشمال لصد هجوم الروم فانها كانت أيضاً منطلق جنود العرب للقضاء على الصليبيين الذين احتلوا بعض اجزاء سوريا وكان نور الدين زنكي البطل الذي قهر طموح هؤلاء المحتلين ، ولكن هذه الغزوات ، ما كانت تمنع نور الدين من الاهتمام بالعمران الذي نرى اثاره حتى اليوم .

ويتابع الايوبيون اعمالهم الانشائية في حلب وخاصة في القلعة ، ولقد اقام فيها الملك الظاهر غازي الذي رمم القلعة وستر سفوحها بال بلاط الحجري وانشأ (بيت الاعدة) الذي احترق ثم اقام قصر (بيت النظر) .
ثم تعرض حلب لنكباتين مغولتين ، الاولى عام ١٢٦٠ بقيادة هولاكو والثانية في عام ١٤٠٠ بقيادة تيمور لنك . وقد تحملت حلب اقسى انواع التحريض ومع ذلك فان هذه المدينة مازالت تحفظ بروائع فن العمارة الاسلامية ، مما جعلها من ابرز المدن الاسلامية بعد القاهرة احتواء للآثار والآثار المعمارية .

ومازالت الكنيسة القديمة (ق ١٥) (المدرسة الحلاوية) والكاتدرائية (المدرسة المقدمية) قائمة في المدينة مع بعض المنشآت في القلعة وترجع الى العهد البيزنطي .

اما الآثار فان اهم ما يبقى منها هو السور والابواب ، (باب النصر ق ١٣) (وباب انطاكية ق ١٣) (وباب قنسرين ق ١٣) (وباب الفرج ق ١٥)

(وباب المقام ق ١٥) (وباب الحديد ق ١٥) (وباب الجنان ق ١٦)
أما القلعة فهي راية كانت اكروبول المدينة وفيها آثار مختلفة وهي
بشكلها الحالي ترجع الى عهد سلطان حلب الملك الظاهر غازي (١٠٢٩ م)
ثم اضيف اليها بعض العناصر المخالفة ، أما الجامع الاموي الكبير فقد
جدد مرات عديدة وترجع منارته الى عام ١٠٩٠ م .

وفي حلب مكان مقدس قديم يرجع كما يقال الى ايام ابراهيم الخليل
يسى (مقام الصالحين) وهو مجدد ، ومن المنشآت الاسلامية في عهد نور
الدين البيمارستان التوري .

ومن اشهر الاثار الايوية المدرسة السلطانية التي تضم تربة الملك
الظاهر غازي (١٢٢٣) والمدرسة الظاهرية (١٢١٧) ، والمدرسة الكاملية
ومنارة جامع الدباغة ، ومدرسة الفردوس التي بنتها سلطانة حلب خيبة
خاتون زوج الملك الظاهر غازي ، ومؤلفة من جامع ومدرسة وتربة ورباط
وهي أجمل مجموعة اثرية في حلب وخانقاه الفراخرة (١٢٣٧ م) .

ومن ابرز الاثار الباقية في حلب من العصر المملوكي جامع الطنبغا
(١٣١٨ م) وبيمارستان ارغون (١٣٥٤) وهو من افضل المشافي القديمة
في سوريا ومصر وجامع الاطروش ١٤٠٣ وحمام الناصري (البايدية) وهو
اجمل واشهر حمامات سوريا .

ومن اشهر الخانات ، خان الصابون (بداية ق ١٦) . ومن العصر
العثماني تحفظ حلب بخان الوزير (ق ١٧) وخان الجمرك (ق ١٧) وخان
الفراءين وخان التوتون وبيت غزالة وبيت آجقباش (بداية ق ١٨) وبيت
الدلال (ق ١٧) وحمام النحاسين وغيرها .

ومدينة حلب من المدن القليلة التي يتعاقق فيها القديم والحديث مع كل
استقلال وتميز ، ونحن نرى المدينة القديمة وقد انحصرت بين بقايا السور

الكائنة بين باب الجنان وباب انطاكية وباب قنرين ، وعلى اطراف جادة الخندق مشكلة مربعا يصل طول ضلعه الى ١٥٠٠ م ، ولكن هذه المدينة الصغيرة لم تثبت ان توسيعها منذ عهد الملك الظاهر بيبرس ، باتجاه الشمال والغرب ، وكان يقطن منطقة داخل سور البرجوازيون (أهل جوا) ، ويسكن الاحياء الخارجية سكان القرى والبادية (أهل برا) .

ومن ابرز احياء هذه المدينة التاريخية هي البياضة والفرافرة ووراء الجامع والسفاحية .

اما الاسواق فانها تعتبر من اهم ميزات المدينة القديمة ، فهي ليست مجرد حلقات محفوفة بالتجار ، بل ممرات عريضة معطاة بطبيعة حجرية سليمة تحمي من حر الصيف وبرد الشتاء ، ويتسلل النور من فتحات هذه وتمتد هذه الاسواق متداخلة متعارضة متصالبة على مسافة ١٥ كم في بقعة مجتمعة تقع غربي حلب ويطلق عليها اسم المدينة ومن اشهر هذه الاسواق سوق الفرائين وسوق السراجين وسوق الزرب وسوق العطارين وسوق الخيش ، واسواق المزاد والعيبي والحبال والقوافين والصاغة ، ثم سوق السقطية العاصل بالمطاعم والحلويات .

العامل الجغرافي في تكون دمشق الشام

كان موقع دمشق في البقعة التي توزعت فيها مياه نهر بردى وتشابكت فروعه فيها ، تحيط بها رياض وبساتين ومرروج الغوطة التي كانت المدى الحيوى اللازم للمدينة ، ويحيط بالغوطة من الشمال والغرب جبال جرداه هي جبال قاسيون والمزة ، ومن الشرق البادية القاحلة ، ومن الجنوب مناطق قاحلة .

اما طبقات المدينة الجيولوجية فأنها تتدرج بشكل منتظم ، من اعلى قاسيون وحتى السفح ، مبتدئة بالعصر الكريتاسي وفتراته ، حتى الباليوجين

ثم يedo السفح كله من العصر الرابع ، ولقد قامت البعثة السوفياتية وقبلها الخبير الفرنسي دوبرتريه Dubertret^(٧) بتقديم خريطة جيولوجية لهذه المدينة تحيل المستزيد إليها .

ويعتقد فان ليره Van Liere^(٨) ان ثمة بحيرة كبيرة يصعب تحديد عمرها كانت قد تكونت في ارض المدينة ، ومن بقاياها بحيرة العتبة والهيجانة ، هذه البحيرة كونت الطبقات الرسوبيّة لارض المدينة ، بالإضافة لرواسب العصر الرابع ورواسب نهر بردى المتتابعة ، وجعلت هذه الارض صالحة للزراعة الخصبة .

وهكذا نظراً لندرة الحجارة وبعد المقالع الحجرية نسبياً عن المدينة ، فإن العمارة وأكثر المنشآت اعتمدت على مادة الطين لإقامة الجدران والتعطیيات أما الأبنية الحجرية فهي قليلة وإنما استعمل الحجر في البيوتات الفخمة البرجوازية وفي دعم المساكن العادية وخاصة في تقوية الأساسات .

ولقد شق نهر بردى مجراه مع فروعه في هذه الارض ، مكوناً مصاطب مختلفة الارتفاع عن مستوى النهر السفلي ، وموازية له . ويتدفق هذا النهر في قطاع طولي مخترقاً المدينة بشكل قوس م-curve وبالنحدار متناقض ، ترتفع مسامط مائية تصل إلى أربعة عشر مسقطاً ، بعضها يحمل معه رسوبات وفضلات الاحياء ، وينقل النهر معه كثيراً من الرمال والبحص ، وما منطقة البحصة الا مجمع رمال وبحصى هذا النهر في الماضي . بل إن الغوطة نفسها تقوم على مروحة حصوية متدرجة نحو الشرق .

اما مناخ دمشق فهو شبيه بمناخ أكثر المدن العربية الإسلامية ، وهو مناخ جاف بسبب افتتاحها على الصحراء من الشرق ، ووجود جبال لبنان

Dubertret : L'hydrologie et aperçu hydrologique de la Syrie et du Liban - 1933.

الغربية والشرقية ، كسد يمنع رطوبة البحر من التأثير القوي على مناخها وعلى هذا فان امطار دمشق غير منتظمة ، ويبقى المعدل السنوي للامطار هو ٢١٥ مليمتر و مدتها ثلاثة اشهر ، والصيف فيها قاس جاف ، ومتوسط الحرارة خلاله هو ٣٥ درجة ، وتنخفض درجة الحرارة في الشتاء ومعدلها هو ٧ درجات .

ويبلغ الضغط الجوي أقصاه في كانون الاول ٩٣٤ ميلبار وينخفض تدريجيا حتى يصل في شهر تموز الى ٩٢٤٨ ميلبار .

وتقع دمشق تحت تأثير الانخفاضات الجوية التي تسبب اضطراب الطقس وتقلبه ، ويصل ذلك الى حده الاقصى في شهري شباط واذار ، ويبلغ عدد الانخفاضات كل شهر أربعة .

وتهب على دمشق رياح خلال جميع اشهر السنة ، والرياح الغالبة هي الشمالية الغربية ، وتهب خلال الخريف رياح شرقية صحراوية ، وتبلغ سرعة الرياح أقصاها في اشهر الصيف اذ تصل الى ١٨٦ كيلومترا في الساعة وتنخفض سرعة الرياح في الشتاء حتى تصل الى ٧٢ كيلو مترا في الساعة .

وتبلغ الرطوبة أقصاها في فصل الشتاء ، وتصل الى ٧٢٪ وتقل في الصيف حيث تصل الى ٣٣٪ وتحتفل الرطوبة خلال اليوم الواحد اذ تبلغ نهايتها العظمى في الصباح الباكر ، ثم تتناقص في الظهيرة وتعود الى الارتفاع بعد الغروب .

وتجدر الملاحظة ، أنه عندما تبلغ الحرارة حدتها الأدنى تبلغ الرطوبة النسبية حدتها الاقصى ، وهذا مايساعد على تحمل حرارة الصيف المرتفعة والسحب في دمشق قليلة ، وهي تبدو متکافئة في الشتاء ، اما الصيف فان السماء تبدو صافية دائمة والشمس الساطعة لا تجد مايحيطها عن المدينة

حتى يبلغ عدد ساعات الشمس المحرقة في تموز ٤٠٠ ساعة ، بينما هي ٢٠٠ ساعة في كانون الثاني .

ويبدو من هذا العرض السريع ان مناخ دمشق قاري متطرف ، الفروق الحرارية السنوية فيه واسعة تتجاوز 40° ، كما ان الفروق الحرارية اليومية فيها 20° أيضا وهو مناخ جاف ، رياحه عاصفة سريعة تنقل الغبار من المناطق الجبلية القاحلة او من الابادية .

هذا المناخ الذي يتشابه في اكثـر المدن العربية الاسلامية ، فرض شروطه على تكون المدينة ومساكنها واسواقها بل على تكون المساجد والفنادق والتربي ، كما فرض شروطه على طابع الزخرفة والتزيين الداخلي .

لقد تكونت مدينة دمشق ، كأي مدينة عربية إسلامية ، بصورة عفوية منسجمة مع الضرورات المتأخرة ومستجيبة لمتطلبات الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية ، فكانت في ذلك الحيز المكاني الذي رسم أسلوب حياته وتقاليده وشكل تطوره .

واستجابت مدينة دمشق القديمة بصورة تلقائية عن طريق سكانها ،
ل忮طبات المناخ ، فالدروب والازقة الضيقة المتعرجة ، التي تحجب عليهما
والكتبيات والبروزات ما زالت خير وسيلة لتدرأ عن العابرين المشاة حر
الصيف القائظ ، وبرد الشتاء القارص ، ولتحميمهم من الرياح والعواصف
والغبار ، حتى الأسواق فلقد غطيت كلها بقبوّات خشبية أو معدنية ،
فأصبحت واقية شاملة لأهل الأسواق وروادها كما أنها أعطت السوق طابع
الوحدة .

وإذا ألقينا نظرة على المدينة من عل ، فاننا نرى اسطحها وقد امتدت على ارتفاع واحد تقريرا فلا يرتفع البيت اكثر من طابقين وهكذا فان تiarات الهواء لا تؤثر على حرارة الجو في المدروب والحارات ، بما يجعل الفارق الحراري فيها ضعيفا ويعصيها من تقلبات الطقس الخارجي .

اما المسكن فهو في تكوينه وهندسته شديد الانسجام مع ظروف المناخ
ونعرض هنا بعض مظاهر هذا الانسجام .

الاتجاه :

يمتد المسكن في دمشق بشكل مستطيل من الشمال الى الجنوب منحرفاً
٢٠ درجة نحو الغرب وذلك لكي يستفيد هذا المسكن من اشعة الشمس
الجنوبية (او القبلية) ويتحاشى الرياح الغربية الشمالية والغربية .

التلائم :

تلتصق المساكن ببعضها متداخلة او تفصلها الاذقة الضيقة والدروب ، مما
يعطي المدينة وأحياءها طابع التلائم الذي يساعد على عدم التعرض للرياح
والشمس عدا أنه يعطي المدينة طابع التماسك والوحدة .

الصحن :

تفتح المساكن على فناء داخلي يسمى الصحن وهو من أهم مميزات
عمارة المساكن العربية الاسلامية ، التي يجعل هذه العمارة أكثر تكيفاً مع
ظروف المناخ ، ذلك أن مستوى حرارة الصحن لا تتأثر بتغيرات الجو
الخارجية ولذلك فإن الفرق الحراري فيها ضئيل ، ولأن الغرف المحيطة
بهذا الصحن تفتح عليه فإن هذه الغرف تبقى محتفظة أيضاً بحرارتها دون
أن تتأثر كثيراً بتقلبات الطقس الخارجية .

وعدا ذلك فإن الصحن يسمح بظلالة على امتداد النهار كما انه يحتفظ
بهواء نظيف غير ملوث .

ال AISوان :

هو قاعة بدون جدار رابع مفتوحة كلية على الصحن يركن اليها اهل
البيت ويستقبلون فيها ضيوفهم مستفيدين من اتساع الصحن وأشجاره
وبركته ومن هواه النظيف المعتدل .

ارتفاع السقوف والقباب

يلغى ارتفاع سقف القاعة الكبرى والآيوان في المسكن الدمشقي ضعف ارتفاع سقوف الغرف الأخرى ، وهذا الارتفاع يساعد على الاحتفاظ ببنقاوة الهواء ، وعلى تلطيفه المستمر كما هو الأمر بالنسبة للقباب التي تقام في الأماكن العامة كالمساجد والخانات والتكميات والبيمارستانات .

المياه :

تحفل المساكن الدمشقية بالبرك (بحرة) والفسقينات (فستقية) وبالسلبيل (المصب) وتقوم البركة في منتصف الصحن واسعة يبلغ قطرها ٣-٦ أمتار أما الفسقية فهي صغيرة قطرها متر وهي أما ان تكون مرتفعة او منخفضة وتصنع من الرخام المشق او الفسيفساء الرخامى الهندسى ومكانها ضمن القاعة ، والسلبيل لوح مرمرى او مزین بشقوف رخامية مجزعة قائم على الجدار يسيل من اعلاه الماء على صفة هذا اللوح المحاط باطار وقاعدة مزخرفين .

واهتمام المعمار الدمشقى بالمياه محاولة لتلطيف الجو الجاف في داخل البيوت بل في داخل الغرف أيضا .

المواد الانشائية :

أقيمت المساكن والقصور في دمشق من الحجر ومن (الاجر المفبب) بين مداميك البناء بالخشب الملبن) على حد قول العمري^(٩) ولقد شرح تومان Thoumin طريقة البناء في دمشق شرعا وافيا^(١٠) وهي في مجلتها طريقة لدعم اللين بأعمدة خشبية اشبه بالاطار ثم تكتسى هذه الجدران بالطين

(٩) ابن الفضل العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار - القاهرة ١٩٢٢
ج ١

R. Thoumin : Lamaison Syrienne, Paris 1932.

(١٠)

والكلس . او تبني الجدران بالطين والدك ، او بالاجر ، ويدخل الحجر كمادة انشائية ضرورية لاقامة المداميك الاولى للجدران وللتغطية بعض الواجهات . ولاإقامة اطارات الابواب والنوافذ الداخلية والخارجية . ولقد ابانت الدراسات ان البناء الطيني هو اكتر انسجاما مع البيئة القارية من أي مادة اخرى اذ ان الفرق الحراري في البناء الطيني لا يتجاوز الدرجتين

ان العامل الجغرافي ، قديم وثبتت منذ العصر الجيولوجي الرابع على الاقل ، وهو يبقى الناظم الاساسي لتطور المدينة عبر التاريخ ، فادا استثنينا الانسان وخصائصه الروحية والاجتماعية مما سيأتي الحديث عنه ، فان العامل الجغرافي يحدد الشروط الالازمة لتكون المدينة ، ويحدد الفرق بين مخطط مدينة قطبية ومدينة استوائية ، بل بين مخطط مدينة ساحلية وآخر جبلية ، وثالثة صحراوية ، ذلك لأن الارض وغلافها الجسوبي هي العيز المكاني المادي الذي لا بد ان يتفاعل معه الانسان لتكيف حياته مع شروطه .
الثانية .

وعلى هذا فاتنا نرى ان مدينة دمشق حبت طابعها العماني والمعماري . منذ القدم ، وما زال هذا الطابع قائما حتى اليوم ، ولعل هذه الوحدة الراسخة المستمرة ، هي التي تعطي دمشق هذه الاهمية العالمية من انها اقدم مدينة في العالم ، فهي قديمة لأنها ما زالت زاهرة عبر القرون ، وهي قديمة لأنها ما زالت محافظة على خصائصها عبر التاريخ .

العامل التاريخي في تكوين دمشق الشام

لقد أقام الانسان في دمشق منذ العصر الحجري القديم . ولقد كشفت حفريات دوكوتانسون في ضواحي دمشق (تل الرماد) عن وجود موضع سكني منذ الالف السابع قبل الميلاد .

واستمرت حياة الانسان متقدمة في العصر الحجري الحديث ، ولقد كانت المدينة قائمة في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق القديمة ، ليس بعيداً عن باب توما وضمن انحصار نهر بردى عندما يتوجه نحو الجنوب الشرقي ، ولكن الحياة اصبحت زاهرة في عصر البرونز ، واصبحت دمشق مسلكة ارامية ذات سطوة ونفوذ . ولستا ندري كيف كانت دمشق في نهاية الالف الثاني قبل ان خضعت للصربين في عهد تحوتيس الثالث عشر وقد ورد اسمها في وثائق قل العمارنة (دمشقا) ولكننا نعلم انها كانت موجودة كمدينة خلال الالف الثالث وجميع الدلائل الجغرافية والطبيعية تؤكد ذلك ويصنف سوفاجيه⁽¹¹⁾ مدينة دمشق في العهد الارامي ويضع لها مخططها تقريباً وفيه تبدو هذه المدينة في صورتها الاولى المنسجمة تماماً مع الشروط الجغرافية وهي بذلك تشكل الاصول الاولى لعمaran المدينة ولعمارتها . ومن الامور الثابتة ان المدينة كانت محصورة بين المعبد والقصر ، ويقع المعبد على الارجح في مكان الجامع الاموي اليوم ، ويعود ذلك قانون الاستمرارية Continuité الذي يجعل موقعاً ما يحتفظ بوظيفته المعمارية مع تعاقب الحضارات والعوائد . كما يؤكد ذلك العثور على اللوح البازلتى الذي يمثل (ابو الهول) في اساسات الجامع الاموي وقد عثر عليه عام ١٩٤٩ وتبين انه يرجع الى العهد الارامي بمقارنته مع الواح سرير حزائيل ملك دمشق الارامي .

اما القصر فان الاعتقاد ما زال قائماً باذ موقعه هو تل السماكة وكان قصراً منيفاً غنياً كما ورد في وصف الملك الاشوري (أداد نيراوي الثالث) ولستا ندري كيف كانت عمارة القصر والمعبد ، بيد ان المدينة الارامية كانت مدينة عقوبة ville spontanné كما هو شأن المدن الارامية

J. Sauvaget : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas (11).
Revue "Etudes Islamiques" 1934.

السريانية التي مازالت قائمة حتى اليوم في معلولا وجبيدين ، بل كما هو شأن مدينة دمشق العربية التي ما زالت قائمة حتى الان .

ان المبدأ الاساسي للمدينة العقوية هو اندماجها العضوي مع المناخ والطبيعة فهي تتجه لمعطيات ثابتة ، وليست هي نتيجة لخطيط عقلي هندسي كما هو في المدينة المبدعة ville créée ، ففي الحالة الاولى تكون المدينة تابعة لشروط الحياة ، أما الحالة الثانية فتكون المدينة تابعة لاهواء الانسان ، في المدينة العقوية تتطابق حاجات الانسان مع واقع المدينة ، وفي المدينة المبدعة لابد ان يتاكلم الانسان مع واقع مفروض ، وتبدو المدينة العقوية تابعة لظروف الانسان ، بينما هي في المدينة المبدعة دخيلة على ظروف الانسان بعوامل تفرضها الوسائل ، او تفرضها السلطة الغربية او الطراز المستورد .

ويبدو ان الانسان في مدينة دمشق القديمة لم يكن يستعمل ضمن المدينة الا الوسائل الطبيعية في النقل كالجمال والحمير . على الرغم من انه اول من ابتكر العربية ونقلها الى مصر في عهد الهاكسوس . وهذه الوسائل لم تكن تتطلب شروطا خاصة في تصميم الشوارع ، على عكس العربية التي استعملت بكثرة في العهود الهلنستية والرومانية ، حيث فرضت شروطها على الطرقات في خطيط المدينة الرومانية التي فرضتها السلطة من جديد على دمشق بعد ان استولى عليها بومبي عام ٦٤ ق.م ، وأصبح المخطط الشترنجي الذي كان قد ظهر في عهد السلوقيين اولا في القسم الشرقي من المدينة اليوم غربا عن طابع المدينة الaramية ، ثم صار هو المخطط الرسمي للمدينة في عهد الرومان ومازال الشارع المستقيم Via Recta قائما يصل بين باب الجاوية وباب شرقي ، ولقد وضع سوفاجيه أيضا مخططا تصوريا لدمشق في عهد الرومان ، ويبدو فيه طابع المدينة المبدعة على اوضاع شكل . بل ان الكتل العمرانية أصبحت

متشابهة ضمن حدود مساحة ٤٥١/١٠٠ م ، كما ان المدينة ذاتها انحصرت ضمن سور مستطيل (١٥٠٠ × ٧٥٠ م) لا يصله بالعالم الخارجي الا سبعة ابواب .

ان هذه المدينة الغريبة عن الطابع التقليدي للعمaran في دمشق بقىت جسما دخيلا (او تشكلا كاذبا) منفصلا عفويَا عن المناخ والعادات والانسان ، ولذلك لم يلبث هذا المخطط ان اضحل ، وعادت المدينة العفوية للانتشار في مواقع المدينة الرومانية ، بل وبين اطلالها واعمدتها وفوق آثارها الكثيرة ، كما هو قائم حتى اليوم .

واستمرت المدينة تستعيد واقعها العفوي في عهود البيزنطيين الذين احترموا الطابع الشرقي وان هم فرضا بعض العناصر والاساليب الكلاسيكية في اسلوب عمارة الاديرة والكنائس . وخاصة كنيسة القديس يوحنا التي ما زالت آثارها باقية حتى الان في موقع الجامع الاموي . ويأتي العهد الاسلامي لكي تستعيد مدينة دمشق صفاءها وخصائصها بصورة كاملة .

ويتأكد مركز المدينة من جديد ، بعد انشاء الجامع الاموي في عهد الوليد بن عبد الملك ، في نفس المكان الذي أقيم في معبد حدد الارامي ومعبد جوبير الروماني ثم كنيسة القديس يوحنا . وتتكاثف الاحياء والأسواق حول هذا المسجد الكبير . وتمتد المدينة باندیاح ضمن الاسوار ، ويكون للمسجد الجامع دوره الكبير في تكوين دمشق الاسلامية .

العامل الروحي

اذا كانت دمشق اول عاصمة اسلامية بعد مكة المكرمة وهي بهذا وضعت جميع مقومات المدينة الاسلامية ، فان خلفيات هذه المدينة الروحية قد تدخلت تدخلا ملحوظا في دعم الطابع الروحي لهذه المدينة .

على ان هذه الخلفيات لم تكن اكثرا من نسيج الاساطير ، ومع ذلك فان الناس لم يتبيّنوا – وحتى يومنا هذا – الحدود الفاصلة تماما بين الاسطورة والدين .

وأول قصة من قصص الخلق ، هي قصة آدم وحواء اللذين طردا من الجنة وكانت احداث الوجود الاول في موقع دمشق التي لم تكن في نظر العرب واصحاب الديانات الاولى الا الجنة الحقيقية ، وفيها جرت الاحداث الهامة عندما قتل قايبيل أخاه هايبيل غيرة وحسنا ، لأن الله قبل قربان هايبيل من ئمار الارض ولم يقبل قربان قايبيل الراعي . والغوطة هي بيت قايبيل وهايبيل ، وما زال جبل قاسيون يشهد على حسرته وتتجمع لهذا الحدث بصرخة انطلقت من غار فيه لايزال قائما يسمى غار الدم ، كما أن الصخرة التي علق عليها دم هايبيل ما زالت شاهدة رآها الرحالون وما زال الناس يحددون مكانها حتى يومنا هذا .

وفي دمشق مسكن ابراهيم الخليل وايه في موقع بيت لهايا الذي ما زال قائما ، وفي دمشق استقر المسيح وامه في ربوة ذات قرار معين . وفي ضاحية دمشق نجد المكان الذي خرب فيه المسيح القديس بولس قائلا له : شاول ، شاول لماذا تضطهدني ؟ . وفي سور دمشق نافذة هرب منها بولس بعد ان قبض عليه اليهود وسجنهو . وفي دمشق بيت حنانيا الذي عد بولس وانقذه . وفي حقل ليس بعيدا عن السور يوجد الحجر الذي قطع عليه رأس القديس يوحنا ، وفي ضاحية دمشق ، آثار قدم الرسول ما زالت قائمة .

هذه الخليفات التصورية جعلت من دمشق عاصمة اسلامية روحية ذات عراقة واصالة جذبت اليها اهتمام المؤمن ، ولقد أوردت بعض الكتب خصائص دمشق الروحية نذكر منها كتاب « ترغيب أهل الاسلام بسكنى الشام » لعز الدين بن عبدالسلام ، وكتاب « قيد الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي

منذ عام ٦٣٦ اتشر الدین الاسلامی فی دمشق اشارا سریعا . ولم يكن ذلك على حساب اصحاب الاديان الایخرى ، وهم أهل الذمة او اهل

الكتاب الذين حفظت حقوقهم كاملة منذ عهد عمر وتنفيذها ل تعاليم القرآن والحديث •

ولقد قام الاسلام على مبدأ التوحيد « لا اله الا الله » وعلى ان الله « ليس كمثله شيء » وانه محمد رسول الله وهو من البشر ليس في ناسوته ما هو خارق وغير طبيعي ، وانما قام برسالته التي اوصى اليه الله بها ، لكي يرسخ مبادئ التوحيد التي جاء بها ابراهيم الخليل ، ولكي ينظم علاقات الناس مع خالقهم ومع بعضهم البعض . ولقد أنزل القرآن وفيه تخص (العبادات) وآيات تخص (المعاملات) ، وهكذا فان الدين الاسلامي قد وضع دستورا روحيا ودساتير شرعية واجتماعية ، جعلت من الاسلام سلطة دينية ودنوية استمرت قائمة حتى القرن العشرين .

وجعل الاسلام المؤمنين (أمة) واحدة ، والامة بهذا المفهوم هي المجموعة البشرية التي تنظمها قواعد الاسلام وشرعيته ، وهي مجموعة موحدة متضامنة .
لقد انعكست الفكرة الوحدانية على الفكر الاسلامي فبدت في مفهوم وحدة الوجود ، التي اخذت شكلها الاجتماعي في تضامن الامة ، وهكذا كله بما في تكون المدينة الاسلامية التي اخذت طابع التلاحم compact ، وتبدو دمشق القديمة في اجل مظاهر هذا الطابع ، حيث تتعاطف البيوت وتتدخل حدودها وتتعاطف الاحياء لاتفاقها عن بعضها الا طرقات ودوروب ضيقة تمتد ملتوية كأخذود طبيعي بين كتل البيوت المتراصة . وتبدو الطرقات أشبه بدهاليز لا بد منها لترتبط هذه البيوت مع بعضها وما البيت الا محطة هادئة قارة ، يعيش فيها الانسان ضمن نطاق اسرته وهي الخلية الاساسية للمجتمع يتواجد فيها مع الله فكأنما البيت المنفتح على صحن واسع ، يتجه الجميع نحوه نحو الملا الاعلى الذي ترمي اليه قبة السماء الصافية . فاذا كانت المدينة متراصدة مندمجة تأكيدا لوحدة الامة ، فان البيت منفتح نحو السماء لتحقيق اتصال

الانسان بحالته اتصالاً مستمراً . وبمعنى آخر ، اذا كان الوجود الخارجي للانسان موحداً فيما بينه ، وهو موحد أيضاً في نطاق المدينة الفوية ، فان الوجود الداخلي للانسان مرتبط بذكر الله والتسبيح له عن طريق الفسحات الداخلية المفتوحة للفضاء . وعدها ذلك فلقد شدد الاسلام على الاخلاق « ولتكن امة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » كما شدد على التواضع وعدم التبااهي « ولا تشن في الارض مرحباً » واكده على صفاء النفس والتسليم الى الله والاتجاه اليه موئلاً ومبعداً ، « أينما تولوا فثم وجه الله »

هذه التعاليم الاساسية وجدت شكلها في المسكن الدمشقي الذي ينغلق في الخارج بشكل متواضع بل ومتخفف تعاشياً لعصية الله في المساس يشعر الناس عن طريق الظهور بمظاهر التبااهي المتفوق والتمايز ، (فالناس سواسية كأسنان المشط) وبيوتهم كذلك ، ولكن عالمهم الداخلي هو العالم الحر الذي يتحرك بكل فاعلية لتحقيق راحة النفس الكاملة ، عن طريق الخلود لمناجات الله وعبادته .

ونعود الى داخل المنزل الدمشقي ، الى الصحن حيث البركة الواسعة في منتصف الصحن ، وحيث الاشجار الشمرة كالنارنج والليمون ، وحيث الزهور كالليسين والورد والريحان . ولنندق ايضاً في الخطوط الافقية والشقاقولية المحيطة بالصحن ، والتي تشكلها حدود الطبقات والنواخذ ، والتي الابواب والاقواس والزخارف الحجرية والخشبية ، هذه العناصر الزخرفية التي تحقق جمال العالم الداخلي في المسكن ، انها صورة عن سعي المؤمن الى تحقيق روعة العالم الداخلي في أعماق نفسه ، فالخطوط الافقية المحيطة بالصحن هي رمز لحلقات الوجود المادي المحيد بالكون او بالملأ الاعلى وتتصل الارض وجميع حلقات الوجود المادي بالسماء عن طريق المركز المتمثل ببركة الماء التي تتدفق من اوسطها نافورة مستمرة الانبات .

و هذه الاشجار المشرة والرياحين ، هي الجنة التي تصورها المسلم دائماً كنقىض للصحراء القاحلة ، أما الاقواس ، فهي صيغة مصغرة لاتصال المكان بالسماء ، فهذا القوس يتدلى من الاسفل ثم يعود الى الارض وقد رسم شكل الكون الاصغر ، وفي حنایا هذه الاقواس او العقود او القباب يعيش المؤمن في مسكنه المدنی تحت رحمة اجنبة الله الحادبة .

والحديث عن الزخرفة الحجرية (المشق) والجصية (الابلق) والزخرفة الخشبية (العجمي) وعن انصارها الهندسية التي تصدر عن شكل هندسي اساسي مثلث أو مربع أو مسدس أو مثمن لكي تنطلق متشعبه بحركة نابذة جاذبة انما هي من العناصر التجريدية التي ترمي الى معنى الله الواحد الذي تصدر عنه كل القوى واليه تعود ، « انه بيديه ويعيد » واليه ترجع الامور .

اما الزخرفة النباتية فانها تبدو باشكالها النباتية بعيدة عن اصولها الواقعية ولكنها بقيت ترمي الى عناصر الطبيعة ، وهي بحركتها المكرورة الربية تحاكي (الذكر) فكأنما المؤمن هنا يتواجد مع الله في ذكر مستمر (الله حي) لا يكف عنه ولا يتعب منه .

و قليلاً ما شاهد في البيت الشامي زخارف تشبيهية فالصور الادمية والحيوانية تكاد تكون مفقودة ، واذا وجدت صور تشبيهية ما فانها تمثل مشهد مدينة او موضوع فاكهة او زهور . ذلك ان التقليد بقي مستمراً في دمشق بكرابهية التصوير التشبيهي^(١٢) وذلك لاعتقاد الناس بتحريم الدين لهذا الفن قياماً لحديث الرسول مع عائشة ، « ان اشد الناس عذاباً يوم القيمة المصوروون الذين يضاهون بخلق الله » .

ومع اتنا من القائلين بان الاسلام انما حرم تصوير الله ، لأن الله غير قابل للشبه والتصور ، وهذا مبدأ اساسي في العقيدة الاسلامية فان حکراهية

(١٢) انظر كتابنا اثر العرب في الفن الحديث . دمشق ١٩٧٠

التصوير استمرت في دمشق حتى ايامنا هذه . واستعديض عنها بالتصوير
المجرد الذي اطلق عليه اسم الرقص العربي Arabesque

ويتجسد العامل الروحي في تكوين مدينة دمشق واحة مدينة عربية إسلامية بإنشاء المسجد الجامع ، حيث يقيم المؤمنون فيه الصلاة خمس مرات كل يوم ، وفيه يجتمع أهل المدينة كلها يوم الجمعة لإقامة صلاة الجمعة والاستماع الى الخطبة الرسمية (وصف ذلك ابن جبير في رحلته) ، ونستطيع اعتبار المسجد نواة تشكيل المدينة العفوية ، اذ تتساقط المنشآت العامة والخاصة لتجد لها محلًا اقرب الى المسجد وذلك لتسهيل متابعة ممارسة الشعائر وتأكيد الثقافة الدينية في المنشآت العامة . أما المنشآت الدينية الأخرى مثل دار القرآن ودار الحديث ، ف فهي حلقات ثابتة في أبنية خاصة يومها الناس لدراسة القرآن وتفسيره ، ومن المنشآت ما يحفظ ذكر بعض الشخصيات الإسلامية ، وفي جامع دمشق الكبير نفسه أقيم مشهد الحسين حيث يحوي كما يقال رأس الحسين ، عدا قبر النبي يحيى بن زكريا ولعل معاوية بن أبي سفيان كان مدفوناً في مكان ما بالجامع ، وحول المسجد قبور أخرى كقبير صالح الدين والملك الظاهر ونور الدين ، ويتندىء الأسواق الرئيسية من حدود الجامع ، بل ان الحياة الاقتصادية تنداح من منطقة الجامع وتكلاف حوله .

ولأن الحج ركن من اركان الإسلام ، كان له دور ايضاً في تكوين المدينة ، وخاصة دمشق التي تقع على خط مباشر مع مكة المكرمة في طريق يسمى الطريق العظمى وهو طريق الحج . وكان موسم الحج احتفال كبير في دمشق واهتمام اقتصادي كبير ذلك انه كان طريق التجارة الحرة مع الاراضي المقدسة ، ويتندىء الموسم من نهاية شعبان وينطلق المحمل من القصر

بمراسيم متقدمة وبرئاسة امير الحج باتجاه الميدان مجتازا باب المصلى ثم الميدان الفوqاني الى باب الله الى القبيقات ، ويعود المحمل وموكب الحج ويجري استقبال بنفس المراسم^(١٣) .

ان قيام الحج ودوره التجاري الكبير ادى الى وجود ضاحية معمورة على امتداد طريقه في المناطق التي اوردناها ، كما ادى الى اقامة مجموعة من المساجد والمدارس التي ما زالت قائمة كالدرويشية والسبائية والسنانية والصابونية والنقشبندية الخ . ولقد انعكس انتعاش الحركة التجارية في مواسم الحج على الاسواق التي ازدهرت وانتظمت بتأثير الحج .

العامل الحضري

ان اول عامل في تكوين المدينة هو الاستقرار الحضري ، ولهذا الاستقرار شروط لابد من تحقيقها لاستمرار وجود المدينة .

فما هي شروط الاستقرار الحضري المتحقق في مدينة دمشق ؟ اول شرط هو الماء ، فعندما لا تتوفر في مدينة ما اسباب الزرع وتربية الحيوان ، أي عندما لا يتوفّر فيها الماء الكافي للري والارواة فإنها لا تثبت ان تضمحل وتنتهي ، والامثلة على ذلك كثيرة .

ودمشق كما ذكرنا تنعم بمصادر كافية من الماء ، من الامطار والسيول ومن الينابيع الصغيرة ومن نهر بردى والفيجة الذي يخترقها كالشريان وينغذى بيوتها وبساتينها وحماماتها ويسيير طواحيتها ونواعيرها ، ثم هو ينسل بقاعها، ويروي غوطتها الواسعة .

(١٣) البديري الحلاق : حوادث دمشق اليومية . تحقيق د . عزة عبدالحكيم — القاهرة ١٩٥٩

وينبع نهر بودي من سهل الزيداني ثم يرفده نبع الفيجة في بحيرة العتيبة في شرقي الغوطة بعد ان يكون قد سار مايزيد عن ستين كيلومترا ، ترافقه فروعه وقنواته التي تبدأ بالانشقاق عنه في منطقة مرتفعة عند الربوة تساعد على رؤي جميع مصاطب المدينة القائمة على ضفتي النهر الاصلني الذي يستمر سائرًا في منخفض .

وهكذا يمتد في شمال المدينة وفي اعلى مصطبة على سفوح قاسيون نهر بزيد ارتفاعه ٧٣٦م ونهر تورا ٧١٠م ونهر بودي ٧٠٠م وفي الجهة الجنوبية من سفوح جبال المزة نهر بانياس ٧٠٢م والقنوات ٧٠٥م والديوانى ٧١٥م والمزاوي ٧١٧م .

ونهر بودي الاصلني الذي يستعيد بعض ما اعطاه الى فروعه الستة عند مداخل دمشق ، هو شريان دمشق القديمة ، ومنه يتفرع اولا نهر العقرباني وذلك قبل دخوله دمشق القديمة في الموقع الذي يسمى اليوم ساحة الشهداء (المرحلة سابقا) ويسير هذا النهر موازيا بودي بودي نحو الشرق ، وبمحاذاة سور المدينة الشمالي ثم يصل الى باب السلام ثم الى باب توما بمحاذاة السور ايضا ، حتى الشيخ رسلان ويستمر حتى يصل الى الغوطة الجنوبية .

وينفصل عن بودي فرع اخر بالقرب من باب السلام ، يطلق عليه اسم الداعياني الذي لا يفيد المدينة كثيرا ، شأنه في ذلك شأن فرع اخر اسمه المليحي وكلاهما يروي الغوطة .

على ان نهر بودي وفرع العقرباني يشكل في احتواء دمشق شبكة مياه واسعة ، حتى اصبح كل شبر من مدينة دمشق مسقرا ، وقد يكون هذا هو سبب تسمية مدينة دمشق دارميق اي الارض المسقية باللغة الارامية .

على ان تخطيط اقنية المياه في دمشق شديد التعقيد والتشابك وذلك بسبب انعدام العوارض التضاريسية في اراضي دمشق ومع ذلك فان المقاسم

في دمشق تكاد تكون من اهم الترتيبات العقوية التي اوجدت شبكة غطت حاجة المدينة الى مياه وافرة ومستمرة

ان توفر الماء ، وهو الشرط الاساسي للاستقرار الحضري قد اعطى المدينة طابعها العربي المميز ، ففي منطقة قارية جافة كثيرة الرياح ، تلفحها شمس قاسية ، لابد من توفر المياه لسد حاجات الناس المعيشية ولمساعدتهم في تخفيف حدة المناخ . فالماء الذي يتذدق من البركة الكبيرة التي تتوسط الصحن ، في المسكن الدمشقي تجد مصغرا لها في الفسقية التي توجد في ارض القاعدة الكبرى . كما ان هذا الماء يجده معبرا الى السabil (المصب) الذي يزين جدار القاعة ، وتنساب المياه على صفحة المزخرفة على اروع صورة . وعدا ذلك فان المياه في دار الخلاء وفي الحمام تستمر جارية دونما انقطاع . وعدا هذه المياه التي تسرب من النهر كانت مياه الآبار النظيفة جديرة بالارواه . قبل ان تمتد مياه الفيجة الصافية الى اطراف المدينة .

وفي العادات يتسلق الناس كسبا للدعاء والثناء وطلبها للرحمة بعد الوفاة لانشاء السبيل ، والسبيل هو مصدر مائي على واجهة معمارية مزخرفة ذات بركة صغيرة او كبيرة تمتلىء بالماء فيشرب المارة منها ويسترون دوابهم من مخزون حوضها .

وأحيطت دمشق بغوطة واسعة فيها اجمل البساتين وأخصبها تقدم الخضار والفاكهه التي يعيش عليها الدمشقيون وغيرهم ، كما تقدم البادية لحوم المواشي والبانها . ومن الخضار التي اشتهرت بها غوطه دمشق البدورة . والبطاطا والكوسا والبازنجان والفول والبصل والثوم والقنبيط ، ومن الفواكه المشمش والعنب والتفاح والدراق والبرتقال والبطيخ . ومن اهم حاصلات الالبان السمن والجبين الابيض والقشدة التي هي من تاج البدو .

وكان الاتاج الزراعي والحيواني يود الى سوق خاصة تقع في المنطقة المسماة تحت القلعة حيث يوجد دار البطيخ ودار الخضار ولعل سوق الهمال الحالي أقيم بنفس المكان .

الشرط الثاني لاستقرار المدينة واستمرارها هو الامان . الامان من عادات الطبيعة وعوارضها كالبراكين والزلزال والطوفان ، وهي اخطار تصيب كثيرا من مناطق العالم ، ومع ان امكانية تحاشي هذه الاخطار لم تعد صعبة فان دمشق ليست معرضة لهذه المخاطر الطبيعية فيما عدا الزلازل التي اصابتها في فترات متباينة من التاريخ مثل زلزال عام ٨٤٦ و ١١٥٤ و ١٢٠٠ و ١٣٠٢ و ١٧٣٧ .

ومع ذلك فان دمشق لا تعتبر من مناطق التحولات الجيولوجية الخطيرة . والامان الذي لابد من تحقيقه في كل مدينة هو حماية المدينة من العدوان والغزوات وتحصينها للدفاع عنها في حالات الحرب .

ونستطيع القول ان دمشق كانت دائما منيعة فلقد أحاطت منذ عهد الرومان بسور مستطيل الشكل يبلغ طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متر وفيه سبعة ابواب ضخمة . وكانت ثمة منطقة محاذية للسور من الداخل مجردة من البناء ومكرسة للزراعة في حالات الحصار ، وفي الزاوية الشمالية الغربية من السور كان القصر Castrum الذي الشيء لمثل الامبراطور الروماني . وفي العهد الاسلامي تزداد ابعاد السور فيصبح ١٥٠٠/٩٠٠ م وتحتاج مواجهة ابوابه الاخرى وهي باب توما وباب السلام وباب الصغير وباب كيسان فهي أبواب اسلامية .

عدا الباب كانت هناك (الباشورة) وهي دهليز يقع خلف الباب ، اما (الابراج) فمنها ابراج مزدوجة متماثلة تقع على طرفي كل باب او هي لدعم السور وكانت اشكالها تختلف مع الايام والاصلاحات المتتابعة ، فهي مربعة

او نصف دائريه في القرن الحادى عشر وفي القرن الثالث عشر ظهرت ابراج ذات قاعدة مربعة وفوقها برج نصف دائري . وتقوم على هذه الابراج . (مرام) بارزة .

ويزداد تحصين دمشق باقامة (قاعة) أقيمت في نفس مكان مقر مثل الامبراطور وتمتاز هذه القلعة من انها تقوم على مستوى ارض دمشق ، على خلاف قلاع حلب وحمص والقاهرة التي أقيمت على مرتفع من الارض . وكانت هذه القلعة مقرا لنائب القلعة والجندي . وكانت قلعة دمشق تحوي مصنعا للسلاح ومسجد وحمام وبرجا للحمام ومستوصفا .

ولابد من القول ان اية مدينة لكي تتمتع بشروط الاستقرار لايمكن ان تبقى محصورة ضمن نطاق اسوارها ، ولا بد ان تضطر في ظروف ازدهارها وزيادة سكانها الى التوسيع وايجاد مدن صغيرة ملحقة ، كما تم في دمشق عند انشاء الصالحية في القرن الحادى عشر ، حيث انشأ المقادسة المهاجرون بعد سقوط القدس في ايدي الصليبيين ، معسكرا فيها اطلق عليه فيما بعد دير الحنابلة ، وثمة حي اخر انشيء بعد ذلك شمالي سور اطلق عليه اسم العقبة عدا الارياض التي انشئت في القسم الغربي من المدينة واولها محلة حكير السماق . ولقد انشئت في هذه الضواحي والارياض جوامع خاصة بها وبيمارستانات ومدارس مازال اكثراها باقية حتى الان . على ان توسيع المدينة وتكون الارياض المحيطة بها ، اذا كان علامة من علامات الاستقرار الذي دفع الناس الى تجاوز الاسوار والاقامة بعيدا عنها فان الامر لم يكن دائما قميما بهذا الاستقرار ، بل على العكس ، ففي العهود التي كان الناس فيها يشعرون بسخاطر الغزو والحروب الاهلية والنزاعات الاقطاعية ، كانوا يلجأون الى داخل المدينة ويهملون الضواحي . ويتحدث ابن تغر بردى^(١) يصف دمشق في أحد احوالها المائلة فيقول : « فقد بدت المدينة وكأنها مجموعة

(١) ابن تغر بردى : النجوم الزاهرة . . . القاهرة ١٩٤٢

حارات مستقلة ، لكل حياتها الخاصة بها ، منفصلة عن جارتها وكانت كل هذه العارات كأنها بلدة مصغرة بمسجدها وسقاية الماء فيها وحماماتها وسوقها التي كانت تباع فيها حاجياتها ، وكانت بيوت الحارة الواحدة يوصل اليها طريق واحدة له باب يقفل ليلاً » .

والشرط الثالث لتحقيق الاستقرار في المدينة هو (التبادل) .

والمقصود هنا تبادل الاشخاص والخدمات والسلع . ويتم ذلك في مدينة دمشق بواسطة (الأسواق) (والدروب) (الأزقة) .

أما الأسواق في دمشق فهي خمسة شبه مستقيمة تقوم على طرفيها الدكاكين المختلفة ، وينطلي السوق (سقية) من الخشب أو من المعدن ، أما الدرب فهو طريق بين ساحتين والزقاق منفذ إلى مجموعة مساكن ، يتذيء بباب دفاعي يعلق مساء . وكان الناس أنفسهم يعنون بطرقاتهم ودورتهم ويحبسون من أجلها الأوقاف كما لاحظ ذلك ابن بطوطة في رحلته إلى دمشق^(١٥) .

ويجب التنوية هنا أن مدينة دمشق القديمة لا تحوي ساحات لاجتماع الناس ، بل هو صحن المسجد الذي يستوعب تجمعهم ، وثمة مكان (تحت القلعة) وفي الشمال منها كان حقلًا لاجتماع الجنود واستعراضهم من قبل قادتهم وهو واقف على طارمة القلعة . وثمة (ميدان) للخيالة يقع خارج المدينة كميدان الحصى أو المرح الأخضر ، إضافة إلى (مصلى) تقام به الاحتفالات الدينية الكبرى .

أما (الرحبة) فهي ساحة محاطة باليوبوت كرجة البصل ، و (المربع) هو مصطبة واسعة عند تقاطع كمربع الفرز .

(١٥) ابن بطوطة : تحفة الناظار بباريس ١٨٧٤-١٨٧٩ .

على ان السوق هو مجال التبادل التجاري، ويقول في ذلك بعض الرحالة الاوربيين عام ١٣٨٤ « ان ما يصنع في دمشق ، من اي نوع كان ، كبيراً كان او صغيراً ، هو اكثراً مما يصنع في أي مكان اخر في الدنيا » . وبعد ان يعدد الصناعات المتوفرة في ذلك الوقت يقول : يتوارث الناس الصناعة جيلاً بعد جيل ، يزيد على ذلك انهم بلغواغاية في المهارة الصناعية في فنونهم وحوائطهم مرتبة أنيقة نظيفة بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور .

وفي دمشق كما هو الامر في جميع المدن الاسلامية ، تتكاثف الاسواق قرب المسجد الجامع مثل سوق العطارين والبزورية والخياطين والقلبة والحرير والصاغة وسوق القناديل ، كما تتكون اسواق حول القلعة كسوق الخيل وسوق السروجية وسوق التبن وسوق السلاح وسوق الحدادين . أما (القيصرية او القيسارية) فهي سوق مغلقة لتبادل السلع الثمينة كالصوغات والسجاد والمطرزات والمنسوجات الفاخرة .

و(السوية) هي سوق صغير اما (الموسى) فهو سوق موسمي ولعل (الباشورة) اصبحت اسواقاً في ايام الحصار . و(الخان) او (الفندق) هو بناء معلق ذو فناء وغرف لاقامة التجار في طابقين مشرفة على الفناء الذي يستوعب الجمال والخيل والبغائع ومن أشهرها في دمشق خان اسعد باشا وخان الحرير وخان سليمان باشا .

لم تكن المبادرات التجارية والعلاقات الاقتصادية دون رقابة وثيقة توطد الامن والاستقرار للحياة الاقتصادية في المدينة .

ومنذ بداية الاسلام نشأ في المدينة ما يسمى بـ«أمين السوق» الذي حمل فيما بعد وخاصة في القرن العاشر اسم المحاسب ، ووظيفته الاساسية التأكد من الاوزان والمكاييل ومكافحة الغش ثم اصبحت هذه الوظيفة مرتبطة بال تعاليم الشرعية وحددت لها شروط وواجبات واصبح المحاسب من اكبر

· موظفي الدولة واسعهم تفواً من القرن العادى عشر اذ تناولت وظيفته مقاومة التخريب وكشف المتأمرين وامتدت الى نطاق الاسواق والشوارع · وحفظ حقوق المرأة وقمع التزيف وحماية الاطفال من معلميمهم والمرضى من الاطباء والكحالين غير المرخص لهم ·

وثمة عامل استقرار اساسي في تكوين المدينة هو تأمين التبادلات الخارجية، اذ ليس بامكان مدينة ما ان تستمر بوجودها اذا كانت منفصلة عن العالم · ودمشق تتصل من الشمال بطريق تجاري مع حلب يصلها بالعراق وآسيا الصغرى ، كما تتصل بطريق اخر مع تدمر وتتصل من الشرق ببغداد وببلاد الشرق الادنى والاقصى ، ومن الجنوب ثمة طريق رئيسي هو طريق الحج عن طريق درعا ، يوازيه طريق اخر يصل الى بحيرة طبرية ومنها الى فلسطين ثم مصر ، ومن الغرب تتصل بيروت وصيدا عن طريق الوديان المتعددة بين سلاسل الجبال اللبنانية ·

العامل الثقافي

وإذا كان المسجد مكان لقاء المؤمنين، ولتنمية الاواصر بينهم فان الحمام هو المكان الذي يجتمع فيه الرجال فينظفون اجسامهم ويستريحون ويسمرون كما يجتمع فيه النساء ويتواعدن وتكون لهن فرص لاختيار العرائس وتوطيد العلاقات الاجتماعية ·

ولقد عدد ابن جبير الاندلسي ، مئة حمام واربعين دارا لل موضوع ، شاهدها في مدينة دمشق عندما زارها ايام صلاح الدين واصبح عدد الحمامات ايام ابن بطوطة مائتي حمام ، ويتألف الحمام من اربعة اقسام ، المشلح والبارد او البراني والوسطاني والجواني او الحار ، ثم القميص او بيت النار · ويتألف كل قسم وخاصة الجواني من مقاصير مغطاة كلها بقباب ذات عيون زجاجية تساعده على دخول النار ·

لقد كان رسول الله اول معلم في الاسلام ارسله الله الى عباده ، وفي القرآن « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون »

وكان اول مؤسسة تعليمية هي المسجد ، والقرآن هو الكتاب الاول الذي اصبح موضوع الدراسة والبحث والتفسير في المسجد ، بل اصبح القرآن مصدر علوم اخرى ، علم الكلام وعلم الفقه وعلم التجويد وعلم القراءات ثم علوم الحساب واللغة .

وبعد ان توسيع الدولة الاسلامية ، واختلط العرب بغيرهم من الشعوب فضعف لغتهم من جهة وتوسيع معارفهم العلمية من جهة ثانية ، ظهرت فئة من الناس ، وهم العلماء والفقهاء والقراء والحافظ والمذدبون الذين تولوا زمام التعليم في المسجد اولا ثم في المدرسة والكتاب حيث يجتمع طلاب العلم في حلقة دراسية وتقدم العلوم عن طريق الشرح والجدال والحفظ .

ويصف ابن بطوطة حلقات التعليم في المسجد الكبير وصفا وافيا يقول : « ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحا ومساءا . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تزيها لكتاب الله تعالى ، وانما يقرأون القرآن تلقينا ، ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الاشعار وسواها ، فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاء خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره »

واول من ترأس حلقات علم الكلام ، الحسن البصري في جامع البصرة اما الفقه فلقد ظهر له أئمة مجتهدون من اهمهم الامام مالك بن أنس والامام ابو حنيفة والامام احمد بن حنبل والامام الشافعى الذين اغنوا الفقه الاسلامي باجتهادات بارعة اتباعها المسلمين وكانت لهم مذاهب اربعة متميزة في فقه الدين .

وفي علم اللغة كان الخليل وسيويه وابن جني وغيرهم من اعلام اللغة واربابها حجة المعلمين والدارسين .

ولعل الكتاب كان اول معهد مستقل عن الجامع يشرف عليه شيخ فريد ، وكان مخصصا للدراسة البدائية ، ولا بد ان نذكر بيوت العلماء الخاصة ودكاين السوراقين التي كانت مؤسلا ايضا للدارسين المتعقين بالإضافة الى المسجد الذي استمر حتى يومنا هذا منبرا لجميع مستويات التعليم .

على ان ثمة مؤسستين تعليميتين هامتين كان لهما دور اساسي في تكوين الخليفة الثقافية للمدينة العربية الاسلامية وخاصة دمشق هما دار الحكمة ودار العلم وهما مؤسستان اكاديميتان لتدريس العلوم العربية الاختصاصية وكانتا اشبه بالمعاهد العليا وكانتا تحويان مكتبة من المخطوطات كثيرة منها منقول عن الفارسية والسنكريتية او اليونانية .

ومن اقدم دور الحكمة الدار التي انشأها المأمون في بغداد ، وكانت اول دار للعلم هي التي انشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة ، وظهرت المدرسة لأول مرة في القرن الخامس الهجري في نيسابور في عهد ألب ارسلان السلجوقي ثم انتشرت في عهد ملكشاه وقد انشأ وزيره نظام الملك اكبر مدرسة في العالم العربي الاسلامي وهي النظامية في بغداد (١٠٦٧) م وهي في الواقع اشبه بالجامعة اليوم فقد كانت تدرس فيها جميع العلوم وخاصة علوم الدين على المذاهب السنية الاربعة .

ومن المدارس التي كانت تعلم القرآن في دمشق – الخضرية والجزرية والدلامية والرشائية والسنجدارية والصابونية والوجيهية • ومن أضخم المدارس التي مازالت قائمة حتى اليوم المدرسة السليمانية التابعة للكتابة السليمانية والتي اقيمت ككتابية سليمانية والجامع على انفاس القصر الابلق المملوكي ، وتألف هذه المدرسة من مجموعة من الغرف المقيبة ذات اروقة تحيط صحنها واسعاً تتوسطه بركة كبيرة وفي الجهة الجنوبية مصلى مخصص للمطلاب ولهذه المدرسة باب رئيسي من الجهة الشمالية واربعة ابواب فرعية صغيرة •

وازدهرت الحركة التعليمية في عهد نور الدين بن زنكي ومن اقدم المدارس مدفن نور الدين نفسه حيث كان مدرسة ذات طراز سلجوقي كما يبدو واضحًا من عمارتها القائمة حتى يومنا هذا •

ولقد عدد النعيمي عدداً يقرب من مئة مدرسة كانت موجودة في دمشق في مطلع القرن العاشر اكثراًها لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي وبعضها لتدريس المذهبين الحنفي والمالكي نذكر منها المدرسة العادلية التي انشأها الملك العادل والتي مازالت حتى اليوم وهي مجمع اللغة العربية والمدرسة الظاهرية والمدرسة الجقمقية والجوهرية •

واضافة لدور القرآن والمدارس كانت هناك منشآت خاصة للتلقين اصول الطرق الصوفية ولممارسة شعائرها كالكيلانية والرفاعية والقاديرية • والمولوية والشاذلية • ويطلق على هذه المنشآت اسم خانقاه او الرباط والزاوية ، وعدد النعيمي منها تسعاً وعشرين خانقاه وواحداً وعشرين رباطاً وستة وعشرين زاوية • ومن اقدم الخوانق خانقاه الطواويس وخانقاه خاتون وكان ابن جبير قد شاهد كثيرة من الخوانق والرباطات •

والواقع ان الصوفية انتشرت بقوة على يد ابن الفارض وابن عربي المدفون في دمشق (١٢٤٠) • ولكن الغزالى (الذي اعتزل الحياة في دمشق)

كان قد اورد باعتدال اسباب تصوفه في كتابه (المندى من الضلال) فهو يقول : « وكان ظهر عندي انه لامطعم لي في سعادة الاخرة الا بالتفوى ، وكف النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكتنه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الحياة والمال ، والهرب من الشواغل والعائق . »

ولقد قاوم ابن تيمية حركة التصوف ودعا الى الاصلاح فسجن في قلعة دمشق وفيها مات .

وببناء المدرسة قد يكون بسيطاً مؤلفاً من قبة ملحقة بمسجد او بمدفن ، او قد يكون بناؤه مستقلاً مؤلفاً من ايوان وصحن وعدد من الغرف ، او من اربعة او اواني متقابلة يدرس فيها الفقه على المذاهب الاربعة .

ولابد هنا من ابراز أهمية البيمارستان ، وهو المشفى الذي يلجأ اليه المرضى وكان الوليد بن عبد الملك والخليفة الاموي في دمشق ، اول من اوجد هذا النوع من المؤسسات لمعالجة المرضى والبرص والعرج والعمى كما يقول الطبرى .

وكانت هذه المؤسسات ذات وظيفة صحية انسانية وتعلمية بوقت معاً ، ذلك ان البيمارستان شأنه شأن المشافي الجامعية ، يقوم الاطباء المشرفون فيه على تعليم الطب والصيدلة اضافة الى معالجة المرضى كما كان الامر في بيمارستان النوري الذي اشرف على التعليم فيه ابن النفيس وبيمارستان القميри والبيمارستان الصغير .

وعدا هذه البيمارستانات كانت هناك مدارس لتعليم الطب ذكرها النعيمي مثل الدخوارية التي بناها مهذب الدين دخوار (٦٢١ هـ) وكانت تقع قبل الجامع الاموي ، والدينيرية التي اشرف عليها الطبيب عماد الدين الدينيرية (٦٨٦ هـ) واللبودية النجمية انشأها نجم الدين اللبودي (٦٧٠ هـ) .

وجميع هذه المؤسسات التعليمية كانت باشراف الدولة المباشر او غير المباشر ولكن الافراد والمحسنين كانوا ينفقون عليها عن طريق الاوقاف التي تنوّعت حتى شملت اموراً كثيرة .

ان هذه المؤسسات التعليمية انما هي مظهر من مظاهر التقيد بالواجبات الدينية ، فلقد امر الله باستعمال العقل والحكمة « أفلأ تعلمون » « افلا تذكرون » وجعل القرآن هدى « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ٩/١٧ وفي الحديث « تعلموا ما شئتم ان تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعلموا » و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ٠٠٠

لذلك كان العلم والتعليم فرضاً على المسلمين ، بل هو فرض عين لا يمكن الابادة فيه كفرض الكفاية الذي يسقط عن الاخرين اذا قام به البعض . وهكذا فإن المؤسسات التعليمية هي مؤسسات دينية أيضاً ، وهي بهذه الصفة موضع احترام الناس وتقديرهم يتسبّبون لرسم الاركان الواسعة لخدمتها ودعمها ، وموضع رعاية الخليفة والسلطان الذي جعل العلم والتعليم تحت سلطة شيخ الاسلام والفقهاء .

العامل السياسي

اذا كانت دمشق مملكة في عهد الاراميين فقد أصبحت ميتروبول اي مدينة رئيسية ثم مستعمرة رومانية ايام الرومان ، وهي نفسها التي أصبحت عاصمة الامويين ، وفيها كان مقر الخليفة وديوان الحكم وقائد الجند وصاحب بيت المال واليها كان يرجع الولاية في جميع ارجاء البلاد التي امتدت من مشارف الصين وحتى الاندلس .

ونحن نعلم من الاخبار المدونة ان اول قصر انشيء في الاسلام كان قصر معاوية « الخضراء » الذي اقامه عام ٦٥٦ في جنوبى الجامع الكبير ، اقامه

من الطين او لا ثم نقضه واقامه من الحجارة كما روى ابن عساكر^(١٦) ، ولقد اشتري عبدالملك بن مروان هذا البيت واقام فيه . كما أقام دار الخيال لاستقبال المؤفدين والرسل . ثم انشأ الوليد بن عبد الملك عام ٧١٠ م المسجد الكبير الذي استمر بناؤه عشر سنوات فكان مسجداً على مستوى الدول العربية الاسلامية الكبيرة التي كانت دمشق اول عاصمة لها .

ومع ذلك فإن دمشق لم تضم قصور الامويين على الرغم من كونها عاصمة ذات تقاليد وخصائص قمينة يجعلها مقراً ناجحاً للخلفاء . بل لقد اقيمت قصور الخلفاء في الاردن والبادية والبقاع، مثل قصر عمره وقصر ابيه وعنجر التي انشأها الوليد ، أو في بادية الشام كقصور الرصافة والعبيرة التي انشأها هشام . ويرجع ذلك الى اسباب خاصة بالامويين منها عدم الفتنهم للحياة المدنية ، ورغبتهم التقرب من قبائل البادية ، وسعيهم للهدوء والراحة وحرضهم على تعليم اولادهم اللسان العربي الاصيل بعيداً عن الرطانة والبهجة كما يقول ابن عبدربه .

ولابد من القول انه من الامور التي عاقت استقرار المدينة الاوبئة والامراض التي سرت فأهلكت الناس ودفعتهم الى الاتشار ، وبقيت دمشق محافظة على صورتها القديمة ولكنها كانت موئلاً لآل البيت والفقهاء والشعراء في ذلك العصر .

وفي العصر العباسي انتقلت عاصمة الحكم الى الكوفة ثم الى بغداد وأصبحت دمشق مدينة مهملة نظراً لكراهية العباسين الشديدة للامويين ورغبتهم الاتقام الدائم من أتباعهم .

(١٦) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق مخطوط حقق منه القسم الاول من المجلدة الثانية ، والمجلدة العاشرة ثم المترجم حرف

وعندما ولـي أـحمد بن طـولون مـصر والشـام جـعل حـكمه ورـاثـياً ثـم جاءـ
الـاحـسـيدـيـوـن وـلـم تـكـن الـاـحـوـال السـيـاسـيـة الاـ اـضـطـرـابـاـ مـسـتـمـراـ وـحتـى اذاـ
استـلـمـ الـفـاطـمـيـوـن زـمـامـ الـحـكـم عـلـى مـصـر والـشـام (٩٦٨-٧٥) فـانـ دـمـشـقـ الـتيـ
أـعـلـنتـ مـقاـومـتـها لـلـسـلـطـةـ الـتـيـ تـخـتـلـفـ فـيـ مـذـهـبـ النـاسـ فـيـهاـ ، وـصـلتـ
إـلـىـ حـضـيـضـ تـدـهـورـهـاـ وـيـذـكـرـ اـبـنـ الـجـوزـيـ ذـلـكـ بـالـاـمـثـلـةـ وـالـاـرـاقـمـ .

وـفيـ عـهـدـ السـلاـجـقـ وـالـاتـابـكـةـ (١٠٧٥-١١٧٤) تـجـلـىـ عـلـاقـةـ السـكـانـ
مـعـ السـلـطـةـ الـتـيـ دـعـتـ مـذـهـبـ اـهـلـ السـنـةـ وـيـنـصـرـفـ النـاسـ لـلـمـشـارـكـةـ فـيـ مـقـارـعـةـ
الـصـلـيـيـنـ فـيـ حـلـمـتـهـ الـاـولـىـ وـالـثـانـيـةـ وـفـكـ الحـصـارـ عـنـ مـديـنـتـهـ عـامـ ١١٤٩ـ .
وـفيـ عـهـدـ نـورـالـدـينـ زـنـكيـ ، وـصـلـاحـ الدـينـ الـايـوـبـيـ تـسـعـيـدـ دـمـشـقـ
اـهـمـيـتـهاـ بـعـدـ زـوـالـ الخـطـرـ الـصـلـيـيـ وـتـحـرـيرـ الـأـرـضـ ، وـتـقـامـ فـيـ دـمـشـقـ الـمـدارـسـ
وـدـورـ الـعـلـمـ وـتـنـشـطـ فـيـهاـ التـجـارـةـ وـتـنـشـأـ الـاسـوـاقـ وـلـقـدـ وـصـفـ اـبـنـ جـبـيرـ
هـذـاـ الـحـالـ فـيـ رـحـلـتـهـ .

وـمـاـ انـ تـوـفـيـ صـلـاحـ الدـينـ ١١٩٣ـ حـتـىـ قـامـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ بـعـدهـ وـجـعـلـ وـلـدـهـ
الـاـشـرـفـ مـوـسـىـ وـالـمـعـظـمـ عـيـسـىـ وـلـاـةـ لـهـ فـيـ دـمـشـقـ ، وـلـكـنـ النـزـاعـ الـذـيـ اـحـتـدـمـ
بـيـنـ اـمـرـاءـ اـلـاسـرـةـ الـاـيـوـبـيـ اـعـادـةـ لـدـمـشـقـ وـضـعـهـاـ الـمـتـأـزـمـ الـىـ اـنـ قـامـ اـحـدـ الـمـالـيـكـ
بـاـنـقـلـابـ فـيـ دـمـشـقـ وـتـمـ مـثـلـ ذـلـكـ فـيـ مـصـرـ ، وـعـنـدـمـاـ قـهـرـ (ـ قـطـزـ) سـلـطـانـ مـصـرـ
الـمـلـوـكـيـ التـارـيـخـيـ فـيـ عـيـنـ جـالـوتـ أـصـبـحـتـ دـمـشـقـ تـابـعـةـ لـمـصـرـ ، وـلـكـنـهاـ حـظـيـتـ هـذـهـ
الـمـرـةـ بـمـكـانـةـ لـائـقـةـ جـعـلـتـهـ أـقـدـرـ عـلـىـ الـاسـتـقـرـارـ وـكـانـ فـيـ الـوـاقـعـ الـعـاصـمةـ
الـثـانـيـةـ لـدـوـلـةـ الـمـالـيـكـ كـمـ يـقـولـ الـعـمـريـ ، بـلـ كـانـ لـلـسـلـطـانـ مـقـرـ فـيـ دـمـشـقـ
يـنـزلـ فـيـ قـلـعـتـهـ وـفـيـهاـ سـرـيـوـ مـلـكـ خـاصـ بـهـ .

وـكـانـ الـوـالـيـ اوـ نـائـبـ السـلـطـانـ يـنـفـذـ تـعـالـيمـ السـلـطـانـ وـيـمـثـلـهـ وـيـشـرـفـ عـلـىـ
الـحـكـمـ كـمـ يـشـرـفـ عـلـىـ صـاحـبـ الشـرـطةـ وـالـجـنـدـ ، وـلـكـنـ مـنـصـبـ قـاضـيـ الـقـضـاءـ
الـذـيـ يـشـرـفـ عـلـىـ الـعـدـلـ بـحـكـمـ الشـرـيعـةـ وـمـنـصـبـ نـائـبـ الـقـلـعـةـ كـاـنـاـ مـسـتـقـلـيـنـ
عـنـ سـلـطـةـ الـوـالـيـ مـرـتـبـيـنـ بـالـسـلـطـانـ مـباـشـةـ وـكـانـ اـسـتـقـلـالـ السـلـطـانـ هـذـاـ الـذـيـ

يضمن للسلطان عدم التأب عليه ، سببا في عدم استقرار الحكم ، فلقد توالي على السلطة في دمشق اثنان وستون واليا من الملوك مات أكثرهم قلا .

ولكن دمشق في هذه الفترة كانت قد أصبحت مقرا لكثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين من أمثال ابن تيمية وابن كثير والمقطري والعمري وابن الشاطر الشلكي وبين عبدالهادي الصفدي والنعيمي . ويعتبر هذا العصر هو الذهبي في حياة دمشق الفكرية .

وينتقل الحكم إلى العثمانيين عام ١٥١٦ وتتأكد السيطرة التركية وتصبح دمشق أشبه بالمستعمرة لا يربطها بالعاصمة إلا الولاء الديني . ويستقل أهل دمشق بحياتهم بعيداً عن السياسة وإن كانوا من ضحاياها وينصرفون إلى التجارة والصناعة التي ازدهرت بسبب موقع دمشق التجاري واقبال التجار الغربيين إليها . ثم لأنها أصبحت مركزاً لـ التجمع قواقل الحجج من مختلف أنحاء البلاد العثمانية ، وكان الحجاج يتداولون البضائع من أسواقها مستفيدين من الأعفاء من المكوس الذي كان قائماً بسبب الحجج .

عمران المدن الشامية حديثا

يرجع التنظيم العثماني في بلاد الشام إلى أحقاب بعيدة في التاريخ ، ويبدو أن هذا التنظيم كان مطابقاً للطراز الراافي ، ثم أصبح في العصر الهلنستي أغرى قياماً يقوم على التخطيط الشطرينجي ، ثم تسررت الفوضى العثمانية حتى بلغت أوجها في العصر العثماني ، حيث أصبح أصحاب التفوذ يتجاوزون حدود ابنيتهم على حساب الطرق والشوارع العامة التي تحولت شيئاً فشيئاً إلى أزقة صغيرة يكاد نور الدين لا يصلها في وضح النهار . كما أصبحت المدن كثيرة مهملاً نتيجة الزلازل والأوبئة ونتيجة اهمال المباني الواقية والاثرية وسرقة موادها .

ولقد ظهرت محاولات لاعادة تنظيم مدينة حلب في عام ١٨٦٨ حيث نظم حي العزيزية كما نظم حي الجميلية بمساعي حاكم حلب جميل باشا ، ويقوم هذا التنظيم على مبدأ الشوارع المتقطعة . ثم استعانت حلب بالمهندس الفرنسي شارتيه Chartet ثم بالمهندس الالماني يونغ Yong الذي وضع أساسا عمرانيا جديدا لتنظيم حي الاسماعيلية والجميلية .

ثم قام الوالي رؤوف باشا في عام ١٩٠١ بفتح عدد من الشوارع الجديدة وفي عام ١٩٣١ وضع اول مخطط اجمالي للمدينة ، وكلف المهندس دانجييه Danger بعمل مخطط تنظيمي للمدينة يقضي بالمحافظة على معالم المدينة القديمة والعمل على بناء مدينة حديثة ذات شوارع عريضة وساحات وحدائق تقوم فيها العمارت الضخمة الحديثة . وقام العالم سوفاجية Sauvaget بعملية تقويم الابنية والموقع الاثرية في حلب . ثم قام ايکوشار Ecochard بتعديل مشروع دانجييه Danger الذي تمت الموافقة عليه عام ١٩٣٨ ثم قدم كوتون عام ١٩٥٣ مشروعه جديدا مازال موضع تطبيق ، ويقوم اليوم المهندس الياباني بانشويما Banshoya بوضع مخطط جديد للمدينة ، يساعد في ذلك المهندس جان كلود ميشيل كموفدين عن منظمة اليونسكو (١٧) اما في دمشق فان اول مخطط تنظيمي وضع لها كان عام ١٩٣٧ ووضعه المهندسان دانجييه وايكوشار ويقوم على تنظيم شبكة شوارع اساسية الى جانب شبكة شوارع ثانوية . وهذا التنظيم مطابق لمفهوم العمران الفرنسي عند هوسمان Haussman الذي نظم مدينة باريس أيام الامبراطورية الثانية . ولكن هذا المشروع لم ينجح بسبب اهماله للحدائق والملاعب وللبساتين القائمة ولعدم تخصيصه اسواقا محلية .

(١٧) عبد الرحمن حميده : محافظة حلب ص ٢١٢ ، وانظر : نشأة شحادة : المخطط التنظيمي لمدينة حلب : مجلة المهندس العربي عدد ٢٤-٢٦

ثم قدم المهندس ميشيل ايكونشار عام ١٩٦٧ مع بانشويما^(١٨) مخططاً حرصاً فيه على المحافظة على المنطقة الخضراء ، وركزاً التوسيع على المناطق الجرداء من المدينة ، كما اهتما بصياغة الطابع التاريخي للاماكن الاتية ، وخاصة الجامع الاموي وقلعة دمشق التي وصفها ايكونشار من انها تساوي متحف اللوفر في باريس .

ولابد من القول ان واقع مدينة دمشق الحالي قد اصابه كثير من الاصلاح والتعديل ، ولكنه اصلاح بعيد عن التجانس والوحدة ، فلقد استمد من النظام الفرنسي هندسة الميادين الواسعة والشوارع العريضة ، واخذ من النظام الامريكي مبدأ فصل منطقة الاعمال من منطقة السكن ، واخذ من النظام الالماني مبدأ فصل العمل والانتاج الصناعي عن الاسواق ودور السكن ونقلها الى خارج المدينة^(١٩)

ولابد من الاعتراف ان ما اصاب المدن الشامية من التحسين والتجميل والتنظيم بعد الاستقلال ، كان ثورة فنية كبيرة قلبت شكل هذه المدن خلال ربع قرن وحدثها واصبحت مماثلة لأجمل المدن الحديثة في العالم ، بما حوتة من شوارع منتظمة وجسور وارصفة وحدائق واسعة وملاعب ، كل هذا مع المحافظة الكاملة على النظافة وجمال الابنية وتنوير الشوارع وحسن تصريف الاقدار وتعبيد الشوارع وتشجيرها وتنظيم السير ... الخ .

ومما لا شك فيه ان تنظيم المدن الكبيرة يسير بـعا للتطور السكاني فيها وتبعاً لموقع هذه المدن من طرق المواصلات الدولية ولموقعها الطبوغرافي والجغرافي ، وهذا ما روعي في مشاريع التنظيم الجديدة في سورية التي يزداد

Eeochard (M), Banshoya (G), Ville de Damas, Etape définitive 1966. (١٨)

(١٩) صفحات خير : دمشق ص ٥٨٩

عدد سكانها باطراد وتزداد اهميتها الاستراتيجية لوقوعها في صدر البحر الايض المتوسط وتمرور اثابيب البترول العراقية وال سعودية منها . ولكن الى جانب هذا التعديل الشكلي المنسجم مع ظروف العصر ، فان التنظيم العمراني للمدن الشامية قد تخلى عن جميع الخصائص التقليدية وتنكر للعوامل التي كانت قد كونت المدينة والتي جعلتها اكثر ارتباطا مع الحياة والانسان .

المدينة الحديثة وفقدان الهوية

ثمة اسباب ادت الى تغيير معالم المدينة الشامية وفقدان هويتها ، ومن هذه الاسباب :

- ١ - تضخم السكان الانفجاري
 - ٢ - تطور الالة والتقنيات والمواد .
 - ٣ - سيطرة التخطيط الاقتصادي الامبرالي .
 - ٤ - عدم توفر الدراسات القومية لتطوير المدينة العربية وحفظها .
 - ٥ - ضعف وسائل الحفاظ على المدينة القديمة .
 - ٦ - عدم وضوح مفهوم المعاصرة .
- ١ - تضخم السكان الانفجاري في المدينة القديمة :

لقد تضخم سكان المدينة العربية الا يمة وخاصة سكان العاصمة ، بشكل سريع وانفجاري ، فبلغت نسبة ارادة السكانية السنوية الطبيعية (٪.١٢) في بعضها ، وبلغت نسبة الزيادة الاستيطانية (٪.٢٥) .

ففي دمشق مثلا بلغ عدد السكان عام ١٨٨٤ (١٦٠) الف نسمة وارتفع الى (٣٠٠) الف نسمة عام ١٩١٣ ثم انخفض بسبب الاوبئة وال الحرب الى (١٧٢) الف نسمة احصاء عام ١٩٢٣ ، وفي عام ١٩٦٠ اصبح سكان مدينة

دمشق (٤٩١٣٩٨) نسمة ثم ارتفع عام ١٩٧٠ الى (٨٣٠٩٢١) نسمة . وبصورة عامة فان زيادة السكان في مدينة دمشق هي (١٢٪) سنويا وهي زيادة عالية جدا ، بل بلغت بعد حرب ١٩٦٧ مع اسرائيل جدا اعلى بكثير . هذه الزيادة الكبيرة في عدد سكان مدينة دمشق تعطينا فكرة عن كثافة السكان فيها التي تبلغ (٨٠٠-٥٠٠) نسمة في الهاكتار . ولكن الفرق كبير بين كثافة السكان في المدينة القديمة اذ يبلغ (١٢٠٠) نسمة في الهاكتار وبين الكثافة في المدينة الحديثة التي تبلغ (٢٥٠) نسمة في الهاكتار ، على اذ كثافة المساكن فيها التي تبلغ (١٠١٣٦) متراً في الهاكتار بينما هي (١٢٣٨) متراً في الهاكتار الواحد في المدينة الحديثة ، وان متوسط ما يخص الاشخاص في كل غرفة ويسمى درجة التزاحم تبلغ (٣٢) في الضواحي الشرقية وقلب المدينة بينما هي (٣١) في المدينة الحديثة بسبب ارتفاع المستوى المعيشي .

اما القاهرة ، فلقد كان عدد سكانها في عام ١٧٩٣ (٢٦) الف نسمة فقط ثم ارتفع هذا العدد الى (٣٧٤) الفا في عهد اسماعيل ثم قفز عدد سكانها الى (٥٧٦٩٠٠) نسمة في عام ١٩٧٠ . وتزداد الكثافة السكنية في المدينة القديمة (شبرا وباب الشعرية) .

ولقد كان سبب الزيادة في المدينة القديمة ايام الاحتلال يرجع الى تجمع السكان الاصليين في الاحياء القديمة واتصال المجاهدين من المدن الاخرى ومن الاريات والقرى المجاورة الى هذه المدينة لتحضير الثورة وعمليات التحرير ، وليس مجهولاً مثال سكان احياء الميدان والشاغوره ومأذنة الشحم في مدينة دمشق القديمة واعتصامهم ايام الثورة السورية عام ١٩٢٥ في احياءهم المئوية . بل ان آثار الحريق الذي قامت به سلطات الاتداب في حي سيدى عمود الشهير والذي اتى على العي برمته ، مازال قائماً في تسمية المنطقة بالحريق لقد اتى هذا الحريق على روائع مدينة دمشق السكانية ملتها بيوت الثوار من اهل دمشق . ومثال اخر من امثلة جهاد سكان المدينة القديمة

جهاد حي القصبة في الجزائر المدينة ابان حرب التحرير الجزائرية في الخمسينات فلقد اعتصم سكان المدينة الاصليون في القصبة التي اصبحت حصن المجاهدين والثوار الذين تجمعوا من الجزائر العاصمة ومن احوازها بل ومن المدن البعيدة والصحراء .

وبعد الاستقلال نشأت الزيادة السكانية في المدينة القديمة عن تحسين الظروف المعيشية والاجتماعية انعكاسا لتحسين الحياة الاقتصادية في العالم كله وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن مما يؤسف له ان المدينة القديمة قد تضررت من هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي العالمي والوطني اكثر بكثير مما استفادت .

ذلك انها وقد قصرت عن تلبية ظروف الرفاه المفاجيء وزيادة السكان المتفرجة والطارئة ، تخلى عنها سكانها وهجروها الى مناطق اخرى جديرة ان تصبح مقرا لمدينة جديدة متوجلة سدت حاجاتهم الطارئة للرفاه الشكلي الذي فرضته مقتضيات الحياة العصرية .

وهكذا نزح السكان الاصليون اصحاب البيوت الجميلة الفخمة والذين يشكلون رؤوس العائلات العربية ، نزحوا عن المدينة القديمة ، ومعهم كل امكانيات حماية بيوتهم وصيانتها وكل امكانيات تطويرها وتعزيزها . وحل محلهم في بيوتهم واحيائهم ، سكان جدد فقراء جاءوا من الاقضية والقرى كما توسع فيها اصحاب محدثي الشراء الذين استرخصوا البيوت الكبيرة القديمة فجعلوها مخازن ومستودعات ، بل واجروها مشاغل لاعمالهم وهكذا تعرضت المدينة التقليدية فجأة وخلال الخمسينات على الاخص الى عسف شديد من هؤلاء يضاف الى ذلك اهمال قاس من السلطات الحكومية والبلدية التي صرفت اهتمامها نحو المدينة الحديثة وحدتها وتركت المدينة القديمة نهبا لاصحاب المصالح والقراء الذين اوشكوا ان يقضوا عليها مستعينين بربخاوة السلطة ذاتها .

وفي دراسة وضعها منظمة اليونسكو تبين ان التقدم الصناعي الحديث كان سببا في تحطيم التقاليد الموروثة واقتلاع الجذور القومية للإنسان ، كما هي سبب في زعزعة المعتقدات وخلل التوازن الاجتماعي اذ انها تؤدي الى انتقال اعداد لا حصر لها من السكان الى مدن جديدة اصبحت تمثيلاً بصورة اعتباطية ، مما ادى الى نشوء مدن مستحدثة هائلة متغيرة مع مصالح السكان الحياتية ضمن اطار حاجاتهم وقدراتهم .

والحق ان ظاهرة التوسيع في تشكيل المدن الحديثة اصبحت خطراً جداً وذلك انها لم تقم بمفهوم المدينة اهمية بل كان يتوجه لحل مشكلة السكن التي تفجرت بصورة عنيفة ولم يعد بالامكان التفكير بالمدينة التقليدية باعتبارها اساساً لتأصيل العمارة الحديثة نظراً للازدياد السكاني المرتفع في المدينة التي تمت بسبب الهجرة من القرى بصورة خاصة . ولابد للتخفيف من ازمة الهجرة من اعادة النظر في شئون القرية واقامة مجموعات من القرى المصنعة ، كما تم في الجمهورية الجزائرية .

٢ - تطور الاله والتقنيات والمواد

بعد استعمال الاسمنت في البناء ودخول الحديد والموزاييك والخزف والمواد البتروكيميائية في تكميل الابنية تطورت العمارة التقليدية تطوراً اساسياً ، فلقد انتهت عهد العمود والكتلة الحاملة وانتهت عهد القباب والطوابق والاقواس والعقود المحدودية واصبح بالامكان اقامة سقوف ذات قطر واسع دون ان يستند كما اصبح بالامكان رفع عشرات الطوابق فوق بعضها وكان مثال ناطحات السحاب التي انشأها سوليفان في شيكاغو عام ١٨٩٠ وما قلалаها من ابنية شاهقة اكبر دليل على دور الاسمنت في تغيير كل مبادئ السكن والبناء التقليدي . وتطورت الاله المتحركة ذاتها بقوة الكهرباء والوقود مما ساعد على سرعة انجاز عمليات البناء وحسن

استخدام العمارت عن طريق المكيفات والمشعات والروافع . وكانت السيارة ذاتها من اهم الاليات التي ساعدت على عملية البناء الضخمة والسريعة .

ان هذه المستحدثات الانشائية قد شجعت الناس على اقامة منشآت جديدة واهمال القديمة ، منشآت تخضع للمستحدثات التقنية والمواد الجديدة واصبحت هذه المستحدثات هي الاساس الانشائي والمعماري الفني فيما كان الاساس في بناء المدينة ومنتها السكنية هو الانسان بشروطه التقليدية وضمن حدود راحته ومتطلباته الفردية . بل ان السيارة وحدتها حل محل الانسان في اعتبارها الاساسي لانشاء المدن والبيوت .

ولقد شخص المهندس يشتـر^(٢٠) واقع مدينة فاس وباز اثر التحول الذي تم في المدينة العربية نتيجة التقدم الصناعي والذي ادى الى التضييق بالقياس الانساني في سبيل مقياس السيارة الذي قطع صلة الانسان الطبيعية بالشارع والحي .

وهكذا اصبحت السيارة المزاحم العين لانسان ولظروف المدينة القديمة التي باتت مضطورة لاستقباله ففتحت الشوارع والساحات في قلب المدينة التقليدية المتماسكة مما ادى الى ازالة عدد كبير من الابنية الجميلة ، كما ادى ذلك الى تجزئة وحدة المدينة وتطعيمها ببيوت مستحدثة كان لا بد منها ، على الاقل لاشغال طرف الشوارع المستحدثة والمفتوحة كالجروح في قلب المدينة .

٣ - سيطرة التخطيط الاميريالي :

لقد قامت الاميرالية على توسيع مناطق الاستهلاك في العالم لتفطية الاتاج الضخم الذي وصلت اليه خلال هذا القرن . ولقد كانت المخططات الاستعمارية تستند على توسيع الحاجة للاتاج المستحدثة . ولهذا فان

J. P. Ichter : Féz Puissance et limites d'une Iradditions urbaine Fés 1973 L'Unesco SHC/WS/313. (٢٠)

المدينة العربية القديمة بظروفها الانشائية التي تعتمد على المواد الاولية المحلية وعلى التخطيط التجمعي الاليف التماسك وبшوارعها الضيقة التي لا تستوعب العوافلات المستوردة . هذه المدينة اصبحت عنصرا مضادا للمخطط الاميريالي الذي يسعى وراء جعل الحياة مرتبطة بالتحولات وليس بالثوابت مرتبطة بتغير الوسائل والازداء التي تبتكرها المؤسسات الاتاجية الضخمة والتي يهمها احداث تغيير مستمر في الحاجيات لزيادة حجم هذه الحاجيات .

ولقد كانت هذه السيارة ذاتها والتي اصبحت رمزا للاميرالية عاملا من عوامل فرض المدن الحديثة على العالم الثالث وعلى المدينة العربية وكانت سببا وبالتالي الى هجرات المدينة التقليدية والتي فرض جميع مبادئها العمانيه والمعمارية والانشائية عند اقامة المدينة الحديثة او التوسيع حول المدينة القديمة .

فالشارع يجب أن يكون مستقيما لتسهيل سرعة السيارة، وعرضا لتنظيم مرور السيارات المقابلة ، والساحات يجب ان تكرس لوقف السيارات ، والبناء يخضع في تكوينه لاستيعاب السيارة ومرأبها .

واستطاعت السيارة تقليص المسافات ، مما استهوى صاحب المنشأة من اقامة سكنه او بنائه في اماكن بعيدة عن مركز المدينة ، وهكذا امتدت المدينة افقيا وتبعثر ذلك التجمع السكني الذي اتصف به المدينة التقليدية دائما .

ولقد سيطرت شروط السيارة على العرمان الحديث نفسه ففقدته بعض مميزاته التي اراد منها الملائمة مع البيئة العربية ومع الضرورات السكنية ، فلقد ازداد عدد السيارات حتى اصبح لكل ثلاثة اشخاص من سكان بيروت سيارة واحدة ، فضاقت الشوارع وذابت الارصفة مع الاشجار المقللة مما زاد في ابعاد التنظيم العماني عن ملائمة البيئة .

ولم تقتصر السيارة في كونها عاماً لازمة عرائية تجت عن التحكم في تسيير عاليات النقل والانتقال ، بل ان الازمة الاكثر خطراً هي تلوث الاجواء الذي تسبّب هذه السيارات بما تفرزه من دخان مسموم ، وسيأتي اليوم الذي تصبح فيه السيارات مصدراً اساسياً للامراض والاوبيّة بل سبباً للموت الجماعي .

لقد خضعت المدينة الجديدة لمقياس السيارة . وكان هذا من اخطر مباديء المدينة الجديدة وليس في بلادنا العربية وحسب بل وفي العالم كله . ذلك ان المقياس يجب ان يكون من الثوابت وليس من المتحولات والسيارة متحول لا يصلح ابداً ان يكون المقياس . والدليل على ذلك ما تم من ازمة الوقود العالمية بعد حرب ١٩٧٣ العربية . لقد ادت هذه الازمة الى زعزعت الثقة بالحضارة الحديثة كلها فعندما ندر النفط توقفت السيارات فتعطلت الفعاليات الاقتصادية بل الفعاليات المعاشرة ذاتها ، اتبه الانسان انه كان اسير ظروف متحولة كان قد اقام عليها صرح تنظيمه العراني والمعاشي والحضاري ايضاً . ولستنا ندري كيف سيؤول الامر عندما ينضب معين الطاقة ويعجز العقل الانساني عن ايجاد طاقة غير الوقود النفطي ، لعله عندها سيبحث عن مقياس جديد ولكنه سيبقى مقياساً متحولاً ويبقى الانسان غريباً عن نظام المدينة الذي يساقه اليه سوقاً بتأثير المستحدثات المخبرية والتقنية .

ولقد ساعد في تبذ واهمال المدينة القديمة واهمال تقاليد عمارتها واسلوب تنظيمها العراني ، موجات المهندسين والمهندسين الذين نقلوا معارفهم وثقافاتهم المعمارية عن المفاهيم الغربية التي قدمتها الجامعات الاوربية والامريكية لثقفينا المحروم من اي رصيد ثقافي قومي ، لفقدان الدراسات والراجع المعنية . وكان هذا التقدم الهجين عاماً من عوامل التهجين

العراني والمعماري ونستطيع اعتبار معمدي العمارة ، ومنظمي المدن العربية خلال الأربعينات والخمسينات هم المسؤولين عن تغيير معالم المدينة العربية ومسح شخصيتها بحجج تطويرها مع متطلبات العصر . ذلك لأنهم كانوا من المهندسين المدنيين غير المختصين بالعمارة وعمران المدن فما كان بإمكانهم أن يفعلوا أكثر من تقليد المنشآت الأوروبية ونسخها كاملاً .

٤ - عدم توفر الدراسات القومية لتطوير المدينة العربية وحفظها

لقد فاجأ التقدم الاقتصادي العالمي والازدهار التجاري المدينة العربية ومكانتها ، ولم يكن الظرف متسعًا خلال الأربعينات لمحاباة الحاجات السكنية الجديدة المتزايدة والمتطرفة . فليس من كوادر تستطيع تقديم الدراسات المورفولوجية الالازمة او تقديم مخططات التنمية القومية ، وليس من اختصاصيين في العمارة العربي والعمارة العربية بل ان التقدم الثقافي الذي تم في البلاد العربية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية إنما اعتمد على الثقافة الأجنبية ولم يتح للمعماري او المؤرخ والفنان ان يتسع في دراسة أهمية العمارة العربية وان يتقصى اسرارها وخصائصها وان يستخلص مبادئها الأساسية لاقامة عمارة حديثة اصلية . ولم يظهر اختصاصيون في ميكانيك التربية ، قادرون على دراسة طبيعة الطين الذي صنعت منه اوابدنا القديمة في بلاد الرافدين وسوريا وفي شمال افريقيا وجنوب مصر الذي مازال حتى الان مستعملًا كمادة أساسية للبناء في القرى العربية والبيوت – التقليدية لا بد من دراسة عملية لهذا الطين الرخيص الثمن ، العجمي الفائد والذى يمتاز في مقدرته على تحمل تقلبات الطقس ووقايتها لسكان المنشآت من الحر الشديد والبرد القارص مما يجعله أكثر انسجاماً مع طبيعة مناخنا من اية مادة أخرى كالاسمنت ، فلقد تبين من خلال دراسات جديدة ان الطين المشوي على شكل اجر قادر بالإضافة الى قابليته للوقاية من الطقس المتقلب ، على مقاومته المذهلة بقوتي الشد والضغط اذا ما اضيفت له بعض الرمال والمواد المقوية عوضاً عن التبن والشعر مما ينبعه من التشقق والانكسار .

ولقد اشرف المهندس حسن فتحي في مصر على دراسات في تطوير الاجر ودراسات اخرى في اعادة العمارة الى مبادهات المعمار المعلم الذي تبين انه قادر على اقامة المنشآت باقل التكاليف وباصدق الاساليب واكثرها اصالة

لقد كان منطلق المهندس حسن فتحي ان الانسان او الفلاح يجب ان يكون طابعاً لامطبوعاً وان العمارة هي خلل الانسان اذا تغير فلابد لها ان تتغير^(٢١) ولقد قام حسن فتحي بتجاربه العملية انطلاقاً من عمارة الريف مستعيناً بخبرات المعلم البناه الريفي في بناء عمارة تقليدية بمواد انشائية تقليدية وباساليب سهلة غير معقدة وصحيحة وسليمة جداً . وكانت قرية (القرنة) مركز اختباراته التي سجلها في فيلم طويل وفي كتابه البناه مع الشعب وليس دراسة المواد فقط هي الاهم بل دراسة فن العمارة ووظائفها الأساسية . ان كليات الهندسة في العالم العربي ما زالت مفتقرة الى هذه الدراسات ، ومن المؤسف انها وما زالت تدرس الطرز الكلاسيكية (الاغريقية الرومانية) وكأنها الاساس الفني والعلمي للعمارة . وليس من كلية عربية حتى الان تعتمد في تدريسها المعماري – المبادئ والمنطلقات العربية ، من الناحية الجمالية والفنية والبيئة والتاريخية .

ان مثل هذه الدراسات العلمية ما زالت ذات اهمية بالغة واساسية لا نقاش المدينة العربية من التهجين ، ولا نقاش المدينة القديمة من الاهمال والزوال .

٦ - ضعف وسائل الحفاظ على المدينة القديمة

ان وسائل الحفاظ على المدن التقليدية التي لجأت اليها الحكومات العربية مؤخراً . وهي وان ارتكزت على المنطق والعلم والشعور بالمسؤولية الا ان الاتجاح التي توصلت اليها ما زالت غير مقنعة .

(٢١) حسن فتحي

H. Fathi : Construire avec le peuple Ed Jerome Martineau

واما مدينة بصرى القديمة والتي ازدهرت في العصر الروماني مثل تدمر، فما زالت مشغولة بالمدينة الحديثة التي اقيمت شوارعها فوق الشوارع القديمة وشيدت مساكنها من احجار المباني الاثرية ومن الاسمنت ، وكان علينا ان نزيل هذه المباني كلها للكشف عن المدينة الاثرية ومعالجتها الواضحة والمحفظة تحت الارض، وذلك بازالة المباني المحدثة وتخصيص منطقة سكنية جديدة مستوفية للشروط الصحية والاجتماعية ولكنها لم تراع ابدا الشروط التقليدية والتاريخية .

اما افاميا وهي مدينة هلنستية ثم رومانية فان الامر فيها اكثر تعقيدا ذلك انها ما زالت معزلة عن المنطقة السكنية الجديدة وان كل السكان يصيرون دائما لاشغال المدينة التاريخية لحسن موقعها .

ومن الواضح ان هذه التدابير كانت لاغراض اثرية محضة ولم يكن الغرض منها خدمة المدينة التقليدية التي يعيش فيها الناس حتى اليوم حسب متطلباتهم ، مثل مدينة دمشق ، التي سجلت اثريا بكاملها فان التدابير المتخذة من قبل السلطات الاثرية والبلدية تمنع اجراء اي تعديل في المدينة الواقعة خارج سور الا بموافقة مسبقة ، هذا الى جانب تسجيل اكبر الابنية والمنشآت القائمة فيها مثل المساجد والمدارس والتربي والأسواق (كسوق الخياطين) ومثل المساكن القديمة (بيت السباعي وبيت جيري وبيت حورانية) واحياء اخرى خارج الاسوار

لقد لجأت السلطات الاثرية او البلدية الى اعتبار المدينة القديمة منطقة اثرية او على لااقل اعتبار بعض المنشآت الهامة اثرية وتسجيلها في سجل الاوابد الاثرية . ولعل القطر العربي السوري كان من اكبر البلدان العربية تحمسا الى هذه الطريقة لحفظ المدينة القديمة ومنتجاتها التقليدية والتاريخية ويعتبر القانون الاثار السوري لعام ١٩٦٢ من اكبر القوانين العربية حرضا على المدينة التقليدية والمباني القديمة . وتقوم السلطة الاثرية بالمساهمة في الانفاق على

اعمال الترميم الاثرية وتحمل تفقاتها • وتنفق السلطات الاثرية من ميزانيتها على ترميم واصلاح المناطق الاثرية والمباني التاريخية المسجلة على ان تحمل وزارة الاوقاف والهيئات الدينية نصف تكاليف ترميم اصلاح الابنية الاثرية المسجلة العائدة لها • كما يجوز للسلطات الاثرية ان تسهم بجزء من تفقات اصلاح المباني التاريخية التي يملكونها الافراد وعلى هؤلاء تحمل باقي النفقات • ولقد قامت السلطات الاثرية منذ عام ١٩٧٢ باجراء مسح شامل للآثار غير المنقولة ، (التلل الاثرية والموقع التاريخية ، والمنشآت العامة والخاصة ذات الصفة الاثرية التي مضى على انشائها اكثر من مئتي سنة ، بل قامت تسجيل المنشآت الحديثة ذات الصفات الجمالية الخاصة استنادا الى المادة الاولى من قانون الآثار السوري التي تنص (يجوز للسلطات الاثرية ان تعتبر من الآثار ايضا ، الممتلكات الثابتة او المنقوله التي ترجع الى عهد احدث ، اذا رأت ان لها خصائص تاريخية او فنية او قومية) •

وهكذا تم تسجيل عدد من الابنية المنشأة في حلب وبعضها لم يمض على بنائه اكثر من خمسين عاما ، ولكن الصفات الجمالية العامة هي التي دفعت الى تسجيل هذه المباني للحفاظ عليها ومنع هدمها •

ولقد ادرجت حديثا دمشق وحلب ضمن الاسوار في سجلات الآثار غير المنقولة ومدينة تدمر الاثرية ومدينة بصرى ومدينة اقاميا الاثرية ، اما تدمر فقد تم تسجيلها في عام ١٩٣٠ وكانت اطلالها مغمورة بالبيوت الطارئة السيدة البناء يسكنها الناس البسطاء الذين اساؤا كثيرا لبقايا هذه المدينة الاثرية • ولقد تم اجلاؤهم عن بيوتهم مقابل اعطائهم ضعف المساحة التي كانوا يشغلونها في تدمر •

ولأن التراث العربي واحد في الاقطار العربية ، ولأن مشكلة المدينة القديمة واحدة ايضا ، كان لابد من التعاون العربي لدعم مشاريع تعريب المدينة ومشاريع الحفاظ على تراثها وتقاليدها • ومن حسن الحظ ان المنظمة

العربية للتربيـة والثقافة والعلوم المـتبـقة عن جـامـعـة الدول العـربـية قد وـضـعـتـ مـشـروـعا لـانـشـاءـ صـنـدـوقـ لـاـنـقـاذـ الـاـثارـ الـعـربـيةـ مـاـ سـيـكـونـ لـهـ اـثـرـ بـالـغـ فيـ دـعـمـ المـشـارـيعـ الـمـتـعـلـقـةـ بـالـحـفـاظـ عـلـىـ الطـابـعـ الـعـربـيـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ الـقـدـيمـةـ وـالـحـدـيـثـةـ .

يتـضـعـ لـنـاـ إـنـ تـدـايـرـ الـمـتـبـعةـ فـيـ بـعـضـ الـبـلـادـ الـعـربـيـةـ لـحـمـاـيـةـ الـمـدـيـنـةـ التـقـليـدـيـةـ لـمـ تـكـنـ كـافـيـةـ وـلـمـ تـحـقـقـ الـغـرـضـ مـنـهـاـ وـالـسـبـبـ فـيـ ذـلـكـ يـرـجـعـ إـلـىـ اـعـتـارـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ التـقـليـدـيـةـ مـجـرـدـ اـثـرـ مـنـ الـمـاضـيـ ،ـ وـلـيـسـ تـجـسـيدـاـ مـادـياـ لـاـسـلـوبـ الـحـيـاةـ الـذـيـ درـجـ عـلـىـ النـاسـ ضـمـنـ حدـودـ عـادـاتـهـمـ وـتـقـالـيدـهـمـ وـأـذـواـقـهـمـ لـذـلـكـ فـانـ تـدـايـرـ الـوـقـاـيـةـ الـمـتـبـعةـ ،ـ عـلـىـ ضـرـورـتـهاـ ،ـ كـانـتـ تـسـعـيـ فـيـ اـحـسـنـ الـحـالـاتـ إـلـىـ تـبـيـتـ الـحـالـةـ الـراـاهـنـةـ وـاـصـلـاحـ بـعـضـ الـاـضـرـارـ اـصـلـاحـ جـزـئـيـاـ وـدـرـءـ الـتـخـرـيـبـ الـمـتـعـدـ اوـ التـشـويـهـ الـجـاهـلـ .

وـالـحقـ كـانـ هـذـاـ اـقـصـىـ مـاـ يـمـكـنـ إـنـ نـطـالـبـ بـهـ السـلـطـاتـ الـاـثـرـيـةـ .ـ وـلـكـنـ السـلـطـاتـ الـبـلـدـيـةـ مـطـالـبـةـ بـرـسـمـ اـهـدـافـ أـخـرـىـ هيـ تـحـقـيقـ اـسـتـمـرـارـيـةـ الـحـيـاةـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ التـقـليـدـيـةـ وـتـحـقـيقـ الـتـطـوـرـ الـلـازـمـ فـيـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ مـاـ يـجـعـلـهـ مـتـسـجـمـةـ مـعـ مـقـتضـيـاتـ الـعـصـرـ وـمـسـتـحـدـثـاتـهـ .

وـلـابـدـ لـتـحـقـيقـ ذـلـكـ مـنـ أـجـراءـ دـرـاسـةـ تـخـطـيطـيـةـ تـعـتمـدـ عـلـىـ جـهـودـ الـأـثـرـيـينـ وـالـمـؤـرـخـيـنـ وـالـاقـتصـادـيـنـ وـالـمـعـمـارـيـنـ وـالـعـمـرـانـيـنـ (ـ مـخـطـطـيـ الـمـدـنـ)ـ دـرـاسـةـ طـرـيـقـةـ تـحـقـيقـ التـواـزنـ بـيـنـ اـصـالـةـ الـمـاضـيـ وـارـادـةـ التـقـدـمـ وـالـمـعـاصـرـةـ .

عـلـىـ اـنـ لـابـدـ مـنـ اـتـخـاذـ اـجـراءـاتـ مـباـشـرـةـ وـعـاجـلـةـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ الـقـدـيمـةـ يـمـكـنـ تـلـخـيـصـهـاـ بـالـنـقـاطـ التـالـيـةـ :

- ١ - تحـديـدـ الـمـدـيـنـةـ الـقـدـيمـةـ وـتـعـيـنـ الـأـوـابـدـ الـقـدـيمـةـ لـتـرـمـيمـهـاـ وـصـيـاتـهـاـ .
- ٢ - عـدـمـ السـماـحـ بـاجـراءـ ايـ تـعـديـلـ مـعـمـاريـ غـيرـ مـدـرـوسـ وـعـدـمـ اـخـضـاعـ الـمـدـيـنـةـ لـاـيـ تـنظـيمـ عـمـرـانـيـ يـؤـثـرـ عـلـىـ وـضـعـهـاـ وـوـحدـتـهـاـ .

- ٣ - تنظيف المدينة القديمة من الابنية المشوهة على ان لا يؤدي ذلك الى تفكك المدينة بل الى ابراز الابنية الهامة .
- ٤ - منع وسائل النقل الضخمة او الاقلal منها ضمن نطاق المدينة .
- ٥ - استملاك المساكن الاثرية الخاصة وجعلها اماكن سياحية .
- ٦ - وضع مخطط دقيق للاوابد الاثرية وتسجيلها مهما كانت بسيطة .
- ٧ - تخفيف الاسكان في المدينة القديمة ومنع الصناعات الالية والابقاء على اصناعات القديمة والشكلية .
- ٨ - الحفاظ على الاسواق والمجمعات الاشائية بما فيها من مدارس وحمامات وجامع ضمن نطاق وحدتها العمرانية دون السعي الى خلق فواصل وفراغات تفكك الوحدة العضوية التي تجمع هذه المنشآت .
- ٩ - لابد من الحفاظ على الحياة في المدينة القديمة وتأمين الانسجام الكامل بينها وبين متطلبات العصر ولكن يبقى من المفضل المحافظة ما يمكن على تقاليد الحياة وعلى البيئة مع تطويرها دون ان يؤثر ذلك على ماهيتها .
- ١٠ - يجب ان لا تصبح المدينة موئلاً للفقراء والمهاجرين من القرى . بل على العكس ، يسكن ان تكون مقراً للمحافظين الذين يفهمون جيداً أهمية المدينة القديمة وتقاليدها .
- ١١ - ان الهدف الثابت المحافظ على المدينة القديمة هو حفظ التراث والتاريخ وابراز الماضي العريق باطرف مظاهره امام الزائر والسائح ومحقق ولذلك تبقى المدينة القديمة الواجهة الحقيقة الاكثر اهمية من الناحية السياحية . وبهذا المعنى لابد من العناية بالمرافق السياحية الضرورية ضمن المدينة القديمة .

عدم وضوح مفهوم المعاصرة :

لقد كان على البلاد العربية الناهضة والتي استطاعت ان تتحرر عقب الحرب العالمية الثانية من الاستعمار والاتداب ، ان تباشر مسؤوليات تطورها استناداً لمعطيات القرن العشرين والعصر الحديث خاصة . ولكن مما يؤسف له ان المعاصرة لم تكن جوهريّة بل كانت شكليّة ، تقوم على التقليد لظاهر المدينة الحديثة . وهذا امر يبدو لعالم اجتماعي مثل (تارد) طبيعياً لأنّ الانسان يتبع في تطوره مقلداً ولا ينفذ الى جوهر تطوره الا متأخراً .

ومن أهمّ مظاهر هذا التقليد الشكليّ ، هو العمارة الحديثة التي انتشرت بسرعة مذهلة لتغطية الحاجات السكنية التي تزايدت عقب الحرب الثانية . وقد اقبل الناس الذين اثروا على هذه البيوت التي ساعدتهم على الاقل على تغيير وضعهم الاجتماعي بما يتفق مع اشكال الحياة الاجتماعية الغربية التي رأوها عند المحتل او المستعمر ايام وجوده في مدينتهم في احياء اوربية منسقة ذات شوارع منتظمة وذات ارصفة تظللها الاشجار وتمتد المسالك حوله الشوارع يفصلها عنها حدائق خارجية بدعة .

وجاءت السيارة لكي تؤكد تنظيم المدينة الجديدة او الاحياء الجديدة وفق النظم الغربي المخالف تماماً للتقليد المحلي ، واصبح البولفار هو اساس هذا التنظيم .

ولقد وصف محمود السعدي هذا الواقع بفطنة فيما يتعلق بمدينة تونس التي تشبه المدن العربية الاخرى .

ولقد ادى هذا التعديل الجذري في نظام المدينة الى تعديل جذري في نظام العلاقات الاجتماعية . ففي الحق التقليدي يمارس الناس نوعاً معيناً من السلوك والاداب وعمليات البيع والشراء واللهو ، ونوعاً خاصاً من الازياح

هذه المظاهر زالت تماماً اذ لم يعد في الشارع اركان هادئة تستقبل مثل هذه
الأنشطة .

ان تنظيم المدينة قد حرم السكان من الظروف الملائمة للمناخ . فلقد
كانت الشوارع الضيقة الملتوية والمظللة بالبروزات والمشيريات
تحمي المشاة من العواصف والغبار والامطار كما تحميها من الشمس المحرقة
في الصيف . اما الشوارع الحديثة فلقد انكشفت على العوارض الجوية وتركـت
المشاة عرضة لها حتى الاشجار المظللة للارصـفة اخذـت تتناقص مع ضيق
الارصـفة المترـاجـعة لصالـح السـيـارات .

لقد قـامت المـديـنة التقـليـدية عـلـى مـبدأ تـوزـيع الفـرـاغـات لـصالـح الـإـنـسـان
وـحـسـب حـاجـته وـرـغـبـته . اـمـا المـديـنة الحديثـة فـانـهـا درـست الفـرـاغـات لـصالـح
الـسيـارـة وـحـدـها وـاغـفـلت الـإـنـسـان تمامـا وـجـعـلـته مـرـتـبـطا بـالـسيـارـة .

اما في مجال السـكـن ذاتـه فـلـقـد أـدـى تـغـيـير شـكـل عـمـارـتـه وـتـغـيـير مـادـة العـمـارـة
ذـاتـها إـلـى تـنـائـج مـؤـسـفة جـعـلـت العـمـارـة الحديثـة ذاتـها عـلـى جـمـالـها الشـكـلـي
وـمـعـاـصـرـتها غـرـيـبة عـنـ الذـوق بلـ ضـارـة ايـضا .

فـلـقـد لـاحـظـ المـهـنـدـس حـسـن فـتحـي بعدـ تـجـارـبـه التـي قـامـ بهاـ المـلاحظـات
التـالـية :

١ - ان اـهـمـال الصـحنـ الدـاخـليـ الذي كانـ اـسـاسـياـ فيـ العـمـارـة التقـليـدية قد
حرـمـ السـكـنـ منـ (مـعـدـلـ الجوـ) فـهـوـ خـزانـ تـرـطـيبـ وـخـزانـ تـدـفـقـةـ بنـفـسـ
الـوقـتـ ، لـذـلـكـ اـنـهـ استـنـادـاـ لـعـلـمـ الـاـيـرـوـدـيـنـامـيـكاـ ايـ حـرـكـيـةـ الهـوـاءـ فـانـ الصـحنـ
يـحـفـظـ بـحـرـارـةـ هـوـائـهـ دونـ اـنـ يـتـأـثـرـ بـالـهـوـاءـ الـخـارـجيـ الـذـيـ يـمـرـ فـوـقـ الصـحنـ
مـحـدـثـ دـوـامـاتـ وـدونـ اـنـ يـهـبـطـ اـلـىـ الصـحنـ وـيـمـكـنـ التـأـكـدـ منـ ذـلـكـ بـالـتجـوـءـ
إـلـىـ تـجـربـةـ الدـخـانـ اوـ تـجـربـةـ الرـائـحةـ .

٢ - عدا عن دور حفظ الحرارة الذي يقوم به الصحن فان دورا اهم اصبح يقوم به الصحن هو حفظ تقواة الجو بعد ان اصبح هواء المدينة الحديثة ملوثا بشكل خطير . وتحقق هذه الحماية وفق نفس مبدأ حركية الهواء التي ذكرناها .

لقد اراد المعمار الحديث ان يخفف من وطأة الطقس المتبدل وان يعوض عن الفسحة السماوية الداخلية بالنوافذ الكبيرة المطلة على الشارع دون ان يفطن الى الخطأ الجسيم الذي زاد المسألة تعقيدا وادى الى عكس الهدف الذي يسعى اليه ، لأن النافذة المفتوحة الكبيرة كانت تسبب زيادة في برودة الغرف شتاء وزيادة في حرارتها صيفا . عدا انها اصبحت تستقبل ببساطة الهواء الملوث .

٣ - لقد اضافت المواد الانشائية التي استعملت في العمارة الحديثة مشكلة جديدة . فالاسمنت والجديد حل محل الطين او الاجر والخشب . هذه المواد التي انسجت دائيا مع الظروف المناخية وقدمت للانسان الظروف المواتية .

وعندما استعيض عنها بالاسمنت . فان العمارة خالفت وخانت مصلحة الانسان لخدم الشكل والتقنية الحديثة لترتبط بالمواضية وليس بالمعاصرة . لقد اجريت تجارب لدراسة اهمية الاجر ومشاكل الاسمنت في منطقة صحراوية فتبين ان المدى الحراري . أي الفرق بين الحرارة والبرودة في يوم كامل في مسكن مبني باللبن ، لا تتجاوز درجتين حراريتين فقط ، اما المدى الحراري في المسكن المبني من الاسمنت فهو ٢٢ درجة حرارية .

ومن هنا يتبين ان استعمال الاسمنت كبديل للطين لم يكن لمصلحة الانسان العربي لا من الناحية الصحية ولا الاقتصادية ايضا ذلك لأن الطين مبذول في اي مكان ومجاني كالماء بينما يخضع الاسمنت الى اسعار دولية والتي تكاليف باهظة لا تتناسب .

ان الاتجاه نحو المعاصرة امر ضروري ولاشك ، ولكن هذا لا يتم عن طريق الاستيراد الاعمى للطرق والوسائل او عن طريق التقليد ، بل يتم عن طريق فهم جوهر العصر الحديث . وهو العلم . فنحن لم نعتمد على العلم لدراسة الظواهر العمرانية والمعمارية والبيئية ولم ندرس المواد وميكانيكيتها وتطورها . حتى الطين هذه المادة التي استعملت منذ الاف السنين في ارضنا فكانت الزبورات والمعابد في بلاد الرافدين وكانت ناطحات السحاب في اليمن . ثم كانت المنشآت الفاطمية والعباسية من الطين المشوي او المجفف ، ولكن لم تكلف انفسنا عبء دراسة امكانياتها المتقدمة بعد وجود الاسمنت والمواد البتروكيميائية مما يجعلنا نستعيض عن التبن او الشعر الذي استمر استعماله الاف السنين .

المعاصرة هي في الاعتماد على البحث العلمي والتخطيط وليس في التقليد واتباع الموضوعات فالحضارة ليست زيا بل هي مقياس رقي الانسان في امة من الامم .

والمدينة القديمة ليست مظهرا من مظاهر التخلف يدفعنا الى اهماله ومناهضته بل هي الصيغة المركبة من حصيلة التفاعل بين الانسان والمحيط . الانسان بقيمه وتطلعاته والمحيط بمناخه وروحه وتقاليده . والمعاصرة لا تعني الانفصال عن التراث والماضي ، بل تعني تطوير هذا التراث مع الواقع . ومن هذه الزاوية نستطيع ان ننظر الى طريقة تطوير المدينة القديمة وطريقة تأصيل المدينة الحديثة في البلاد العربية .

ولكن لابد من ان تكون هذه الطريقة علمية ، ولا بد ان تتجنب في الحالتين التقليد والمحاكاة وان تحاذر الخروج عن المقياس الانساني والانزلاق الى مقاييس اخرى يصبح الانسان لها عبدا .

ان مدينة المستقبل كما يقول حسن فتحي يجب ان تكون على مستوى الانسان الطفل ، لانه لا يخطيء ولا يتسامل في حاجاته ، وهو بذلك يحدد

الشروط السليمة التي يشترطها الانسان في المدينة . ويحدد بالتالي الشروط القومية للعمارة .

ان المدينة المعاصرة يجب ان تكون مدينة عربية مربطة بالانسان والمناخ والتاريخ ونجمل هذا القول بال نقاط التالية :

- ١ - يجب ان تتميز المدينة الجديدة عن القديمة بطابعها المرتبط بالعصر ولكن يجب ان تستمد من الطرز التقليدية لتحافظ على اصالتها .
- ٢ - يقضى عدم نقل الاثار من مكانها وعدم تزيين الساحات الجديدة بأوابد منقوله من اماكنها الاثرية فان هذا العمل يفقد الاثر معناه وروحه ويفصله عن وجوده وارضه ومحيطة الذي نشأ فيه .
- ٣ - ان وجود اثار اوابد قديمة في منطقة المدينة الجديدة يلزم المهندس العراني باحترام مواقعها وجعل مخططه منسجما معها وليس ما يبرر نقلها من اماكنها لما في ذلك من مخالفة تاريخية عدا انه يتطلب تفاصيل باهظة .

على ان هذه الاوابد كالمدارس والترب والجواجم والرباطات يجب ان تبقى بعيدة عن تأثير العمارة الحديثة فلا تقام قربها البناءات الشاهقة او الملونة او المغرة بالحداثة . ومن المستحسن دائما ان يترك حولها اطار من الحدائق والاماكن الرحيبة العامة . ويبقى من المفضل ان تبقى هذه المنشآت مخصصة للزيارة فقط دون ان يسمح باشغالها او استعمالها الا في الاغراض التي نشئت اصلا من اجلها .

٤ - من المفضل ان تحافظ المدينة الجديدة في احيائها المحدثة على اسماء المناطق والارياض والبساتين القديمة لكي تبقى هذه التسميات خلفية تاريخية للأوابد المتبقية ، وللمدينة الجديدة ذاتها . ومن الممكن الاشارة الى الاسم القديم الى جانب الاسم الجديد عند الفرورة .

ولابد ان ندرك ان اقامة مدينة عصرية الى جانب المدينة التقليدية يشجع على النزوح الى المدينة الحديثة جريا وراء حياة اكثرا انسجاما مع ضرورات العصر يلتجأ اليها السكان المدنيون وهربا من القديم المتخلّف كما يزعم البعض .

لذلك لابد من تحويل الاتباه الى الاهمية التاريخية والمادية للمدينة القديمة والمسكن القديم بجميع ما يحفل به من تحف وطرائف لم يعد بالامكان مجاراتها او تقليدها ، عدا انها تتسم بطبع التراث

لقد أصبحنا نرى كثيرا من الآثار والاثار المثقفين من يلتجأون الى اغواء مساكنهم بعناصر معمارية وزخرفية قديمة ويتباهون بقدمها وعراقتها (كمنزل هنري فرعون في بيروت) ومع ان هذا الحرص والاهتمام يبقى دليلا على اهمية هذه الاشياء المعمارية القديمة في الذوق الحديث ، فان صوابه يبقى في ابقاء هذه الاشياء ضمن بيئتها وفي مكانها ، فتحافظ بذلك على استمرارية الحياة فيها ، ودون أن تبتعدا من منبتها لنحفظها في مسكن اشبه بالمتحف .

أن رفض التقليد يبقى من لوازيم المحافظة على تجانس الحياة الحضرية في المدينتين القديمة والحديثة عدا انه من اهم لوازيم الحفاظ على الشخصية القوية المعاصرة وابعادها عن الهجانة والتسيع المتمثل في حركة التغرب ، ثم السبيل الى التخفيف من النزوح من المدينة القديمة وتركها لللامال والمهملين .

وأكثر ما يعتمد عليه تحطيط المدينة الحديثة ، هو الوعي باهمية الخصائص التاريخية للعمارة العربية ومن المؤسف أن هذه الناحية لم تصل بسهولة الى قناعة المسؤولين ، على الرغم من اهتمامات الهيئات الدولية وخاصة اليونسكو بمعالجة المشاكل التي تخص التراث الحضاري العربي والتنبيه الى اهمية الحفاظ على هذا التراث ، ولقد اشرنا في هذه الدراسة الى كثير من الوثائق التي توضح هذه الاهتمامات .

أن الاهتمام بتوسيع المدن العربية لموافقتها مع ضرورات العصر والتوسيع السكاني امر بديهي بعد أن نهضت الدول العربية نهضتها الواسعة خلال هذا القرن وبعد أن توسيع ثرواتها وشقت لنفسها طريقاً حضارياً جديداً .

ولكن الشعور بضخامة المسؤولية أمام ضآلة الامكانية أدى إلى الشعور بالدونية والتخلف ، هنا الشعور دفعنا إلى رفض كل قديم في حياتنا دون الاهتمام إلى مظاهر الحضارة الصهيونية في هذا القديم أن عودة الثقة بالنفس والماضي والتراث هي من أهم الأسلحة التي تساعدنا على مجابهة غزو الثقافات الغربية والمشبوهة وعلى تمكين الاتساع إلى تراثنا وشخصيتنا التي نحن بأشد الحاجة إليها لجعل نهضتنا أصلية ومتينة .

تغيير معالم المدينة وأسماء أحيائها

تبعدت ملامح المدن الشامية بعد النصف الثاني من هذا القرن ولم يعد سهلاً تذكر أسماء الأحياء القديمة التي استشرت قرونًا طويلاً ، ولاستعادة ذكرى المدينة القديمة لا بد من جولة واسعة في مناطقها حسب الترتيب التالي:
المنطقة الأولى : دمشق القديمة

كانت دمشق القديمة قبل الإسلام محاطة بسور منيع وبعد السور كانت الغوطة وقد بقيت أجزاء منها حتى اليوم .

والغوطة لنقطاً من الغيط وهو الوادي المتسع ، أو البتان المزدهر ، والغوطة بساتين تحيط دمشق من جميع جوانبها ، وتدخل في ذلك الصالحة قبل اجتياح العمران إليها .

وقبل أن ندخل المدينة لا بد أن نذكر شيئاً عن سور المدينة وباباها .
أشأ سور الرومان أولاً ، وكان مستطيلاً أبعاده ١٥٠٠ م × ٧٥٠ م ويضم أرضاً مساحتها ١٠٥ هكتاراً .

ثم تغيرت جوانبه مع اتساع المدينة عدا الجانب الشمالي الذي يمده نهر بردى . وكان لهذا سور سبعة ابواب ، ثلاثة في الشمال واثنان في الجنوب وواحد في الشرق وآخر في الغرب .

وتهدمت اجزاء من السور عام ١٣٢هـ بفعل العباسين وخاصة عبد الله ابن علي بن العباس ، واخذ السور بالانهيار .

وفي عهد نور الدين ٥٤٩هـ اعيد تحسين السور باشراف الكمال الشهريوري القاضي وقدر له عام ٦٦٨هـ ٢٠٠ الف دينار لاصلاحه ، وفتحت فيه منذ عهد نور الدين ابواب لم تكن موجودة . وخاصة باب الفرج وباب النصر وباب السلام .

اما الابواب الاخرى فذات اصل روماني ، كما انشئت ابراج دائيرية وتغير شكل السور واصبح اقرب الى الدائرة .

ومنذ عهد العثمانيين اهمل السور وتهدمت اكبر ابوابه وجرى تجاوز على اكبر انحائه .

وتجرى الان عمليات ترميم واسعة في سور المدينة .

ومن ابراج السور الباقية – برج نور الدين وهو مربع القاعدة ثم يستدير ويقع هذا البرج جنوب باب الجاوية في خان السنانية .

وبرج الملك الصالح ايوب المستطيل ويقع شرقي باب توما ويوج مستدير بشكل نصف دائري ويقع شرقي السور .

وابواب المدينة القديمة هي : الباب الشرقي في الشرق وهو روماني الاصل ، والباب الكبير (الجاية) في الغرب وباب توما ، وباب الجنق وقد زال ، وباب الفراديس ويسمى باب العمارة ، وباب الصغير ، اما باب السلام

وباب النصر وباب الفرج فهي اسلامية . ولقد زال باب النصر عام ١٨٩٣ عند انشاء سوق الحميدية وكان في موقع سوق الارواح .
وإذا دخلنا المدينة القديمة من الشرق فاتنا نعبر :
الباب الشرقي :

وهو من اهم الابواب التي انشئت في العهد الروماني (عهد سبتيموس سيفيروس كارا كالا) وهو مؤلف من ثلاث فتحات .

وقد دخل منه خالد بن الوليد وعبد الله بن علي العباسي ونور الدين ابن زنكى . وجده الملك الناصر ابن شرف الدين عيسى ابن الملك العادل ٦٢٥ . ثم قام قلاوون فأصلحه وجده عام ٧٣٤ .

وإذا تابعنا السير غربا باتجاه الشارع الطويل لاعترضنا درب العجر وهو منطقة باب توما اليوم .

باب توما :

هو حي معروف حمل اسم الباب الروماني القديم باب توما وينتسب إلى أحد عظماء الروم واسمه توما^(٢٢) .

وفي هذا الحي محلة تسمى النبطيون نسبة إلى الانباط الذينقطنوها قبل الرومان .

وتابع السير في الشارع الطويل الذي يبلغ ١٥٠٠ متر وهو الطريق المستقيم الروماني الذي يصل الباب الشرقي بالباب الغربي وهو باب الجاوية ولقد كشفت أثار هذا الشارع ومازالت بلاطاته موجودة مع قواعد الأعمدة الجانبية ، كما كشفت الحفريات عن قوس روماني أعيد ترميمه وهو مائل اليوم ، ولقد نظم السوق وأشيء إلى جانبه الدكاكين مدخلت باشا عام ١٨٧٨

(٢٢) انظر القلائد الجوهرية ص ٥٦

وتحمل اسم سوق مدحت باشا وكان اسمه سوق جقمق . وقبل ان نصل الى القوس نكون قد ترکنا الى الجنوب بباب كيسان ويقع خلف كنيسة بوالس ، من جهة الجنوب الغربي وينسب الى كيسان مولى معاوية كما يقول ابن عساکر وقد سده نور الدين وفتح باب الفرج ، ثم جدد فتحه ایام الماليك ٧٦٥ هـ .

وفي عام ١٩٣٥ اقام الفرنسيون عند مدخله كنيسة واتخذوا من الباب الاصلي مدخلًا لبعض الكنيسة فاختفوا عن الانظار .

ثم نمر بحارة اليهود او الامين والى الشمال حي الخراب والقimirية وهي حي كبير في دمشق يقع شرقي باب جিرون في المنطقة التي كانت تسمى الحريسين وكان فيها المدرسة القimirية الجوانية التي انشأها الامير ناصر الدين القimirي المتوفى في ٦٦٥ هـ ، والذي سلم الشام للملك الناصر . واهتم بالساعات التي اقامها على واجهة المدرسة .

هذه المدرسة تسمية الحي ، ويعتقد سوفاجيه ان الساحة الرومانية (الاغوار) كانت تقع في هذا الحي (٢٣) .

وباب السلام : اسم منطقة منسوبة لباب السلام ، وهو من اجمل الابواب الاسلامية ، بناء نور الدين وجده الملك الصالح ایوب عام ٦٤١ هـ .

وسمي بباب السلام لأن وراءه كثيراً من الاشجار والانهار التي تحميـهـ و تتبع الطريق حتى نصل اطراف الشاغور (تعني بالارامية الصغير) جنوباً وهو حي قديم انشيء في العصر الفاطمي ويقابلـهـ في الشمال سوق البزورية . ثم سوق الخياطين الذي انشأهـ شمسـيـ باشاـ عام ١٥٥٣ تحت اسم خان العجوية كما اقام درويشـ باشاـ سوق العريـرـ وفيـهـ خـانـ وـ حـمـامـ وبـعـدهـ منطقةـ سـيـديـ عـامـودـ .

(٢٣) انظر J. Sauvaget : Le plan antique de Damas Syria XXVI 1949.

ويقابله الى الجنوب الخضرية ، واسمها الحقيقى الخضرية نسبة الى القطب الخضرى (ابو الخير محمد بن محمد بن عبدالله بن خير الخضرى الدمشقى) صاحب دار القرآن الخضرية بدمشق ٨٢١ - ٨٩٤ ودفن في القاهرة

حتى نصل الى باب الجاوية وهي منطقه وسوق يقع ظاهر باب الجاوية في سویقة كانت باشورة الباب الكبير أيام نور الدين وباب الجاوية احد ابواب دمشق ملاصق لقبر المست جاوية ويتنسب الى قرية الجاوية ، وكان هذا الباب مؤلفا من ثلاث فتحات .

والباشورة : هي سویقة في باشورة الباب الصغير كان لها باب هدم أيام العثمانيين ويسمى المسجد الذي بجانب الباب ، مسجد الباشورة^(٢٤) .

ثم اذا عدنا الى المدينة القديمة من باب النصر الذي ازيل عام ١٨٦٣ وكان موقعه في مدخل سوق الحميدية ، فاننا نجده اجمل اسواق الشرق وهذا السوق (سوق الحميدية) مؤلف من قسمين الغربي انشيء في عهد السلطان عبدالحميد الاول وعرف بالسوق الجديد في عهد الوالي محمد باشا العظم .

والقسم الشرقي من العصرونية الى باب البريد انشيء في عهد عبد الحميد الثاني وبأمر الوالي راشد ناشد باشا واطلق منذئه على كامل السوق اسم الحميدية . وللبي يسار الداخل الى السوق تقع القلعة .

ففي الزاوية الشمالية الغربية من سور دمشق الروماني كان قد اقيم قصیر Castrum وبعد فتح العرب منحت هذه الدار الى أبي الدرداء ، ثم

(٢٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ق (١) ص ١٨٧

أخذها الفضاحك بن قيس ، وعوض ابا المدرداء بدلها بدار ملاصقة للجامع الاموي مكان المدرسة الصادرية اليوم .

ثم أصبحت قلعة اول من انشأها اتر بن اوق الخوارزمي حاكم دمشق سنة (٤٦٩) وذلك بعد ان احترقت الحضراء والجامع الاموي : وتلاحت فيها الزيادات في عهد الملك العادل اخي صلاح الدين ، ثم انه هدمها وجعل لها اثنى عشر برجا ، وزرعت على ابنائه وامراهه فعمرت من اموالهم على هيئتها الحاضرة وتبلغ مساحتها ٣٣٠٠٠م^٢ . شرع في بنائها في شوال ١٠٩٠ هـ فبنيت بها الادر السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء ، وتولى ذلك الامير علم الدين سنجر الشجاعي وبالغ في تحسينها فكانت جملة ماعمل في سقوفها اربعة الاف مثقال ذهب .

والى يمين الداخل الى سوق الحميدية من الجنوب تقع منطقة الحريقة وكانت تسمى سيدى عاصد ، وهي منطقة احرقها الفرنسيون عام ١٩٢٥ للقضاء على بيوت الثوار فيه واحتراق معها دار السعادة والمدرسة التجماسية والقدرائية وحمام غدراء والمدرسة الصلاحية وكثير من البيوتات الشامية .

وكانت تعرف باسم (سيدى عاصد) لوجود مقام احد الاولىء والى جانبه عمود . اما سوق الاردام فقد كان سوقا موازيا لسوق الحميدية من من الجنوب وسمي بذلك نسبة للاتراك الذين أطلق عليهم في عهد الملك اسم الاردام لأنهم قطنوا القسطنطينية – عاصمة الروم . وما زالت اثار من هذا السوق قائمة الى يومنا هذا .

وإذا اجترنا النصف الاول من سوق الحميدية ، فانا نرى الى اليسار العصرونية وهي سوق يقع شرق القلعة وغربي الجامع باسم المحلة السابق حجر الذهب وكان فيها المدرسة العصرونية ومنها اخذت التسمية . انشأ

المدرسة قاضي القضاة شرف الدين ابن أبي عصرون ودفن في المدرسة ذاتها
عام ٥٨٥ هـ (٢٥) .

وشمالاً يقع باب الفرج وهو باب المناخية اليوم وخارجـه كانت مصطبة العـضر . وبـاب البريد وبين السورين لـوقوعـها بين السـور القـديـم والـسـور الجـديـد . ثم المسـكـية حيث اطلـال جـوبـيتـر المـنشـآت البيـزـنـطـية أـقـيم عـلـيـها دـكـاكـين للورـاقـين والمـكتـبـات ومـحلـات لـبعـض المـسـكـ والمـعـطـور إـلـى جـانـبـها ولـهـذا اـطلقـ عـلـيـها اـسـمـ المسـكـية .

ثم الجـامـع الـأـمـوـي الـكـبـير : اـنـشـأـه الـولـيد بنـ عـبدـالـلـكـ سـنة ٨٧ وـحتـى ٩٦ وـأـكـملـه أـخـوه سـليمـان .

كان معـبـدـ جـوبـيتـر في عـهـدـ الـرـومـانـ وـما زـالتـ جـدـرـانـه الـخـارـجـيـة قـائـمةـ حـتـىـ الـيـوـمـ فـيـهاـ النـاحـيـةـ الـقـبـلـيـةـ بـابـ قـدـيمـ كـمـاـ انـ اـثـارـ اـسـوارـهـ الـخـارـجـيـةـ (ـالـتـيـمـيـنـوـسـ)ـ مـازـالـ اـكـثـرـهـ وـاضـحـاـ درـسـهـاـ كـرـيـزـوـيلـ .

ثم اـصـبـحـ كـنـيـسـةـ يـوـحـنـاـ الدـمـشـقـيـ فيـ عـهـدـ الـبـيـزـنـطـيـنـ الـذـينـ اـسـتـفـادـوـاـ مـنـهـ وـاقـامـوـاـ اـرـبـعـةـ اـبـرـاجـ لـلـنـوـاقـيسـ فـيـ زـوـاـياـ جـدـرـانـ الـمـعـبـدـ الـقـدـيمـ مـازـالـتـ اـجـزـاءـ الـبـرـجـيـنـ الـجـنـوـيـنـ قـائـمةـ . وـانـشـأـتـ كـنـيـسـةـ مـكـانـهـ فـيـ صـحنـ الـجـامـعـ الـيـوـمـ ،ـ وـاضـيـفـتـ اـرـوـقـةـ وـمـنـشـآتـ بـيـنـ جـدـارـيـ الـمـعـبـدـ ،ـ مـازـالـتـ اـثـارـهـ باـقـيـةـ حـتـىـ الـيـوـمـ فـيـ الـمـسـكـيـةـ .

(٢٥) وـكـانـ مـحـبـاـ للـحـيـاةـ عـاشـ ٩٦ عـاـمـاـ وـكـانـ شـاعـراـ ،ـ وـمـنـهـ قـوـلـهـ :
اـؤـمـلـ اـنـ اـحـيـاـ وـفـيـ كـلـ سـيـاعـةـ
تـمـرـ بـيـ الـموـتـىـ تـهـزـ نـعـوشـهـاـ
وـمـاـ اـنـاـ الاـ مـنـهـمـ غـيـرـ اـنـ لـيـ
بـقـايـاـ لـيـالـ فـيـ الزـمـانـ اـعـيـشـهـاـ

(٢٦) انـظـرـ Creswell : Early Muslem Architectur Oxford 1941.

وعندما فتح المسلمون دمشق (دخل خالد من الباب الشرقي بالسيف ودخل ابو عبيدة من باب الجابية بالامان) ، اخذوا كنيسة توما عنوة واقاموا الصلاة فيها وجعلوا منها محراب الصحابة ، وتركوا الكنيسة الداخلية في الصحن التي صالحوا عليها المسيحيين من اهل دمشق ، واستمر المسلمون والسيحيون يصلون في نفس المكان حتى عهد الوليد ، الذي قرر ان يبني مسجداً كبيراً يتاسب مع اهمية الاسلام ديناً ودولةً امتدت في عهده الى الاندلس غرباً والى الصين شرقاً .

وافق الوليد مع المسيحيين على هدم الكنيسة مقابل عدة كنائس سمح لهم بها (منها كنيسة تعرف بحمام القاسم بحذاء دارا ام البنين في الفراديس وكنيسة حميد بن درة وكنيسة بجانب سوق العجين وكنيسة المصلبة وكنيسة حريم) .

ثم عوضهم عمر بن عبد العزيز بجميع كنائس الغوطة التي كانت قد اخذت منهم سنة 86 هـ .

هدمت الكنيسة ولم يبق الا الجدران الرومانية ، وقام الوليد الحوامل المقنطرة وقبة النسر وغطى الحرم بالخشب والرصاص ، وحلى المسجد بالفسيفساء والرخام ولقد كلف بناء المسجد ١٤٤ قنطاراً دمشقياً من الذهب المصري .

ولقد بني الوليد كل ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمكها ، ولما بني القبة وقعت ، فتصدى احد البنائين لذلك ، فحفر موضع الاركان حتى بلغ الماء ثم بناها حتى اذا وصلت الاركان مستوى الارض غطتها بالحصیر ومضى ، حتى اذا استقرت الاركان وقد هبطت قليلاً عاد فاكمل بناءها ، ويقال انه غطى الاساس بجذوع الكرم .

ولقد أكمل بناء الجامع سليمان بن عبدالملك واقام لنفسه مقصورة فيه سنة ٩٦٧هـ وفي عام ١٧٢ أنشأ أمير دمشق العباسي الفضل بن صالح بن علي قبة المال في صحن الجامع من الجهة الغربية .

وفي سنة ٦٠٢هـ في عهد الملك العادل بلط صحن الجامع ، ولقد تعرض المسجد لحريق ضخم عام ٤٦١هـ اتى عليه ثم اعيد ترميمه مرات عديدة اخرها الترميم الذي ابتدأ منذ عام ١٩١٠ بعد حريق اتى عليه في نهاية القرن الماضي

٢ - المنطقة الثانية - الميدان والجنوب :

بعد ان انهينا جولتنا السريعة في دمشق فانا سندخل المنطقة الثانية والمكونة من محلة الميدان والاحياء الجنوبية ، فاذا خرجنا من سوق الحميدية فان شارع النصر المتده حتى محطة الحجاز هو الحد الشمالي للمنطقة الثانية هذه . ولاباس ان نسير في هذا الشارع الذي سمي باسم النصر نسبة الى باب النصر الذي كان ينفتح في سور المدينة عند مدخل سوق الحميدية وكان جمال باشا قد اعاد تنظيم هذا الشارع فحمل اسمه منذ عام ١٩١٢ .

واول شارع النصر الى الشمال منطقة السنجدار وهي سوق احترق عام ١٩٢٨ بتأثير نار خرجت من دار للسينما تحت دائرة الاوقاف ، فاحتراقت جميع الجهة الواقعة قبلى جامع يليغا بعد النهر بما في ذلك مدرسة التغري ورمش وهي مدرسة على هيئة القاعات مثل الجمقية والشاذلية .

ثم منطقة حكر السماق التي نظمها الامير تنكر المملوكي واقام فيها جامعا في مطلع القرن الثامن عشر وبنى امامه حماما وسوقه ،

اما في الجنوب فانتا نرى اولا قصر العدل حيث كانت المشيرية التي ازيلت نهائيا عام ١٩٤٩ وكانت القسم الداخلي المتبقى من السرايا القديمة .

وبعده حي القنوات نسبة الى القنوات الرومانية التي فيه والتي انشيء عليها وحولها بيوت الاتراك الاثرياء والموظفين في السرايا منتصف القرن التاسع عشر .

ثم شارع خالد بن الوليد الذي افتتح عام ١٩١٠ وكان جادة تسمى جادة الرشادية نسبة الى رشاد باشا .

وعندما تنتهي الى محطة الحجاز ، فانتا نتعرف شمالاً لكي نهبط شارع سعد الله الجابري والممتد حتى نهر بردى ، وكان هذا الشارع جادة اسمها السليمانية نسبة الى سليمان شفيق باشا .

وبعد محطة الحجاز يقع حي الحلبوسي وكان في عهد الملك يسمى الخلخال وهو من ارقى الاحياء .

وإذا أردنا ان توسع في زيارة المنطقة الجنوبية ، كان علينا ان نسلك شارع خالد بن الوليد حتى المجتهد . حتى نظر على ساحة الاشمر في الميدان السلطاني .

وثمة طريق اخر الى الميدان وهو الطريق القديم و سنحاول السير فيه لاهيته التاريخية فهو الطريق العظيم الممتد من باب العجایة وينتهي عند بوابة الله وهو طريق الحج ، وعليها الرجوع مرة اخرى الى مدخل سوق الحميدية لكي تتجه جنوباً الى الميدان . وهكذا سنمر اولاً بمنطقة الدرويشية وفيها مجموعة الابنية التي انشأها درويش باشا عام ١٥٧٤ وهي مؤلفة من الجامع والمكتب والمدفن والسبيل ، وكان اسم هذه المنطقة قبل ذلك الاخصاصية لصناعة الاقفاص والاخصاص .

ثم نمر من باب العجایة الذي تحدثنا عنه ، وبعدها يقع قصر حجاج وهو حي يقع في منطقة قصر كان قد انشأه الحجاج بن عبد الملك^(٢٧) ولم يعد

(٢٧) انظر - محمد كرد علي - غوطة دمشق ص ٢٥٧

له أثر . وجادة قبر عاتكة وهي منطقة تحمل اسمها نسبة الى قصر عاتكة بنت الحسين الذي لم يعد موجودا والسويفة وهي ضاحية انشئت في عهد المماليك وكانت حافلة بالخانات لنزول القوافل القادمة والذاهبة الى عكا وصور ومصر .

ثم نصل الى باب الصغير وهو باب المدينة الجنوبي ، وسمى كذلك لانه اصغر ابواب دمشق ، ولقد جدده الايوبيون في عهد (عيسى بن الملك العادل) ومنه دخل تيمورلنك ، وكان امامه باشورة مسجد يطلق عليه اليوم مسجد باشورة ويطلق على هذا الباب اسم باب الشاغور ايضا وعلى مقربة منه تقع اكبر مقبرة في دمشق تدعى مقبرة باب الصغير او (قبور الشهداء) مدفون فيها كما يذكر (ابن بطوطة) ، معاوية بن ابي سفيان ، عبد الملك بن مروان ، يلال الجشي ، ابو الدرداء وام الدرداء ، السيدة سكينة بنت الحسين بن علي عليهم السلام ، ابن تيمية ، ام حبيبة بنت ابي سفيان ام المؤمنين ، ويقول (الهروي) ان فيه ثلاثة قبور لزوجات النبي ، و Kubab الاخبار ، ووائلة بن الاسقع ، وسهل بن حنظلة .

وفي تربة واحدة دفن من آل البيت :

ام الحسن ابنة حمزة بن جعفر الطيار
علي بن عبدالله العباس واخوه سليمان وزوجته ام الحسن ابنة جعفر بن الحسن بن ليلي .

وخدیجۃ ابنة زین العابدین .

ثم نصل الى باب المصلى وهو منطقة في الميدان عرفت بهذا الاسم نسبة الى جامع مصلى العيدین الذي مازال قائما حتى الان ، وكان يزيد بن الوليد اول من صلى فيه . انشأه الملك العادل سنة ٦٠٦ باشراف الوزير صفي الدين

ابن شكر ولقد خصص لصلة العيددين وفتحت له ابواب من كل جانب وبني له منبر كبير بجانب المحراب الحجري الجميل ، وتقع هذه المنطقة في ميدان الحصن ، ويطلق عليها « ميدان الحصن »^(٢٨) .

والميدان الفوقاني كان سابقا قرية القبيات ولازال حارة اسمها القبيات ، وسميت كذلك لأن سقوف هذه القرية كانت قبابا مثل قرى شمال سوريا واهلها من قرية السخنة وما زالوا يدعون بالسخنة ، وفيها جامع الكريمي وكان يسمى جامع القبيات واسمه اليوم جامع الدقاد .

وبعدها قبة الحاج وهي قبة كان الحجاج يلتقي هناك حيث تكتب حجة التسليم ثم يمضي امير الحج الى تكية احمد باشا وتقع هذه القبة في القدم ، ولعلها انشئت مكان قبة يليغا التي اقيمت في عهد (يليغا او قبله) في موقع القدم واطلق عليها اسم قبة النصر عند بوابة الله التي (تسمى ايضا باب مصر) .

٣ - المنطقة الثالثة او المنطقة الشمالية الشرقية :

يفصلها عن اجزاء المدينة سور المدينة الشمالي وشارع الثورة ، واذا سرنا بمحاذاة السور ابتداء من شارع الثورة ، فاننا نجد انفسنا في شارع الملك فيصل وكان سابقا شارع الحلوانيين .

اما في بدايته فكانت منطقة تحت القلعة حيث سوق البطيخ وسوق الخضار وسوق الغيل الذي حل محله سوق الهمال وسوق التبن .

والى الشمال من هذه المنطقة تقوم منطقة العقبة ، وهي ضاحية انشئت في عهد الفاطميين وتقع في شمالي دمشق ، والكلمة تصغير العقبة ، ولقد سميت كذلك لوقوعها على المنحدر الذي يحد وادي النهر من ناحية الشمال .

(٢٨) انظر اعلام الورى تعليق محمد احمد دهان ١٥-٨٤

وفيها اقام الامام الاوزاعي ، وفيها جامع التوبه الذي سمي كذلك لانه
كان خانا للرذيلة وتاب اهله .

ثم نرى مرج الدخداخ أصبح مقبرة .

وإذا تابعنا السير في شارع فيصل فانتا نصل الى باب الفراديس أو باب العمارة،
العمارة حي قديم في دمشق واصل تسميتها بعمارة الاخنائي التي كانت خارج
باب الفراديس (القرن ١٤) واستمرت التسمية (العمارة) فقط على
المنطقة حتى اليوم .

ثم تابع الطريق حتى مسجد الاقصاب حيث تلتقي بسوق عائد الى
الغرب هو سوق صاروجة او سويقة صاروجا ، انشأها الامير صارم الدين
صاروجا المظفري عام ٧٤٣ و توفي عام ٧٤٠ . وكان امراً في صفد ثم في دمشق
وكان من انصار الامير تذكر .

ولقد شق شارع حديث مواز لسوق صاروجة هو شارع بغداد ، انشيء
هذا الشارع عام ١٩٢٥ لتسهيل وصول القوات الفرنسية من الغوطة الى
المستشفى العسكري والتخلص من البساتين التي كان يأوي إليها الشوارء ،
واطلق عليه اسم بغداد لانه بداية طريق السيارات الصحراوي الذي يصل
دمشق ببغداد .

٤ - المنطقة الرابعة :

تقع ضمن مثلث قائم الزاوية ، ضلعاه شارع الثورة وشارع شكري
القوتلي ، ووتره شارع المهدى بن بركه .

وإذا اتجهنا غرباً من بداية شارع الثورة قرب القلعة فانتا نصل الى
ساحة الشهداء وسميت كذلك لأن فيها استشهد ابطال الثورة السورية على
يد السفاح جمال باشا .

وكان جزءاً من المرج الاخضر ولذلك يطلق عليها ايضاً اسم (المرجة) واسمها السابق قبل اعمارها (الجزيرة) او (بين النهرين) وذلك لأن بودي يتفرع عند العقرياني فيشكلان جزيرة خضراء كانت مقصداً للناس أيام الجمع والراحة .

ولقد غطى النهر في هذه المنطقة نهاية القرن الماضي وفي عام ١٩٦٢ غطي القسم الشرقي من الساحة .

ولقد أصبحت المرجة ساحة منذ بداية هذا القرن واقيم فيها نصب يمثل مسجد السراي في اسطنبول اقيم من البرونز بمناسبة البرقية .

واذا تابعنا السير بمحاذة نهر بودي وهو نهر قديم كان يسمى نهر قرق وله فروع سبعة اهمها هي يزيد وثورا وبودي وبانیاس وقنوات والمزة فانا نمر بين الشرف الاعلى المتدة الى الشمال وتصل حتى بوابة الصالحية (ساحة الثوري) ونسير في الشرف الادنى حتى محطة الحجاز ومقابر الصوفانية التي انشئ عليها مستشفى الجامعة في عهد ناظم باشا ،

ثم نصل الى التكية وهي منطقة القصر الابلق الذي كان قد انشأه الملك الظاهر بيبرس .

وبعدها المرج الاخضر او ميدان ابن اتابك (يعني نور الدين زنكي) ولقد اقيم عليه المتحف والمعرض وفوقه المنبع محلة شهيرة في العصر الملوكي انشئت عليها التكية الحميدية وتقابلاً شمالي النيرب حيث يقام فندق ميرديان ونادي الضباط ووزارة الدفاع .

وبعد ساحة الامويين وفي طريقنا الى الربوة في منطقة المبارك اليوم يقع بستان الدهشة وبستان المادنة والداوسة وفوقها النيرب الاعلى ، وهي منطقة واسعة تمتد من ساحة المعري وحتى الربوة ويحدتها شمالي نهر يزيد ويقال ان في الربوة مدفن مريم ام عيسى عليه السلام ، وكما يقال ان الربوة

هي مأوى المسيح وامه (واوينها الى ربوا ذات قرار ومعين) .
 ويقابل هذه المنطقة من الجنوب المزة وهي قرية قديمة من عهد الاراميين
 وتقع غربي دمشق واصبحت اليوم من احياء المدينة الكبيرة يطلق عليها اسم
 دمشق الجديدة وهي قديمة اقام فيها قبائل يمانية من بنى كلب فسميت مزة
 كلب ، وكانت لاسامة بن زيد اقطاع فيها باعها ابوه الحسن الى بنى كلب .
 واذا اتجهنا من ساحة الامويين التي تقع في منطقة النيرب الادنى وفي
 بداية بستان الدهشة نحو الشرق عبر شارع المهدى بن بركه ، فانا سنجتاز
 شارع الجلاء (ابو رمانة) الذي يفصل النيرب الادنى عن الشرق الاعلى .
 وابو رمانة تسمية جاءت على ولی کان مدفونا في اعلى الشارع في
 بستان يقع فوق نهر تورا او قرب يزيد وهذا الولي انسان عادي کان معلم
 كتاتيب اشتهر بالتقى والصلاح وكان القبر مظللا بشجرة رمان اطلق عليه
 اسم سیدي ابو رمانة ، وحمل الشارع عند افتتاحه عام ١٩٤٥ هذا الاسم ثم
 عدل باسم شارع الجلاء .

ثم نصل الى قرية ارزة حيث اقيم حي الشهداء ، وفيه مقام لشهيدين
 لا نعرف هويتهما او لثلاثة شهداء من الصحابة^(٢٩) ، ثم اقيم مسجد
 الشهداء عام ١٩٠٨ وحوله حي جميل ما زال قائما حتى الان اما عرنوس ،
 فينبع الى ضريح رجل کان اسمه عرنوس .

واذا سرنا في طريق الصالحية وهو الطريق الرئيسي الذي يصل دمشق
 بالصالحية ، وابتداء من ساحة الثوري او يوسف العظمة ، فانتا سنجتاز
 مناطق كانت تسمى باسم البساتين فيها ، مثل حارة شرف ، والمزرعة والرئيس
 حتى نصل الى الجسر الابيض وكان جسرا صغيرا يقع على نهر تورا ويوصل
 الى الصالحية واطلق عليه اسم جسر تورا او الجسر الابيض .

(٢٩) ابن طولون : القلائد الجوهرية ص ١٨

ثم نصل الى العفيف :

والعفيف هي ينسب الى الشيخ محمد العفيفي وفيه حمام العفيف الذي يرجع الى قبل القرن الرابع عشر ، ولقد ازيل .

٥ - المنطقة الخامسة - هي الصالحية والآكراد :

الصالحية هي ضاحية تقع في سفح قاسيون واطلق عليها هذا الاسم لاقامة الصالحين من بنى قدامة فيها ، ثم هي نسبة الى ابي صالح الحنبلي . وقصة ذلك ان الشيخ احمد بن محمد قناتمة الجد الاعلى لآل قدامة او آل المقدسي ، تزوج مع المقادسة عند احتلال الصليبيين عام ١٠٩٨ لمدينة القدس .

فقام الشيخ احمد مع اهله اولا في جامع ابي صالح الحنبلي (اليوم قبر الشيخ صالح) ويقع بظاهر الباب الشرقي ، ثم انتقل الى قرية اسمها الدير تقع في الجبل فبني فيها مدرسة اسمها مدرسة الدير مع عشر غرف صغيرة اقاموا فيها وما زالت تلك المنطقة تعرف بحارة الدير ، وهي اول ما انشيء في الصالحية ، وكان ذلك في عهد نور الدين .

هذه هي الصالحية واذا اردنا ان نجول في هذه المنطقة فمن الافضل ان نبتدئ من الغرب من اعلى الربوة اي من المشار ، الى منطقة دير مران حيث اقام المؤمن عام ١٠٨٣ وفوقه قبة السيارات التي انشأها الامير سيار الشجاعي

ولن نسير مع نهر تورا بل سنلقي نظرة على مساره واسم هذا النهر الاصلي نهر ثوري وهو احد فروع بردى يشق عنده بين الربوة ودمر ويروى سفوح قاسيون وبساتينها ، ومنها من الغرب الى الشرق بستان المادنة وبستان الدهشة الكبيرة (البارك الجديد) وبستان النيرب الادنى وقع في شارع بيروت . وعليه انشيء فندق شيراتون وقسم كبير من شارع المهدى بن يوكلة

والاحياء المحيطة به وقرية ازره (حي الشهداء والمزرعة اليوم) وبستان المحمديات (حي الرئيس) والمنقري (وزارة التربية) وبيت ابيات (الملعب العسكري) والجنيحة الباوعونية ، وبستان حور تعلا . وعليه من الجسور الجسر الايض الذي اصبح ساحة ، وجسر الاياسة ويقع على شارع المالكي .
ولسوف نسير في المهاجرين شرقا من شارع ناظم باشا الموازي لنهر يزيد والذي انشيء في عهد الوالي المصلح الذي انشأ التكية الحميدية والسرايا والقصر في المهاجرين والمستشفى الوطني وجسر الماء من عين الفيجة .
والمهاجرين منطقة تقع في سفح جبل قاسيون من الجهة الغربية واسمها القديم (تحت الردادين) .

واطلق عليها اسم المهاجرين منذ بداية هذا القرن عندما هاجر سكان كريت من المسلمين بعد المحنـة التي اصابتهم من اليونان ، ولقد اسكنهم الوالي ناظم باشا هذه المنطقة ، وكانت ملكا لآل المؤيد العظم وكانت قبلـا ملكا اقطاعيا لبهاء بك في عهد الوالي حمدي باشا .

ولا خراقـ هذا الحي فانتـا نـبـتـدـيـء من ساحة خورشـيد ، وسمـيتـ كذلك نسبة لـملكـ القـصـرـ الجـمهـوريـ الحـالـيـ خـورـشـيدـ وهـبـيـ المـصـرـيـ الـذـيـ اـشـتـراهـ منـ نـاظـمـ باـشاـ قـبـلـ اـنجـازـهـ ، مـرـورـاـ بـالـمـصـطـبةـ ، الـتـيـ اـعـدـتـ لـاستـعـراضـ الـجـنـدـ عـنـ زـيـارـةـ الـامـيرـاطـورـ غـلـيـوـمـ الثـانـيـ لـدمـشـقـ عـامـ ١٨٦٩ـ وـكـانـ وـلـيـ عـهـدـ بـرـوـسـياـ وـقـبـلـ انـ نـصـلـ اـلـىـ الـعـفـيفـ نـرـىـ فـيـ اـعـلـىـ الـمـاهـجـرـينـ حـيـ السـلـامـيـةـ وـيـدـعـيـ السـلـامـيـةـ وـيـنـسـبـ الـحـيـ اـلـىـ الـتـرـبـةـ السـلـامـيـةـ وـيـقـعـ قـرـبـ جـامـعـ الـاقـرـمـ وـفـيـهاـ دـفـنـ حـمـزةـ بـنـ مـوسـىـ ، عـزـالـدـينـ اـبـوـ يـعلـىـ الـمـعـرـوفـ بـابـنـ شـيـخـ السـلـامـيـةـ .

وـمـنـ الـعـفـيفـ نـمـضـيـ شـرـقاـ إـلـىـ حـارـةـ الـمـادـارـسـ وـالـتـيـ كـانـتـ تـحـويـ عـدـداـ مـنـ الـمـادـارـسـ حـتـىـ اـعـتـرـتـ الـمـنـطـقـةـ أـشـبـهـ بـالـمـدـيـنـةـ الـجـامـعـيـةـ وـلـقـدـ بـقـيـ مـنـهـاـ عـدـدـ مـثـلـ الـيـعـمـورـيـةـ وـالـكـجـكـرـيـةـ وـالـمـرـشـدـيـةـ وـالـأـتـابـكـيـةـ وـالـجـهـارـكـيـةـ وـالـعـمـرـيـةـ وـمـدـرـسـةـ الصـاحـبـةـ وـهـيـ اـقـدـمـ مـدـرـسـةـ

ثم نصل الى منطقة الشيخ محبي الدين وفيها جامع محبي الدين بن عربي الذي انشيء بأمر السلطان سليم الاول وكان شديد الاعجاب برأيه وطريقة الصوفي محبي الدين بن عربي واشرف على البناء معلم السلطان ، شهاب الدين بن العطمار .

ومنطقة الشركسية التي سكنتها في اواخر القرن الماضي الشركسية وهم حامية ارسلها السلطان العثماني لتوطيد الامن في السهوب السورية واستفردوا شالي جامع الشيخ محبي الدين وعرف الحي باسمهم .

ولكن وجود المدرسة الجهركسية كان سبباً اقوى لتسمية هذا الحي معرفاً بالشركسية واذا تابعنا السير فانتنا نصل الى منطقة ركن الدين حيث المدرسة الركينية والجامع اللذين أنشأهما ركن الدين بن منكورس غلام ملك الدين اخي الملك العادل .

ثم تابع الطريق في شارع ابن النفيس الجديد في منطقة المتطور التي يحدها شمالاً نهر يزيد ولقد اتشر شماله حي الاكرااد الذي اختاره الاكرااد القادمون من كردستان الذين رافقوا نور الدين وصلاح الدين لخوض غمار الحرب الصليبية ، فاختاروا منطقة جرداً تقع شرقى الصالحية لعدم توفر منطقة كافية لسكنائهم في المدينة ، كما ابتعدوا عن المناطق الزراعية لأنهم لم يكونوا ملاكاً ولا مزارعين . واختاروا منطقة جبلية منسجمة مع طبيعة حياتهم وهكذا استمر هذا الحي منفصلاً عن المدينة في طريقة تكوته .

وفي أسفله جسر النحاس ، ويقع شرقى الركينية في الصالحية (وكانت تسمى حارة الجبل) وينسب الى عماد الدين بن النحاس ، الذي بني عام ٦٥٤ هـ جامعاً^(٣٠)

(٣٠) النعيمي ج ٢ ص ٤٤١.

وفي اعلاه مغارة الأربعين وتقع شمال شرقى دمشق سميت كذلك لأن رجلا رأى فيها أربعين رجلا يصلون ، ثم خرج لحاجة وعاد فلم يجد أحدا .

حتى نصل إلى بروزة

وبعدها كانت المصطبة في القابون : اقيمت في سهل القابون بين القابون وبروزة ويقول الاستاذ دهمان كان الملك والنواب والعظماء من القواد ينزلون فيها اذا قدموا من جهة حلب ثم تخرج جيوش دمشق للاقاتهم ويدخلون دمشق بموكب حافل .

ويقول البدوي المتوفى عام ٨٩٤ انها قدر فدان يصعد اليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حسن البناء ، ينزل به الملك والسلطان عند توجههم إلى الاسفار .

ويضيف دهمان « بقى شيء من اثارها إلى سنة ١٣٥٠ وقد شاهدتها وهي تعلو عن الأرض نحو متر وقد أخذ الفلاحون في هدمها وتسويتها بالارض وأصبحت اليوم أرضا زراعية »^(٣١) .

وعلى بعد ١٧ كم شرقى دمشق تقع ضاحية عذراء او عدرا وهي قرية شرقى دمشق ١٧ كم وأصبحت منطقة صناعية كان يحيط بها مرج راهط او مرج عذراء حيث كانت المعركة بين الضحاك بن قيس وبين مروان بن الحكم حيث اتصر مروان ودعم حكمه .

وتحتها الفصیر ، منطقة على مسافة ١٦ كم شرقى دمشق كان فيها قصر صغير ثم انشئ خان للقوافل يقال له خان القصر ، وفي اواخر العهد العثماني أصبح الخان مستودعا للاسلحة العسكرية ، وفي سنة ١٩٣١ تحول إلى مستشفى للأمراض العقلية (مستشفى ابن سينا) .

(٣١) اعلام الورى - الحاشية ص ٤٤

اما قبة العصافير ، فهي قبة تذكارية اقيمت في عهد الملك المنصور ابو بكر حميد قلاوون وخليفته بمناسبة مسكه لامير دمشق تنكر والقضاء عليه ٧٤٠ ذي الحجة . وهي تقع على بعد ٢٧ كم شرقي دمشق قبل ثنية العقاب .

وتقع منطقة الصالحية والاكراد على سفح جبل قاسيون وهو جبل قديم ويقع شمالي دمشق وارتفاع قمته ١٥٠٠ م ، والتسمية جاءت من القسوة لانه قسا على الكفار فلم يقدروا ان يتخدوا منه الاصنام (المروج/ ١٨) او لانه لم تنبت فيه الاشجار - والاشجار فيه قليلة . ولكن يقال انه كان حافلا بالارز والنخيل كان منه ١٢ الف نخلة ، قطعها تيمورلنك .

ومعروف فيه مغارة الدم ، ومغارة الجوع ، ومسجد الكهف ، وهو منزل الزهاد والعلماء ، ومغارة الأربعين . وفي اعلى قاسيون قبة النصر او النسر كما يسميهما العوام وتقع في ذورة قاسيون وهي (قبة على سوار) التي انشأها نائب دمشق برقون تذكارا بعد ان ساهم في القضاء على (شاه سوار) الذي استعان بالسلطان محمد الفاتح لمحاربة سلطان القاهرة مطالبًا بالامارة على كيليكيا ومركزها ايلستان وشاه سوار هو من الاسرة الدلغادورية وسالاتها اسرة الغادري المعروفة في حلب .

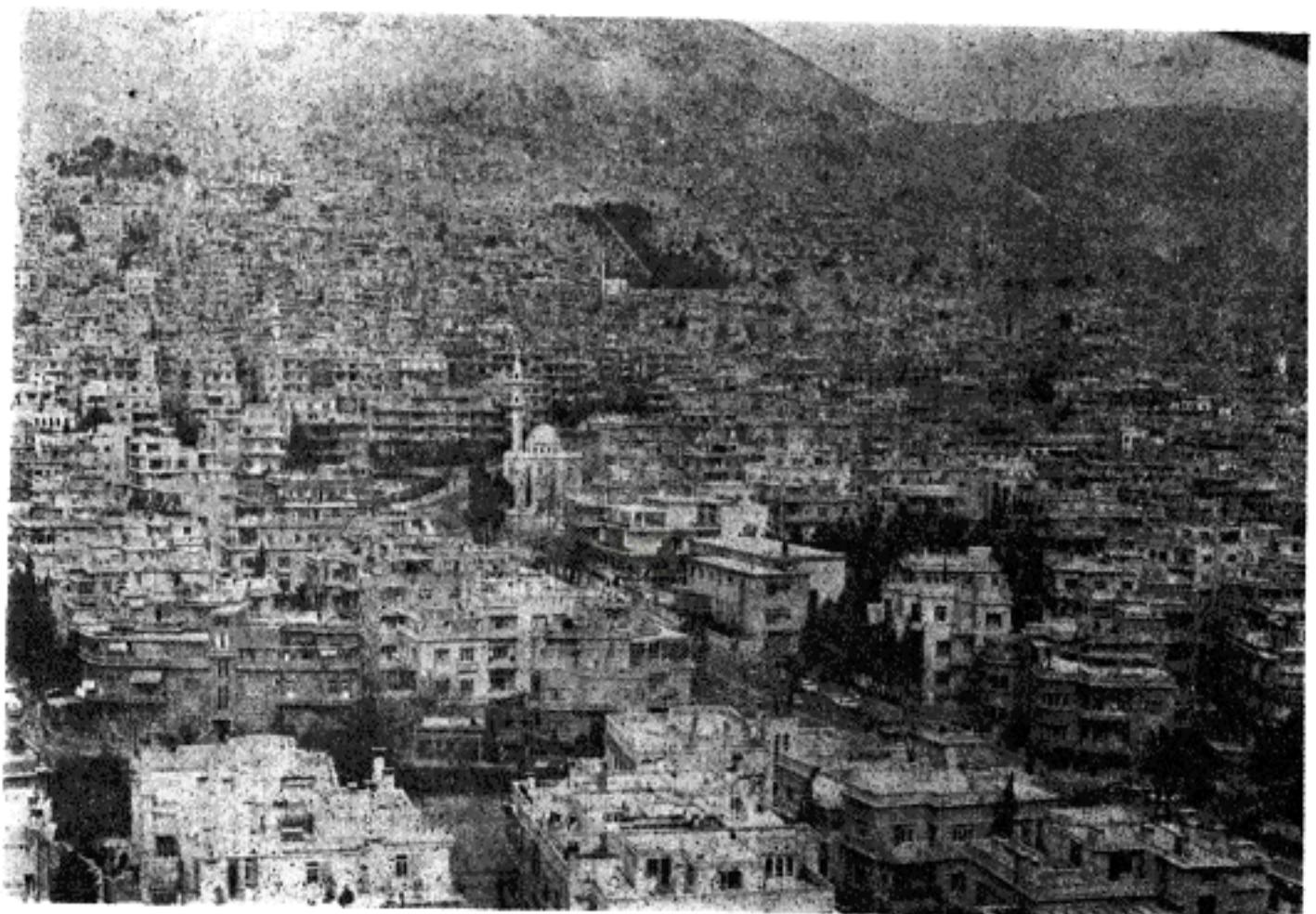
ولقد تهدمت هذه القبة التذكارية سنة ١٧٥١ بتأثير الزلزال وبقي منها اطلال اطلق عليها قبة كرسي الديمة .

ثم ازيلت هذه الاثار نهائيا من قبل جيوش الحلفاء في عام ١٩٤١ لكي لا تصبح علاماً لعدد .

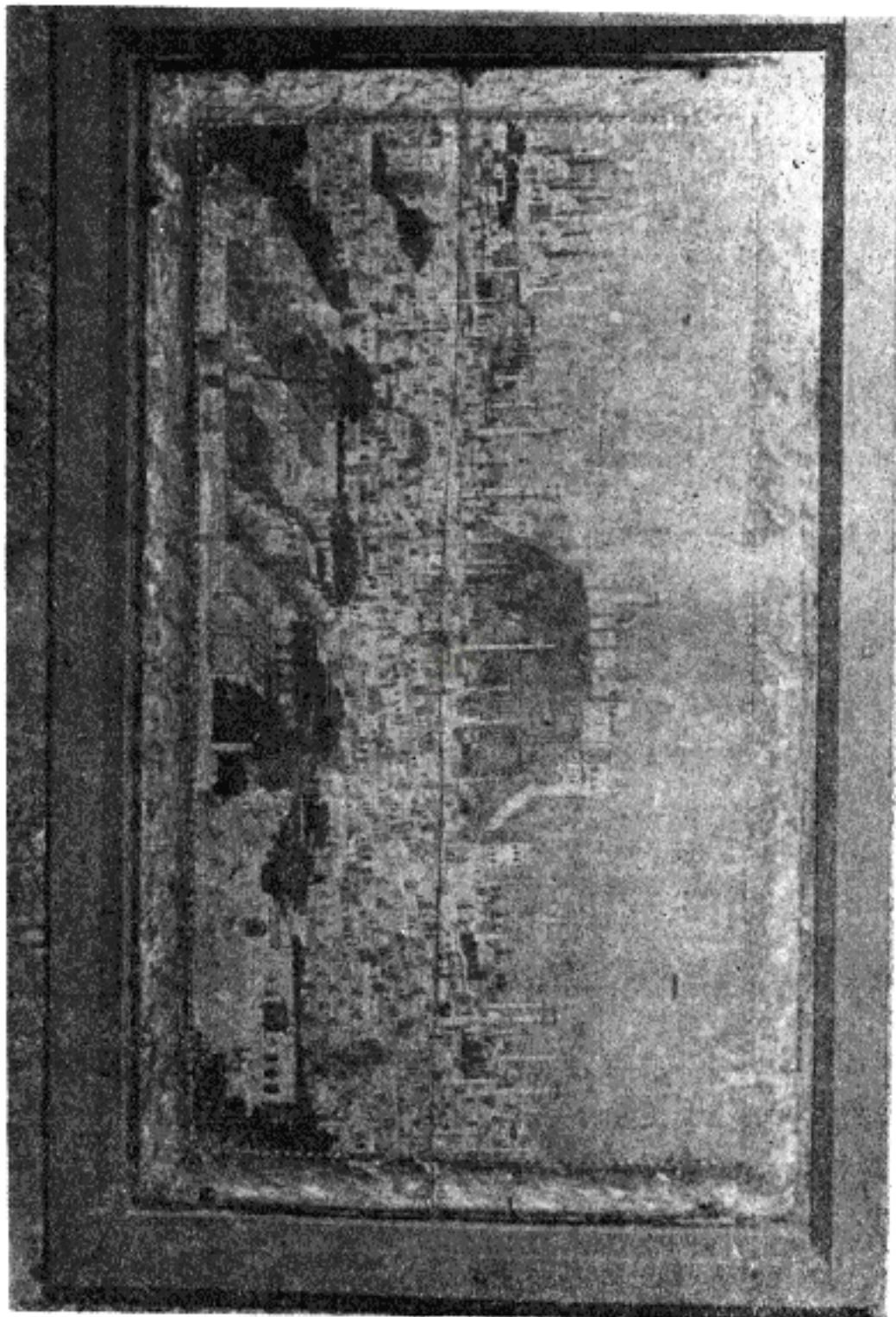
وفي اعلى بعض ذرواته قبة السيار وفي سفحه في حي الميطور مدفن طالوت كما يقال .

وانشىء في سفحه الصالحية والمهاجرين ، ويروي بساتين سفوحه نهر
يزيد وهو احد فروع بردى في اعلى مصطبة على سفح قاسيون ، وكما يقول
ابن عبدالهادي (٣٢) : انه كان ساقية قدر ذراع ، تسبق ارضاً لبني بقيلة من
اهالي القابون وانها صارت تزيد ، وقال ايضاً ، أن نبته الى يزيد بن معاوية
وانه صالح اهل الغوطة على زيادته ونسب اليه ويروي الدواسة والنيرب
الاعلى وهي احياء ممتدة من شارع نهر و حتى المالكي والى اعلى المعربي ،
والسهم الاعلى وهي منطقة العفيف والصالحية وبستان مصارو (ركن الدين)
والميطور (اسفل الاكراد) وحتى بربة *

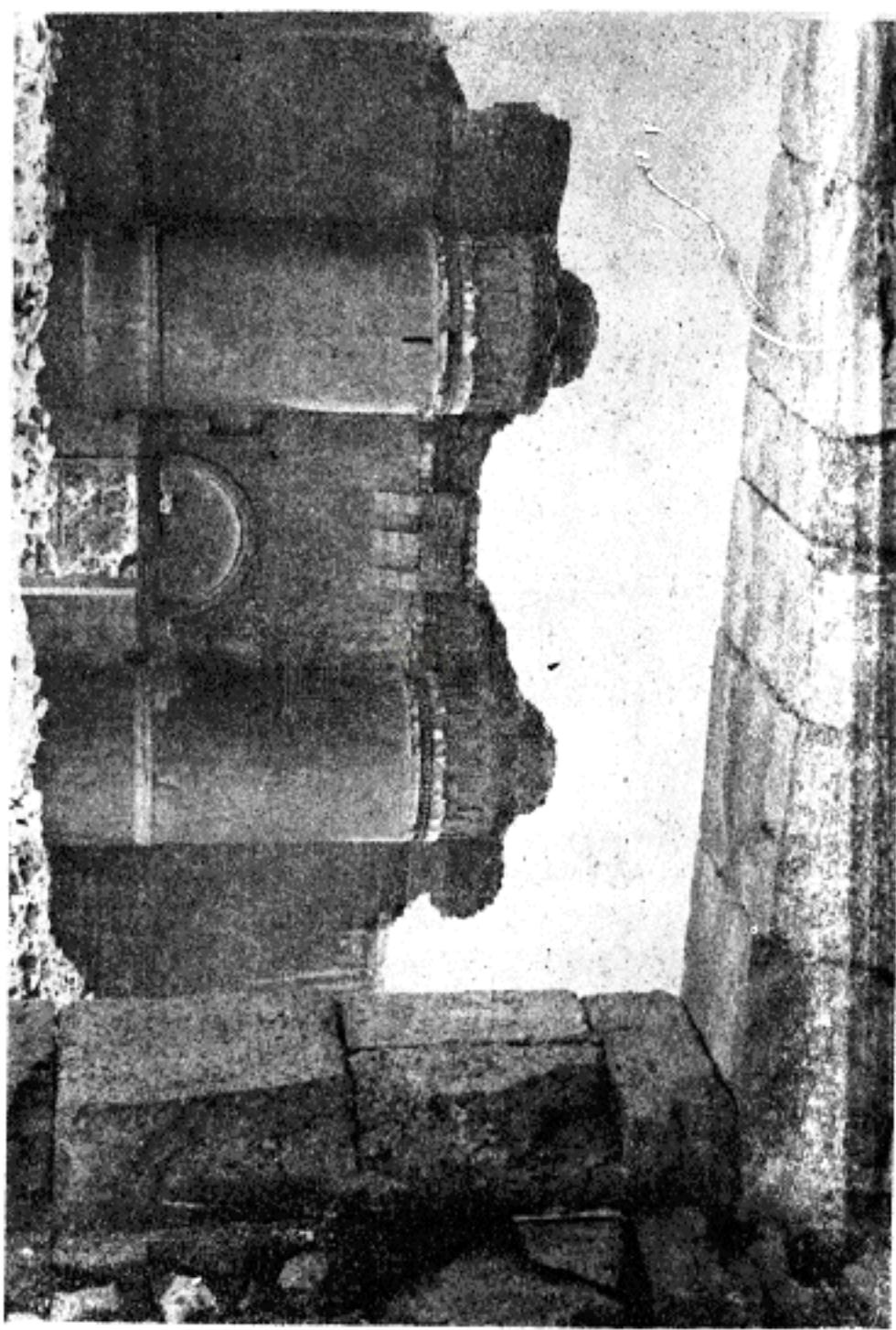
ثم نهر توري الذي يروي احياءه السفلي *



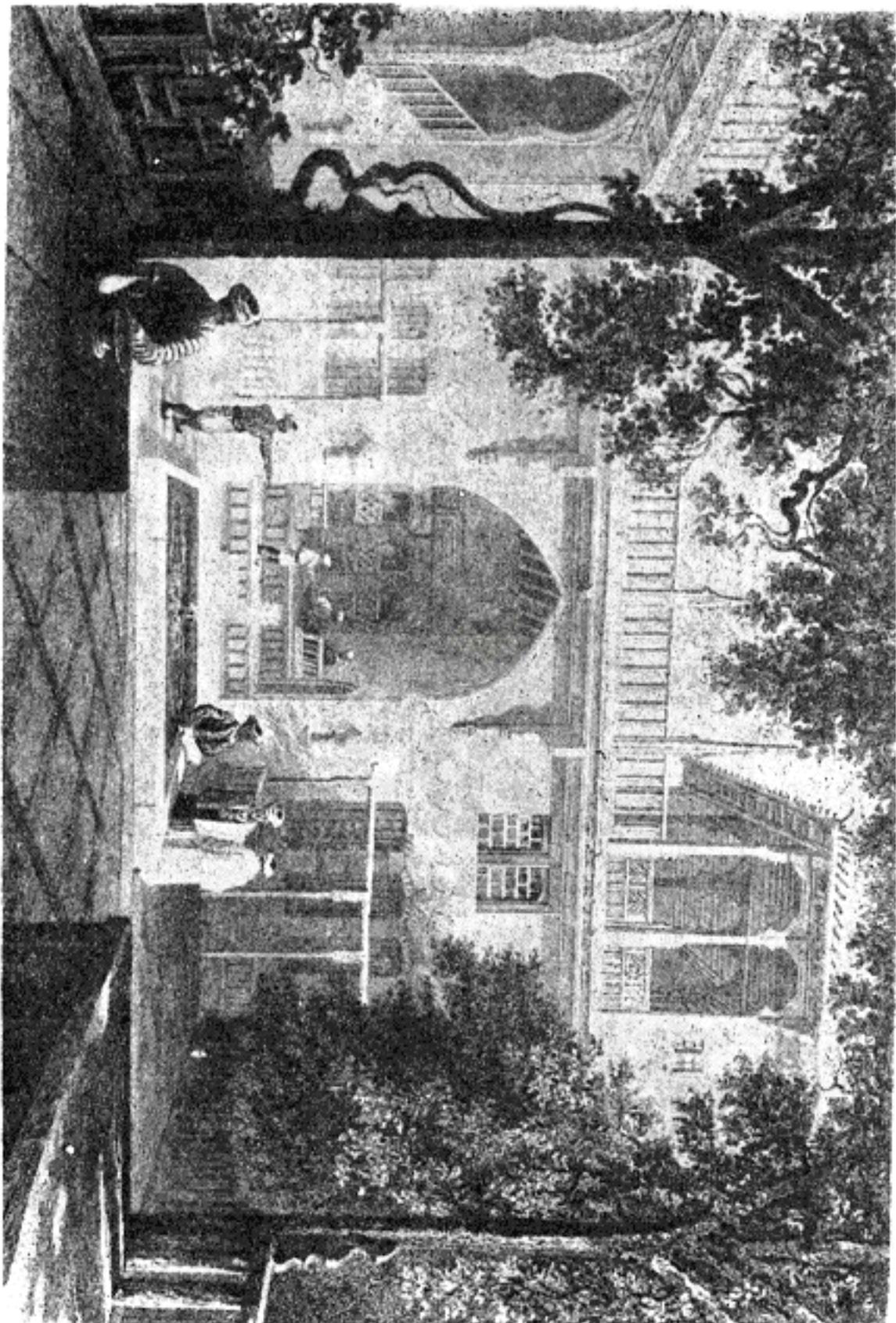
مدينة دمشق الحديثة - خارج الاسوار ويرى جبل قاسيون والصالحية
والمهاجرين .



مشهد مدينة حلب قبل عام ١٨٣٠ من التصوير الشعبي متاحف حماه



ضريح الشرقي في بادية الشام بناء هشام بن عبد الملك .



الفصل الثاني البيت الشامي

البيت الشامي

العمراء الشامية وبداية الاسلام

المساجد

المساكن

الحمامات

المدارس

الخانات

القصور الاموية

العمراء الشامية بين الاصالة والتحديث

استلم الامويون الخلافة الإسلامية عام ٦٦١ م ، وكان عليهم ان يجاهوا عالماً مهزوماً كان العرب قد انتصروا عليه ، وان يتخطوا بسرعة مستوى الحضاري فيقهروا بسرعة من ظروفهم البدائية التي كانوا عليها في الجزيرة الى ظروف حضرية راقية . ولقد أثبت العرب من خلال تقدمهم السريع أنهم امة سريعة التطور والنمو شديدة الطموح واسعة المقدرة ، فلم يستريحوا ويقنعوا بالحياة الرخيبة التي كانت عليها بلاد الشام وسواحل العراق ، بل اخذوا يباهون الواقع بمنجزات افضل ثم انطلقوا خارج هذه الحدود التي لم تكن سياستها وادارتها بالأمر السهل ، ومع ذلك استطاع معاوية ان يدير شؤون خلافة امتدت فشملت العراق والجزيرة والشام ومصر والمغرب العربي ، هذه الامصار التي مازال العرب اليوم وبعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة يطمحون الى اعادتها ووحدتها ، فوطد الحكم ووضع له مبادئ راسخة سار عليها من خلفه قادة العرب ، حتى اذا جاء مروان بن الحكم ٦٨٣ - ٧٠٥ وبخاصة ابنه عبد الملك ٧٠٥ - ٧٤٥ بلغت دولة الشام اوج عزها ومجدها في عهده وعهد ابناءه الخلفاء الاربعة ، فقد وصلت الدولة الإسلامية في عهد الوليد وهشام اقصى اتساعها ، فامتدت من شواطئ الاطلس وجبال البرقة غرباً ، الى نهر الاندلس وتحوم الصين شرقاً « وهو اتساع قل ان تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة الا الامبراطوريات البريطانية والروسية^(١) » .

(١) تاريخ العرب - حتى وجرجي وجبور ص ٢٧٠

ولقد كان على خلفاءبني أمية الذين حكموا هذه الامبراطورية الواسعة التي تكونت خلال خمسين سنة من الدعوة المحمدية ، ومن انطلاق العرب من جزيرتهم ، أن يعززوا سلطانهم في العاصمة دمشق ، وان يقيموا المنشآت التي تدل على عظمة الحكم المسيطر على هذه الرقعة الواسعة الارجاء . فاقامت قبة الصخرة في بيت المقدس والتي اعتبرت حرم الاسلام الثالث وهي بناء مثمن أقيم على صخرة مشرفة كان ابراهيم الخليل قد هم بذبح ابنه عليها ، فربانا فافتداه الله بكبس ، ثم هي الصخرة التي انطلق عليها الرسول محمد ممتطيا برافقه عارجا الى السماء .

ولقد أنشأ هذا المسجد عبدالملك بن مروان يحدوه في ذلك رغبة اقامة مسجد ضخم يليق بأهمية الاسلام وعظمة دولة العرب ويضاهي في بهائه وفخامته الكنائس التي كانت قائمة في سوريا وفلسطين^(٢)

كذلك أراد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥) ان يخص المسلمين بمسجد كبير ، فاتفق مع المسيحيين من اهل البلاد على الاستقلال بالمسجد الذي كان كنيسة قبل الفتح الاسلامي ثم استمر معبدا للمسلمين والمسيحيين حتى قرر الوليد ان يعيد بناء الجامع خلال عشر سنوات ، واشترك في بنائه المعماريون والنجارون من اهل البلاد ، واتفق عليه خراج سبع سنوات ، فأصبح الآبدة الاكثر تعبيرا عن عظمة العرب وروعه الاسلام واتساع سلطانه^(٣)

(٢) انظر دراستنا عن هذا المسجد في بحث القدس الشريف المنشور في مجلة الثقافة العربية عدد ٥/١٩٧٥

(٣) انظر دراستنا عن الجامع الاموي . مجلة الثقافة العربية العدد ١١/١٩٧٤

اما القصور الاموية التي انشئت على ارض الشام فقد كانت مقرًا للخليفة واساساً للعمارة التي اقامها الامويون لكي تصبح نواة الشخصية العربية في عمارة وفنون المستقبل .

المساجد

لقد تكونت العماره الاسلامية في بلاد الشام ، وسواء اكانت هذه العماره دينية ام مدنية فان العماره العربيه التي كانت منتشرة في جنوب الجزيره العربيه والتي تحدث عنها الهمданى لم تكن أساساً لهذه العماره . ومع ان مسجد الرسول في المدينة الذي اقيم عام (٦٢٢م) قد وضع مخطط المساجد فيما بعد ، الا انه كان على وجه الدقة مجرد سقifica أقيمت على طرف من اطراف الصحن ، وهي مبنية من الاغصان والطين مرتكزة على جذوع النخيل ، وهكذا فان هذا المسجد الاول لم يكن ليحمل اية صفة معمارية ، الا انه حدد المخطط الاول لمسجد المستقبل باجزائه الاساسية ، وهي الصحن الواسع جداً ، والحرم قاعة عريضة جداً وقليلة العمق ، اذ تحددت نسب ابعادها منطقياً مع نظام الصلوة الجماعية .

وقد أضيف الى الحرم المنبر والمحراب ، اما المنبر فلقد استعمل منذ عهد الرسول ، فقد كان النبي يخطب في الجمع على جذع في المسجد قائماً ، فقال له تميم الداري : الا اعلي لك منبراً كما رأيت يصنع في الشام^(٤) ؟ فأرسل الى آنلة في الغابة فقطعها ثم عمل منها ثلاثة درجات على نحو ما عرف من

(٤) ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٩-١٠

كنائس المسيحيين في الشام . ويرجع الى معاوية كما يقول ابن الفقيه ^(٥) ايجاد اول محراب ، ومن المؤكد ان معاوية نفسه كان اول من ادخل المقصورة .
الى المسجد ^(٦) .

ويعتبر المسجد الكبير في دمشق « اول نجاح معماري في الاسلام » . كما يقول سوفاجيه . وهو حلقة هامة تربط تقليد العمارة المسيحية الشامية . بعمارة اسلامية جديدة . ويقوم هذا المسجد في مكان مقدس من مدينة دمشق ، حيث كان معبد حدد الارامي منذ ثلاثة الاف سنة ، ثم انشئ معبد لجوبيتر في العهد الروماني مؤلف من سورين متوازيين يحيطان الهيكل (الناوس) . وفي القرن الرابع اقام الامبراطور تيودوس كنيسة القديس . يوحنا ضمن الصحن المحاط بالسور الداخلي . وعندما فتح المسلمون الشام . تقاسموا هذه الكنيسة مع المسيحيين الشاميين ، ثم اتفقوا على جعلها مسجداً مقابل تحصيص المسيحيين لكنيسة مستقلة ^(٧) .

وأصبح مدخل المعبد الوثني وهما باب جিرون وباب البريد ، مدخلين للمسجد يؤديان الى الصحن . وتحيط بهذا الصحن اروقة من أطرافه الثلاثة . ويقوم في الحرم في الطرف الرابع وهو يضم ثلاثة اجنحة تمتد موازية للجدار . القديم الجنوبي الذي يحدد القبلة ، وينقطع ترتيب هذه الاجنحة العرضانية . بجناح اوسط متند نحو العمق مشكلاً مصطبة تعلوها قبة عالية يطلق عليها اسم قبة النسر . ولقد اشرف الوليد بن عبد الملك عام (٧٠٥) على بناء هذا المسجد وتزيينه بالفسيفساء والرخام .

(٥) ص ١٠٩

(٦) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٧١

(٧) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٩١

وكان يرتفع على حافتي الجدار القبلي ، برجان مربعان يحملان الشكل التقليدي لابراج النواقيس الشامية ، فأعيد بناؤهما من أجل الأذان . ثم انشئ على شملهما مئذنة أقيمت في منتصف الواجهة الشمالية التي تحد الصحن وتحدد بذلك شكل المآذن الاولى في الشرق . ثم في المغرب كما يقول مارسيه^(٨) .

ولقد أصبح مسجد دمشق الكبير نموذجاً لأكثر المساجد ، كمسجد آمد (ديار بكر) ومسجد درعا^(٩) والمسجد الكبير في مدينة حلب ، بشكله القديم الذي كان عليه أيام الوليد الأول ، بالإضافة إلى مسجد حران الذي يرجع إلى عهد الخليفة الاموي مروان الثاني (٧٥٠-٧٤٤) والذي جعل من حران مقراً له دون دمشق ، كما أصبح أساساً لعمارة المساجد في المغرب العربي كله . وفي المدينة المنورة وسّع الوليد الأول عام (٧٠٨) مسجد الرسول ، ولقد قام المعماريون والمزخرفون الشاميون بهذا العمل الذي كان دون شك موافقاً لطراز المساجد الشامية كما يعتقد سو فاجيه^(١٠) .

ولقد أنشأ سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة في فلسطين^(١١) وأقام فيها قصره الذي تهدم نهائياً خلال الحرب العالمية الأولى ، وأقام مسجداً (٧١٧-٧٢٠م) اطلق عليه اسم المسجد الابيض وما زالت مئذنته قائمة حتى الان ، أعاد بناءها المالك .

وتعتبر مئذنة الرملة من أضخم الابراج الشرقية ، ولا يعدلها إلا مئذنة الجيرالدا في إشبيلية . ومن أهم المساجد التي أقامها الامويون خارج بلاد

(٨) انظر ج مارسيه الفن الاسلامي ، ترجمتنا ، دمشق ١٩٦٧ ص ٣٩.

(٩) وينسبه إيكوشار وسو فاجيه إلى العهد الاموي ، انظر : Sauvaget : La mosquée Omayyade de Médine, pp. 108-113.

(١٠) نفس المرجع

(١١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤٣

الشام مسجد القبروان الذي أنشأه اولا في عهد هشام (٧٢٨ م) أما مئذنته فهي صومعة قامت في منتصف القرن الثامن على انقاض مئذنة قديمة كانت كما يبدو مطابقة لابراج المسجد الكبير في دمشق ، وهذه الصومعة لا تخرج عن مفهوم الابراج السورية الا في ضخامتها التي تعدل مئذنة الرملة ومئذنة اشبيلية .

ولقد استند في تخطيط المسجد الكبير في قرطبة الذي جدد في عهد هشام (٧٢٨ م) ثم في عهد الاغالبة (٨٣٦ م) الى تخطيط المسجد الكبير في دمشق . كذلك كان الامر في تخطيط جامع الزيتونة في تونس الذي أنشأه عام (٧٣٢ م) .

وكانت هندسة المساجد قد انتقلت الى الاندلس مع الفاتحين من أهل الشام وغيرهم ، واخذت هذه المساجد كثيرا من الافكار التي كانت سائدة في جامع دمشق ، بل ان المحراب في جامع قرطبة وغيره من المساجد في الاندلس بقي متوجها نحو الجنوب كما هو شأن محاريب المساجد في الشام وذلك تقليدا لنظام هذه المساجد ، من ان القبلة كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي في تلك البلاد . وليس من شك ان المسجد الكبير في قرطبة الذي يشكل النواة الاولى لنشأة المدينة ، هو من ابرز الاوابد الاسلامية التي أقامها العرب من اهل الشام وغيرهم ، في الاندلس . ولعل هذا المسجد الذي يضاهي مسجد دمشق ، كان كنيسة مثله ، ثم استطاع عبدالرحمن الداخل ، وقد حصل على تنازل المسيحيين عن كنيستهم ، كما فعل الوليد في دمشق ، ان يقيم من شأته عام (٧٨٥ م) التي اعتبرت اساسا لتوسيعات كثيرة على امتداد هذا المسجد ، كما اصبحت اساسا للعمارة الاسلامية الجديدة في الغرب^(١٢) . ولقد كان مسجد قرطبة يضم حسب النسق الشامي حرما مسبوقا بصحن ،

(١٢) م.غ. مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ص ١٦ وما بعدها .

والحرم مؤلف من تسعه اجنحة مفطاة بجملونات ومتوجهة نحو العمق ، على خلاف جامع دمشق الذي اتجهت اجنبته الثلاثة عرضا ، ولعل ذلك بتأثير «بازيليكات المسيحية التي كانت سابقا في كلا المسجدين ٠

ولقد كانت الاقواس تستند على اعمدة مستعاره من ابنيه قديمة في المسجدين ، وكانت هذه الاقواس على طابقين ولا يقوم اي جدار بين صفی الاقواس مما جعل هذا النظام تطويرا لنظام الاقواس في جامع دمشق ، والتي كانت تطبقا لنظام اقواس قنطر الماء الرومانية على ما يedo ٠

وعندما وسّع خلفاء عبدالرحمن الداخل جامع قرطبة ، كان هم الحكم الثاني ان يجعل هذا المسجد في عام (٩٦١ م) بأروع الزخرفات الفسيفسائية تقليدا لمسجد دمشق ٠

ويمكن اعتبار قبة الصخرة التي ابتدأ بنائها الخليفة عبد الملك عام (٦٨٧) وانتهت عام (٦٩١) من اولى المنشآت الاسلامية في بلاد الشام ، وهي لهذا السبب تحمل الى حد بعيد طراز وشكل العمارة المسيحية التي كانت سائدة في سوريا مثل كاتدرائية بصرى (٥١٢) وكنيسة ازرع (٥١٥) ، ومن الداخل تبقى قريبة الصلة ايضا من نظام العمارة الشامي المسيحي باعمدتها وتيجانها وكسوة جدرانها بالرخام ٠

ولقد اوضح كرزويل مصدر عماره قبة الصخرة في القدس وقارن بين مخطط هذه القبة الثمانى وبين مخطط كاتدرائية بصرى الشام والتي كان بوتلر Butler قد قام بدراساتها مؤكدا مخططها الثمانى ونافيا السرأي بمخططها الدائري (١٢) ٠

وقبة الصخرة كما يذكر اليعقوبي ، أنشأها عبد الملك بن مروان (للاستعاذه عن الكعبة بسبب ثورة ابن الزبير في الحجاز عام ٦٨٠) وهكذا

(١٢) Creswell (K.A.C.) Early Muslim architecture, pp. 72-73.

لم تكن مسجداً بالمعنى المألوف ، بل قبة كما نقش على افريزها ، واستعملت
للصلوة ولكن دون ان يكون لها مئذنة^(١٤) .

ان تغطية المنشآت الاسلامية بالقباب واقامة المساند على اقواس او عقود
هو تقليد محلي قديم يرجع الى عهد الراقدین الذين كانوا اول من ابتكر
هذا النوع من التغطية والذي اقتضاه عدم توفر الحجارة الضخمة وضرورة
ارتفاع السقوف والاروقة لتخفيض وطأة الجو الحار . وما زالت البيوت
القروية في شمال سوريا مغطاة بقباب بنفس الطريقة التي كان الاولى يتبعونها .

ولقد برع اهل الشام باقامة الاقواس والقباب في العهود الكلاسيكية
وكان منهم مختصون تولوا نقل هذه الطريقة في التغطية الى الابنية الرومانية
حتى ان قبة الباتييون في مدينة روما أشرف على اعادة انشائها في القرن
الثاني معمار شامي مختص بالقباب ، واستمر هذا التقليد ساريا في الابنية
البيزنطية ، ثم تبنته المنشآت الاسلامية وخاصة في بناء المساجد والاضرحة
والمدارس . وتعتبر قبة الصخرة (٦٩١ م) من اقدم نماذج القباب الاسلامية
الي جانب قبة حمام قصير عمره التي ترجع الى عام (٧١٤) تقريباً . والشيء
المجدي في تطور القباب التي انتقلت عن التقليد الراقي ، هو طريقة وصل
القبة بالجدران المربعة ، ولقد تم ذلك عن طريق م-curves مثلثية او عن طريق
الاركان .

المساكن

والشكل المعماري للمساكن والقصور التي ظهرت في بداية الاسلام
هو تطبيق للتقليد المعماري المحلي الذي اقتضته ولاشك تقاليد الحياة
الاجتماعية المحافظة والمغلقة ، والظروف المناخية القاسية احياناً ، ولقد كان

(١٤) انظر بحثنا عن قبة الصخرة في مجلة المهندس العربي العدد ٢٣ عام ١٩٧٠

نظام العمارة المدنية مستمراً في بلاد الشام حتى في العهود الكلاسيكية حيث نراه
واضحاً في تقسيم المنازل الرومانية إلى قسمين رئيسيين ، الatrium Atrium
و فيه ممر وفناء حول غرف المكتب والاستقبال والقسم الثاني يسمى Peristylion
و فيه غرف النوم والطعام والغرف الخاصة . وتحيط الغرف
بفناء لترطيب الجو .

ان أكثر المساكن الأثرية في بلاد الشام ترجع في الواقع إلى العهد
العثماني ، ونادرًا ما نجد بيتاً يرجع إلى قبل هذا التاريخ الا اذا استثنينا بعضها
منها كالمدرسة الظاهرية التي كانت بيتاً لوالد السلطان صلاح الدين الايوبي
في دمشق .

ومع ذلك فان نظام عمارتة القصور والبيوت السكنية في بلاد الشام
استمر مشابهاً لنظام عمارتة القصور منذ العهد الاموي ، ويوضح ذلك
بمقارنة ما كشفت عنه الدراسات والحفريات في قصور الامويين في الشام ،
مع مائراته ماثلاً حتى الان في الشام وفي الاندلس من بيوت مأخوذة في طرازها
ونظام عمارتها عن تقاليد من عمارتة المنازل الشامية الاموية ، مع مأخذيف
اليها من زيادات ، أصبحت اساسية في نظام العمارتة الشامية .

وأصبحت هذه البيوت تتألف من أقسام تقليدية لابد ان توجد في
اكثرها ، وهي الدهلiz الطويل والباحة السماوية ، الایوان ، القاعات
الشتوية في الجهة الشمالية من الباحة وذلك لتكون معرضة لأشعة الشمس
والقاعات الصيفية ذات الفسيفات المائية وهي تقع في الجهة الجنوبية ذات
سقوف عالية لتخفييف الحر وتؤمن الجو الرطب . ويفصل البيت الشامي
إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ - القسم الخارجي و فيه مركز الحارس والسائل ويلحق بهذا القسم
الاطيبل .

٢ - القسم الأوسط وهو القسم الرئيسي في المسكن ويتضمن القاعات
الهامة المعدة للاستقبال والجلوس .

٣ - القسم الثالث وهو الخاص بالحرير .

الحمامات

اما بناء الحمامات في العهد الاسلامي ، فلقد بقي استمراً لتقالييد فن
عمارة الحمامات في الشام ، والذي كان سائداً منذ بداية العصر الهنستي
ثم ازدهر في العصر الروماني حيث نرى آثاره في أنطاكية مثل حمامات
كاليعولا وهادريان وانطونيان ، وفي حمامات أقاميا ، وتدمير وفي بصرى وشها
وتتألف هذه الحمامات عادة من ثلاثة أقسام ، القسم البارد Frigidarium
والقسم المعتدل Tepidarium والقسم الحار Caldarium ويفاصل هذا التقسيم
في الحمامات الاسلامية البرانى ، وهو القسم البارد ، والوسطاني ويفاصل
القسم المعتدل ، والجوانى وهو القسم الحار . اما القيم اي بيت النار فهو
فهو نفسه المسمى Hypocauste الذي يسخن مياه الحمام المنتشرة بواسطة
أنابيب فخارية او حجرية بين اجزاء الحمام .

ان أقدم حمام اسلامي انشئ في بلاد الشام هو حمام قصير عمره
الذى مايزال قائما حتى الان دون بقية القصر قرب البحر الميت وعلى بعد
خمسين ميلا من عمان ، وكان موزيل Musil قد اكتشفه عام 1898 وهو
مؤلف من قاعة ذات ثلاثة اجنحة تنتهي بقاعة تحاذيبها على الجانبين مقصورة تان
ذات قادمتين واضحتين من الخارج ، وتنفتح القاعة الى اليسار (اي من
الشرق) على غرفتين ، اما الجنوبية فهي مغطاة بقبوته مهدية والثانية مغطاة
بقبوته متقطعة . وتنفتح هذه القاعة من الشرق ايضا على قاعة ثلاثة ذات قبة
ولها مقصورتان وتتصل هذه القاعة بدھلیز الى قاعة كبيرة يبدو انها لم تكن
قد اكتملت بعد .

ويشكل هذا الحمام حلقة مستقلة من نشوء الحمامات الشامية ، ذلك ان التقسيم الروماني يكاد يكون مطابقا في هذا الحمام ، فهو مؤلف من قاعة واسعة لخلع الملابس وثلاث قاعات للاستحمام ، الباردة والدافئة والحارة وهذه القاعة مجهزة بانابيب البخار . الا ان ثمة شخصية جديدة محلية لبناء الحمامات تأخذ مكانها بالظهور مستمدة في مظهرها الخارجي من النظام الراافي الاصيل .

ويشبه حمامات قصير عمره الى حد كبير حمام اخر يسمى حمام الصرخ ويقع على بعد (٢٠) كيلومترا شمالي عمان ، وكان قد كشفه بتلر Builer عام ١٩٠٥ . وما لاشك فيه ان اكثر القصور الاموية كانت ولاشك تحوي حمامات مماثلة مثل قصر المفجر حيث زينت ارض احدى مقاصيره باروع الفسيفساء الذي يمثل اسدا ينقض على غزال تحت شجرة تفاح وارفة ينعم تحتها ، في الطرف الثاني ، غزالان آمنان .

وفي قصر الحمراء نموذج لحمام يرجع الى القرن الرابع عشر وهو يتالف من نفس العناصر التي رأيناها في حمامات الشام ، أي من القسم البارد والدافئ ثم القسم الحار وهو مؤلف من مقصورات ، وتغطي الحمام قباب يتسرب النور فيها من خلال فتحات صغيرة عبر القبوات . أما قاعة الاستراحة فهي المكان المخصص لتربيبات جدارية غنية ، شأنها في ذلك شأن حمامات الشام .

ولقد انتشرت الحمامات في بلاد الشام اتسارا واسعا بعد الاسلام ، كما كان الامر قبل الاسلام ايضا ، وما زالت الحمامات الاسلامية قائما اكثرا حتى اليوم وبعضها كان آية فن العمارة والزخرفة واصول توزيع المياه (١٥)

(١٥) للتوسيع ، راجع :

Sauvaget : Rapport sur les monuments historiques de Damas
وانظر الغزي في نهر الذهب ج ٢ ، وانظر ابن شداد في الاعداق الخطيرة

المدارس :

اما المستشفيات والمدارس فقد كان الوليد ابن عبد الله اول ملك في العصور الوسطى شيد المدارس والمستشفيات للمصابين بالأمراض المزمنة . ولقد كانت مأوى المصابين بالأمراض الخبيثة . وفي أوربا بعد ذلك كانت تقليدا سبقتها اليه البلدان الإسلامية .

على ان المدرسة كمنشأة معمارية لم تنشر في بلاد الشام الا منذ عهد السلاجقة فيما كانت قد ظهرت في بغداد منذ النصف الثاني للقرن العادى عشر ، واز ما يبقى منها انما يرجع الى عهد السلاجقة أتقنهم وخاصة المدرسة النظامية التي انشأها نظام الملك في بغداد ، التي تكاد تكون اشبه بالجامعة وتخضع لنظام معماري مختلف عما ظهر في دمشق .

ان ترتيب المدارس الشامية على اختلاف اشكاله يبقى متقاربا ، فهي مؤلفة من قاعات للتدريس وحجرات للاساتذة والطلاب ومن مصلى وميضاة وقد تتضمن مدفنا مقبلا لنشيء المدرسة ، كما تتضمن ايوانا لممارسة التدريس في الهواء الطلق أيام الصيف ، والمدرسة الصاجة^(١٦) . التي انشئت في دمشق بين عام ١٢٣٣ وعام ١٢٤٥ تحصل الشكل التقليدي لعمارة المدارس في بلاد الشام ، وهي مؤلفة من دهليز يقع على محور الجبهة ، يؤدي الى الصحن المربع وينفتح من الطرفين ايوانا ، كما يقوم في الصدر ايوان ذو محراب ، ويشغل الزاويتين الاماميتين المدفن من جهة ، والميضاة من جهة اخرى . وما زالت آثار المدارس الشامية قائمة في بلاد الشام من مختلف العهود^(١٧)

(١٦) ما زالت المدرسة قائمة في دمشق (حي ابي جرش) وهي من الابنية الاثرية المسجلة تحت رقم ٦٦ .

(١٧) انظر التعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، وابن شداد والغزي : للتتوسيع في معرفة المدارس في دمشق وحلب

واستمرت تقاليد عمارة المدارس في بلاد الشام قائمة في عهد الامويين .
ثم في عهد المماليك ونرى في دمشق من عهد نور الدين المدرسة النورية بقبتها
المقنسة والمدرسة العادلية الكبرى التي بناها الملك العادل الايوبي، ومدرسة
بني العجمي في حلب التي أنشئت عام ٥٩٠هـ وتسمى اليوم جامع أبي ذر .

ولقد ظهر في بلاد الشام وفي العهد الملوكي ولأول مرة نظام المدارس
المصلبة وذلك بافتتاح اربعة او اربعين على صحن المدرسة الداخلي لتسهيل
تدريس الفقه حسب المذاهب الاربعة . ولقد انتشر هذا الشكل المصلب فيما
بعد في المدارس المصرية التي كانت تستعمل قبل مسكن خاصة كثيرا
ما كانت تحول الى مدارس .

الخانات :

ولعل أقدم خان انشيء في العهد الاسلامي هو الخان الذي بناه هشام
ابن عبدالملك سنة ٧٣٨ على مقربة من قصر الحير الغربي ، ولم يبق من هذا
الخان الا بوابته الحجرية الضخمة التي اعيد بناؤها في متحف دمشق ، وقد
 نقش على ساكنها كتابة بالخط الكوفي تبين اسم المعمار (ثابت بن ابي ثابت)
وتاريخ البناء رجب سنة تسع و مائة .

القصور الاموية

كانت دمشق العاصمة في عهد الامويين مؤلفة من احياء وحارات تضم
بيوتا مغلقة يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة وفيه أشجار البرتقال
والنارنج وأزهار الياسمين والورد ، وحول الفناء غرف ينفتح أمامها رواق
في المنازل الكبرى . ولقد نظم الامويون في دمشق طريقة اروائها من نهر بردى
وما زال اسم يزيد بن معاوية مرتبطا باحد الاقنies وهي فرع من فروع بردى
السبعة . ولكن مما لا شك فيه ان الخلفاء الاوائل الذين تربعوا على عرش

هذه الامبراطورية الواسعة كانوا قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم الى الصحراء ، فكانت اكثراً منازلهم وقصورهم تقع بعيداً عن العاصمة تأخذ اشكالاً بسيطة او مركبة بحسب الظروف الجغرافية للمنطقة او السياسية التي خضع اليها الخليفة^(١٨) .

وإذا كان قصر معاوية في دمشق هو اول قصر اموي في بلاد الشام فان علاقه عرب الحجاز القوية مع بلاد الشام ، وخاصة في مجال التجارة التي تولاها منذ قبل الاسلام بنو أمية الذين ارتبطوا بالقبائل العربية الموجودة في بادية الشام وتعاونوا معها ، أدت الى قيام بعضهم بتشييد المنشآت الثابتة فاشترى ابو سفيان والد معاوية ضيعة في البلقاء يقال لها « بقنس »

ثم كان معاوية بن ابي سفيان اول من انشأ في دمشق قصراً منذ ان كان والياً على الشام واستمر قصر معاوية يتوارثه خلفاء الامويون . بل ان عبد الملك بن مروان اشتري من خالد بن يزيد بن معاوية هذا القصر الذي سمي بدار الامارة كما يروي ابن عساكر . وكان الثمن اربعين الف دينار واربع ضياع بأربعة أجناد من الشام^(١٩) .

ثم تابع خلفاء بنى امية اقامة القصور في بلاد الشام ، ولقد وضع الاب لامنس Lammens وهيرزفيلد Herzfeld قائمة بدور الامويين الصحراوية كما عدد سوفاجه Sauvaget ثلاثة قصراً اموياً .

مخطط القصور

تقوم القصور الاموية وفق مخطط مشابه وشكل معماري موحد يقوم على مبدأ السور المحيط والصحن الداخلي الذي تشرف عليه أروقة تعقبها غرف في طابق او طابقين ، ويأخذ السور الخارجي طابقاً حصيناً بعيداً

Lammens, La Badia et la Hira Le siècle des Omeyyades, (١٨) 1930, p. 101.

(١٩) تاريخ دمشق ١٢٢/٢

عن الفتحات والزخارف . ومع ذلك فان الابراج لم تكن ضرورية لوظيفة الدفاع والتحصين اذ أن الbadية كانت آمنة دائماً بل ان سكانها كانوا موالين وانصاراً للامويين الذين ما زالوا يعنون للحياة البدوية .

ومن الممكن ان تكون الابراج لتدعيم الاسوار من جهة ولا ظهار البناء بظهور المنعة والقوة .

ولقد اختلفت الاراء في تحديد مصادر استيعاب الشكل المعماري للقصر الاموي ، فمن قائل أنها قرية الشبه بالطراز الهلنستي والبيزنطي الذي تجلى في دير الكهف وقلعة عتر والاندريلن . او بانطراز الساساني . او انها مستمدة من المنشآت التي أقامها العرب الاولى في الحيرة وهم المنادرة الذين اقاموا الخورنق والسدير . فلقد تحدث هنري ستبرن^(٢٠) عن اصول حيرية في طراز العمارة الاسلامية^(٢١) .

وعدا العادات والتقاليد وطابع المحافظة على حرمة الحياة العائلية ، تأتي الضرورات الجغرافية التي اوجبت اقامة الصحن والاروقة اذ ليس يسع المرء ان يزهو بالتمتع بمناخ قليل القساوة وسماء معدومة الضباب مشعة في غالب الأحيان : تحض على الحياة في الهواء الطلق^(٢٢) .

نخلص من هذه الاراء الى القول ان فن العمارة الاموي هو فن اصيل نشأ عن تقاليد الحياة العربية ، ووفق الظروف المناخية القاسية وبالمواد المتاحة المنسجمة مع هذه الظروف والتقاليد واستعار متمنتنا في عمارته ما انتقاها من تقاليد زخرفية ومعمارية شائعة ، رومانية او ساسانية او بيزنطية .

H. Stern, Ars Isl., p. 83-4.

(٢٠)

(٢١) مروج الذهب ج ٤ ص ٣٦٩

(٢٢) نفس المرجع ص ٨

بل من الصواب ان نلاحظ ان الفن الهنستي وبخاصة الفنون التي اشتقت عنه ، قد اخذت قسما من خصائصها من الشرق كما أنها تشربت بالتقاليد الشرقية . « فالفن البيزنطي مدين لآسيا اكثر بكثير مما يدين بلاد الاغريق ، وليس من قبيل المصادفة المضرة ان يكون المعماران الذيان شيئا سانت صوفيا هما من مواليد الضفة الآسيوية ، وكان على القسطنطينية ان تشع على العالم كله فن الامبراطورية »^(٢٣)

أما عن الفنون الزخرفية فلقد اوضحت القصور الاموية . وبخاصة قصر العير الغربي وقصير عمره وقصر المفترء ، على ان الفن التباهي لم يكن مسؤولا او محرا بل على العكس لقد وضع الامويون تقاليد فن تباهي هو في الواقع استمرار لتقاليد الفن العربي منذ الرافديين^(٢٤) ولقد انسجمت تلك الرسوم بمواضيعها مع الحياة الوادعة الناعمة التي كان يعيشها الامويون في اوقات فراغهم وراحتهم .

على ان ايّا من الخلفاء الذين جاؤوا بعد الوليد ، لم يقم في دمشق بصفة متواصلة ، بل أقاموا في قصور تقع على تخوم الباشية قريبا من الاراضي الزراعية وذلك للأسباب التالية مجتمعة^(٢٥) .

١ - عدم الفهم التام لحياة المدينة التي كانت متأثرة بالحضارة السالفة ، مزدحمة مرهقة .

٢ - توالي الوبئـة والامراض على دمشق^(٢٦) .

(٢٣) نفس المرجع ص ٢٣

(٢٤) انظر كتابنا الفن والقومية ص ٦٧ وانظر كتابنا الاسس النظرية للفن العربي ص ٧٨ وما بعدها

Lammens, op. cit., p. 94

(٢٥) انظر

Lammens, op. cit., p. 96

(٢٦) انظر

٣ - رغبة الخلفاء في التقرب من اهل الbadia و هي القبائل العربية التي تربطها بال الخليفة روابط العشيرة أو العادات ، ويسعى الخليفة عادة لكتابتهم في الملمسات .

٤ - سعي الخلفاء الى الهدوء والراحة في الاماكن الخلوية حيث يمارسون الصيد والتنفس ثم يلتجأون الى قصور ظليلة ينعمون فيها بالاستحمام بعد يوم قائف شاق يقضونه في مطاردة الهوام والطيور (٢٧) .

٥ - كانت الbadia مدرسة للامراء الامويين يتكلمون العربية الفالصة من الهجنة او الرطانة الارامية كما يقول ابن عبد ربه .

قصر معاوية - الخضراء

وموقع القصر كما يحدده الزميل الاستاذ الريحاوي (٢٨) في المكان المحاذي لجدار الجامع الاموي من الجهة الجنوبية ، ولقد كان القصر يتصل بحرم الجامع من خلال باب كان يطلق عليه اسم باب الخضراء وهو في الاصل احد الفتحات الثلاثة لمعبد جوبير .

ويعتبر قصر معاوية اول قصر عربي يشاد في بلاد الشام ، ولقد اصبه الغراب بعد زوال الامويين من الشام ، ثم التهمته النار في اواخر عهد الفاطميين كما يروي ابن كثير الذي يذكر « القيت نار بدار الملك وهي الخضراء المتاخمة للجامع من جهة القبلة فاحتقرت (٢٩) » .

ويضيف ابن كثير « وبادت الخضراء فصارت كوما من تراب بعدهما كانت في غاية الاحكام والاتقان وطيب الغناء ونزة المجلس ، وحسن المنظر (٣٠) »

(٢٧) انظر Lammens, op. cit., p. 100

(٢٨) عبدالقادر رححاوي . قصور الحكماء في دمشق - الحوليات الاثرية السورية المجلد ٢٢ ص ٢٤

(٢٩) البداية والنهاية ٩٧/١٢

(٣٠) نفس المرجع ٩٣/١٢

وبقيت المنطقة التي كان فيها القصر تحمل اسم الخضراء . حتى اقيم على جزء منها عام ١٧٤٩ قصر العظم الذي مازال حتى الان مستعملا كمتحف للتقاليد الشعبية . وتعجى التقنيات حاليا في تلك المنطقة للتتعرف على آثار الخضراء .

وهكذا فاننا لا نعرف عن هذا القصر الا الملامح التالية :

- ١ - موقعه المؤكد الذي سبق عرضه
- ٢ - قبته الخضراء التي شملت تسميتها القصر والمنطقة
- ٣ - قيامه المحتمل على قصر انشيء قبل الاسلام
- ٤ - مادة بنائه ، وهي الحجر .

الوليد بن عبد الملك وعهد الانشاء

كان عهد الوليد بن عبد الملك عهد رخاء وأمن ، وكان أكثر الخلفاء الامويين اهتماما باقامة المنشآت ، وكان ولعه بالبناء عظيما بحيث كان اذا التقى الناس في المجالس بدمشق يتذاكرون في امر الابنية والمعمارات .

فلقد وسع الوليد المسجد الحرام بمكة كما يروي البلاذري وحمل اليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء ، كما رمم مسجد المدينة وابتدى في الشام المدارس والجوامع ووقف المال لبيوت البرص والعرج والعمي^(٣١) . ومن اروع منجزاته الجامع الكبير في دمشق الذي كان موقع كنيسة القديس يوحنا المعمدان ولا يزال هذا المسجد قائما حتى اليوم ، ومن أهم مخلفات هذا الحكم العظيم قصبه عمره في الاردن الشهير بزخارفه الرائعة ، وقصر المنية (خربة المنية) قرب بحيرة الناصرة ، وقصر العزانة في الاردن ، وقصر أسيس في جنوبى شرقى دمشق ، وحمام الصرح ، ولعله أقام في قصر الحلبات حيث انشأ مسجدا الى جانب القصر الرومانى .

(٣١) الطبرى ج ٢ ص ١٢٧١

ويذكر الاصفهاني ان الوليد بن عبد الملك أقام في البخراء^(٣٢) كما اقام في أبياير^(٣٣) كما يذكر ابن الاثير^(٣٤) ان الوليد أقام في دير مران ومات فيها .

قصير عمره

اكتشف عام ١٨٩٨ العالم الواموزيل Ilio Muzil قصير عمره الذي يقع على بعد حوالي خمسين كيلومترا الى الغرب من الرأس الشمالي للبحر الميت . وهو يتالف من حمام ومنزل يرجعان الى العصر الاموي وعلى التحديد الى عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) سادس الخلفاء الامويين ويحيط بالقصر سور بطول خمسين مترا وعرض خمس وعشرين مترا ، ويضم غرفا ومخازن واسطبلات . وعلى مسافة قليلة من هذا المقر الكبير بناء حمام لم يزل في حالة مقبولة ، ولقد درس هذا البناء دراسة موسعة وهو يشبه الحمامات التي كانت معروفة في هذه المنطقة منذ عهد الرومان ، وهذا الحمام مؤلف من قاعة واسعة مخصصة لخلع الملابس وقرب منها مقصورتان ثم تأتي القاعة الباردة ، والقاعة العاترة ثم القاعة الحارة وهي مجهزة بانايب البخار ولقد استدل على تاريخ بناء هذا القصر من خلال صورة الملك الستة اذ ان احدهم وهو امبراطور بيزنطة كتب فوقه اسم قسطنطين وهو الامبراطور الذي كان يعاصر عبد الملك . وثمة صورة اخرى كتب فوقها

(٣٢) الاغاني ج ٢ ص ٦٣ والبخراء موقع في بادية الشام بين تدمر ودمشق كان فيها قصر النعمان بن بشير الانصاري .

(٣٣) الاغاني ج ٢ ص ١٠٤ واباير موقع في البلقاء ولقد زاره فيما ابن ميادة وانشده :

لعمرك اني نازل باباير لصوار مشتاق وان كنت مكرما
أبيت كاني ارق العين ساهر اذا بات اصحابي من الليل نوما

(٣٤) الكامل ج ٥ ص ٣ وتقع دير مران في ضواحي دمشق على سفح جبل الربوة

روذريق الذي حكم لسنة واحدة وقتل في احدى المعارك مع الجيوش الاموية عام ٧١١ م . ولكن الرسوم ترجع على الغالب الى عهد هشام (٧٤٣-٧٤) وذلك استدلاً من كتابة عشر عليها موجهة الى احد افراد الاسرة الحاكمة . وهكذا فان هذا القصر قد بدأ بعمارته عام ٧١١ واستمرت زخرفته وزياقاته حتى عهد هشام .

قصر عنجر

قام الامير موريس شهاب ، مدير الاثار العام في لبنان باعماله التنقيبة هناك خلال السنتين^(٢٥) ، وتأكد من هوية البناء الاموية ، وان كانت المنطقة في العهد الروماني مأهولة ولقد عثر على اثار معبد في مجلد عنجر (= ٥٠٠ من عنجر) .

وتقع عنجر في متصف الطريق بين دمشق وبيروت ، ولقد ذكرها ياقوت (عين العجر)

ولقد تبين^(٢٦) ان عبدالملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) كان كثيرا ما ينقل اقامته حسب اختلاف الفصول ، فلقد انتقل من الصنبرة الى العجایة الى دمشق وبعلبك ، ولقد تابع ابنه الوليد هذا التنقل ثم جاء الخلفاء بعده فتوسعوا بإنشاء القصور في الأردن وفلسطين ، لذلك يعتقد موريس شهاب ان هذا القصر انشئ في عهد عبدالملك او في عهد ابنه الوليد ويؤيد ذلك ماذكره بروك Brooks من خلال كتابات سريانية ان الوليد بن عبدالملك بنى مدينة اسمها In Gero (عنجر)

M. chehab : The Umayyad Palase at Anjar Ars Or. V. 5 (٢٥)
1983 p. 17.

Janssen et Sauvignac : Mission Archéologique en Arabie, (٢٦)
V. 3, 1922; p. 110.

ويتألف موقع عنجر من سور كبير يشمل ارضاً واسعة طول ضلعه ٣٧٥×٣١٠ م وسمك السور متراً . ويidعم هذا السور ثمانية ابراج في الجهة الشمالية ومثلها في الجنوبية وعشرة ابراج في كل من الجهاتين الشرقية والغربية وذلك عدا الابراج الدائريه الواقعة في الروايا الاربعة وينفتح في منتصف كل جدار باب محاط باثنين من الابراج وعرض الباب (٣٠٨ رم) وفي جهتي الباب الغربي عشر على كتابة كوفية منقوشه .

ولقد تمكن الاستاذ شهاب من تحديد مساحة هذه المدينة ١١٤ الف م^٢ وميلانها ١٣ م واقنطتها وشوارعها المتقطعة وان يحدد موقع القصر في الجهة الشرقية وموقع الحمام في الجهة الشمالية ويتألف القصر الذي تبلغ ابعاده ٦٧×٦٥ م تقريباً من قسمين متشابهين وهو مبني من العجر المنحوت وبعد ارتفاع معين توجد مداميك متناوية من الاجر تشبه قبة الخزنة في صحن الجامع الكبير في دمشق ، وفي بعض أجزاء القصر المفجّر . وللقصر مدخلان واحد من الشرق واخر من الغرب ما زالت زخارفه قائمة والى جانبه حنية مزخرفة بكمالها . ويتصل البابان بالفناء برواق ذي اعمدة وأقبية ينفتح على غرف مجاورة وشبها بأكثر قصور الاموين وخاصة قصر الحير الغربي والمفجّر ، فان قسماً هذا القصر يفتحان على فناء محاط باروقة ذات اقواس في طابقين وخلفهما مجموعات متداخلة من الغرف تشبه مجموعات قصر المفجّر .

ويبدو من بعض الاقواس والتيجان أنها رومانية أعيد استعمالها ولقد زينت الاقواس بشرط زخفي ، وتبدو واجهة الغرف الشمالية ، وقد أعيد ترميمها أنها مئلقة من قسمين ، الارضي وقد انفتح فيه باب ذو اسکفة يعلوها فتحة مقوسة ، وعلى طرفي الباب تقوم غرف عالية مقوسة يربط بينها افريز مزخرف واحد مندمج مع افريز اقواس النواخذة وهذه الزخرفة مشابهة مع زخارف الباب وهي اوراق نباتية محورة او اوراق ثلاثية العنبيات .

ان جميع الزخرفة تشكل وحدة أصبحت فيما بعد اساساً للزخرفة العربية
الاسلامية وخاصة في قصر العير الغربي والمفجر •

قصر الحرانة

من بين جميع القصور الاموية يبقى قصر الحرانة الوحيد الذي انشئه،
كما يبدو من عمارته ، لأغراض دفاعية ، فهو قصر محصن انشئ في بادية
الأردن في موقع كان ولاشك موجوداً كحصن منذ عهد الرومان • وقصر
الحرانة نفسه كان قد نسبه بتلر لما قبل الاسلام ولكن يمكن نسبته الى العهد
الاسلامي الاول ودليل ذلك الكتابة الكوفية الملونة التي عثر عليها فوق
باب احدى حجرات الطابق الثاني من الجهة الغربية ، وهي تحمل تاريخ
سنة ٩٦٢ هـ أي ٧١١ م وهو عهد الوليد الاول (*)

ويتألف هذا البناء الذي مازال ماثلاً بحالة جيدة من سور مربع ٣٠ م
تقريباً ذي ابراج دائيرية في زواياها الاربعة ، أما في منتصف اضلاعه فيوجد
ابراج نصف دائيرية ، ويبدو المدخل في الجهة الجنوبية وفي طرفيه برجان
نصفاً دائريين ، ويفتح من خلال سر طويل على الصحن المحاط بغرف في
طابقين ، وعلى طرفي الممر غرف ذات عقود واقواس كانت تستعمل اسطبلات
وعلى طرفي القناة الداخلي سلمان يؤديان الى الطابق العلوي ويحيط بالفناء
ثمانية اعمدة مربعة كانت تقوم فوقها شرفة • ويتألف مخطط الطابق السفلي
من ثلاث حجرات رئيسية في كل طرف من الاطراف الثلاثة تحيط بها غرف
اقل مساحة • ويمثل مخطط الطابق الاول فيما عدا غرفة أساسية عوضاً
عن المدخل الجنوبي في الطابق الارضي • وأكثر الحجرات معدومة الزخرفة
وتغطى بسقوف معقوفة فوق اقواس ولكن بعض الغرف تعلوها قباب ، بعضها
مزداناً بصور كبيرة من الملاط المحفور او معجون المرمر ، ويبلغ مجموع عدد

* انظر هاردنغ نفس المرجع ص ١٩٣

غرف هذا القصر ستين غرفة ، ويأخذ القصر من الخارج طابع العمارة الراfdية ولقد أطلق على هذا القصر خطأ اسم الخزانة كترجمة للتسمية الأجنبية Khorana والواقع ان التسمية الصحيحة هي الخزانة نسبة الى الحرة .

حمام الصرح

ومن الابنية الاموية التي تعود الى عهد الامويين الاول وقد ترجع الى عام ٧٢٥ - ٦٣١ (٣٧) أي الى عهد هشام . وهو موقع صغير انشيء كي يكون منطلقا لرحلات الصيد الخاصة بال الخليفة ولقد ضم هذا القصر حماما وعرف هذا البناء دائما باسم حمام الصرح ويشبه بناء هذا الحمام في مخططه وطرازه بنائه بناء حمام قصير عمره ، ولقد كانت جدرانه مغطاة ايضا بالصور الملونة لم يبق منها الا اثار ضئيلة . ومع ان دراسة القصر غير ممكنة ، فان الحمام يبدو بوضوح حتى انه من المعتقد ان هذا الحمام اقيم فقط دون اي مقر اخر .

ولقد قام بتلر Batler عام ١٩٠٥ وعام ١٩٠٩ بزيارة هذا الموقع ثم قام كريزول (عام ١٩٢٤ وبعده) بزيارة ووصفه (٣٨) .

ويقسم هذا الحمام ، شأن حمام قصير عمره الى قسمين ، مستطيل يؤلف قاعة الاستقبال مع القسم متصلة بغرفتين جانبتين والثالثة مغطاة بقبرات عالية وتستمر هاتان الغرفتان رغم القاطع بمحاذاة قاعة الاستقبال .

والى الشمال الشرقي من هذا القسم يقع القسم الثاني المؤلف من الحمام المؤلف من ثلاثة غرف صغيرة ، اثنان ذات قبور و الثالثة ذات قبة محززة من الداخل كما هو الامر في قصير عمره مما يعطي الحمام الطابع الراfdي . تحاذيهما من الجانبين نصفا قبتيين يعطيان امتداد الغرفة طولا نيا .

(٣٧) Creswell; E. M. A. p. 276.

(٣٨) نفس المرجع ص ٢٥٤

وتعتبر الغرفة الشمالية غرفة باردة والجنوبية غرفة فاتحة أما الغرفة المقببة فهي غرفة حارة وجدران هذا القسم شديدة السماكة .

قصر المؤقر

وما زال قصر المؤقر قائماً باثاره حتى اليوم وهو يقع في البلقاء أي في أراضي الجنوب الشرقي من الأردن اليوم على بعد ٣٥ كم غربي الحراتة على الدرب المؤدية إلى عمان .

ويذكر كود علي^(٣٩) أن عبد الملك كان قد انشأ حول موقع المؤقر ابنيه . إن الوضع الراهن للقصر يجعل عمليات التنقيب والدراسة صعبة جداً وللهذا فلم تجر حتى الان دراسة جدية لمخططه^(٤٠) ولكن القطع الازترية التي توجد بين اطلاعه تقدم الدليل على ان هذا القصر كان مزداناً بالزخارف الرائعة، وقد تم العثور على عدد من الاعمدة تجلت فيها الزخرفة التي كان القصر يحمل بها ، وهي زخرفة متأثرة كما يبدو بالطراز البيزنطي . بل كان يعتقد ان هذا الموقع يرجع إلى قصر بيزنطي ، ولكن عملية تعزيز الانقاض من احدى البرك الكبيرة التي تقع في شرق القصر عام ١٩٦٠ ، أدت إلى العثور على عمود كامل حضرت على قابه كتابة كوفية جميلة تحدد تاريخ بناء القصر في عهد الخليفة عبدالله يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤) ^(٤١) كما ان العجارة الضخمة التي يتالف منها العمود ، تحمل كتابات على مسافات متساوية ، وتعلن هذا العمود كان مقاماً وسط البركة لتحديد ارتفاع الماء فيها . ويصل ارتفاع العمود إلى عشرة امتار على الأقل كما يتضح من المقاييس المدرجة عليه .

(٣٩) خطط الشام ص ٢٨١

(٤٠) انظر هاردينغ : آثار الأردن نفس المرجع ص ١٩٨

(٤١) زار الموقع دومازفسكي Domaszewski وموزيل Musil عام ١٨٩٨ وقام كل منهما بوصفيه ، عرض خلاصة ذلك كريزوبل مع ملاحظاته في زيارة عام ١٩٦٢ في كتابه E. M. A. الطبعة الثانية ص ٤٨٧-٤٩٦

قصور هشام بن عبد الملك

ويعتبر هشام بن عبد الملك (٧٤٣-٧٢٤) ثالث الساسة من خلفاءبني امية بعد معاوية وعبدالملك^(٤٢) واتسم عهده بالعهد الذهبي .

فلقد كان هشام بن عبد الملك من اكثربخلفاء الامويين اهتماما بالمتاحات المعمارية والفنون . على الرغم من بساطة طبعه . ويحدثنا البلاذري^(٤٣) ان هشاما بنى الريض وحصن المثقب على يد حسان بن ماهوريه الانطاكي . كما بنى حصن موردة على يد رجل من أهل انطاكيه ، وحصنا آخر في بوقا . ويتحدث اليعقوبي^(٤٤) عن قصر القطيفة كما يتحدث حماد الرواية عن قصر آخر لهشام دون ان يحدد موقعه ، ويقول فيه « انها دار قوراء مفروشة بالرخام ، وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك^(٤٥) » ولهمشام قصر في الزيونة (قصر العير الغربي) وقصران في الرصافة ، وثمة قصر بناء هشام في دمشق ذكره العمري فقال « المدرسة المجاهدية المعروفة بقصر هشام^(٤٦) » . وذلك عدا قصر العير الشرقي والمدينة

والمدرسة المجاهدية تقع الى الجنوب من الجامع الاموي في المنطقة الواقعه داخل سور معد جوبيتر الخارجي . انشئت على انقاض القصر في مطلع القرن السادس في أيام نور الدين .

(٤٢) المسعودي ج ٥ ص ٧٩

(٤٣) فتوح البلدان ص ١٦٩-١٧١

(٤٤) تاريخ اليعقوبي ص ١١٢

(٤٥) انظر كرد على - خطط الشام ج ٥ ص ٢٨٠

(٤٦) مسالك الابصار ١/١٨٩

ويذكر اليعقوبي ان احدى زوجات هشام كانت تقيم في قصر خاص بها في مرج الصفر^(٤٧) جنوب دمشق . ومن الممكن ان نضيف الى هذه القصور قصر طلول الاخضر في العراق الذي ينقب عنه شميدت .

قصر الرصافة

ذكر البلاذري أن هشاما كان يقيم في الرصافة وهي صحراء ، وكانت مدينة بناها الروم ، وفيها آبار وقناة للماء تأتيها من الصحراء ، وقد تخرّبت واصلحها هشام وبنى فيها قصرين .

ولقد اعتقد سوفاجيه^(٤٨) ان الرصافة المذكورة ليست هي سرجبوليس بل هي منطقة قصر العير الشرقي ، حيث أقيم قصران الاول قصر صغير طول ضلعه (٧٠ م) والثاني قصر كبير طول ضلعه (١٧٠ م) ولكن كاترينا اوتو دورين^(٤٩) التي قامت بعد شنايدر بحفريات في سيرجيوبوليس (الرصافة) للبحث عن اقدم الاثار الاسلامية فيها ، اكتشفت قصرا تعتقد جازمة انه احد القصرين اللذين بناهما هشام ، وهو قصر مخصص لاقامته .

قصر العير الغربي

يذكر الطبرى^(٥٠) ان هشاما كان ينزل في الزيونة في بادية الشام ، فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت متزلاه الى ان مات . كما يذكر ابن كثير^(٥١)

(٤٧) نفس المرجع أعلاه ص ١١٢

(٤٨) J. Sauvaget : BeEtOr T. v, 1935, p. 136

(٤٩) كاترينا اوتو - دورن - تقرير عن الحفريات في الرصافة الاسلامية
الحوالىات الاثرية مجلد ٤-٥ ص ١١٧

(٥٠) الطبرى ج ٨ ص ٢٩٢

(٥١) ابن كثير ص ٢٢٣

ان الخلافة اتته وهو في الزيتوна في منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ،
فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق .

ولقد تساءل الباحثون عن الزيتوна ، هل هي قصر العير الشرقي كما
يرى سوفاجيه ، استنادا الى لوح عثر عليه روس يعتبر هذا القصر مدينة أم
انها نفسها الرصافة . أم انها قصر العير الغربي أم هي قصر المفجر . ويرى
شلومبرجي ان الزيتوна هو اسم قصر العير الغربي .

واستنادا الى الصور الجوية التي كان الاب بوديبار قد التقاطها لبعض
الاوابد المشتركة في بادية الشام قام العالم شلومبرجي^(٥٢) منذ عام ١٩٣٦
بالاهتمام في الكشف عن مجموعة من الغرائب تبين انها مؤلفة من منشآت
قديمة ترجع الى العهد الروماني لم يبق منها إلا سد خريقة ، ومن أبنية بيزنطية
لم يبق منها الا البرج الملائق لقصر قام باكتشافه وتبيين له بالتأكيد انه قصر
أموي ، بل هو قصر هشام الذي كان يطلق عليه اسم الزيتوна وهو الاسم
الأصلي ، اما اسم العير ، فهي تسمية حديثة استعيرت من معنى السور الذي
كان يحده ، ويعتقد شلومبرجي ان مكان هذا القصر كان يوجد دير غساني
بناء الحارث بن جبلة^(٥٣) وكان سد خريقة يغذى القصر بالماء عن طريق قناة
تنتهي بخزان يبعد ١٦٥ كم عن السد ، ثم يغذى ماء الخزان القصر والحمام
والحدائق والطاحونة والخان الذي يقع قرب البركة والجامع بالماء اللازم .
ويقع الحمام شمالي القصر على بعد ثلاثين مترا من البرج البيزنطي وهو مقسم
إلى قسمين قسم بارد وقسم دافئ وقد فرشت ارض القسم الدافئ بالرخام
كما طليت الجدران بطلاء ملون تقليدا للرخام .

(٥٢) المقال متعدد في Syria ١٩٣٩ ومنتشر في كتاب دانيال شلومبرجي -
قصر العير الشرقي - ترجمة الياس ابو شبكة ١٩٤٥

(٥٣) نفس المقال ص ٢٦٢

وشكل قصر العير الغربي مربع طول ضلعه ٧١×٧٠ م وجداره الخارجي مدعم بابراج مستديرة (ماعدا الزاوية الشمالية الغربية حيث البرج البيزنطي) الذي اعيد استعماله ، وبابراج نصف دائريه تدعم اواسط الجدران الثلاثة ، عدا الجدار الشرقي حيث تفتح بوابة يحيط بها من الطرفين برجان نصف دائريين مزخرفان ، وبناء هذا القصر من الحجر الى ارتفاع مترين ثم من الطوب والاجر مع عوارض خشبية .

وتتصل البوابة بواسطة دهليز بالفناء المحاط بأروقة محمولة على عمد قديمة ، ويوجد في وسط الفناء حوض صغير ، وترتفع حول الفناء البيوت في طابقين ، وترى قاعات القصر وحجراته مرتبة ضمن بيوت ستة مستقلة عن بعضها يمتاز في الجهة الشرقية ومثلها في الجهة الغربية وواحد في الجنوب واخر في الشمال ويحوي كل بيت من ١٣—٨ قاعة او حجرة .

ولقد اكتشف درجان خبيان يؤكdan وجود طابق ثان ، ولقد عثر على دراizon رواق الطابق الثاني وهو عبارة عن قطع جصية منحوته وكانت بيوت الطابق الثاني وغرفه مطابقة لنظرائها في الطابق الارضي ، وكان النور يدخل الى الحجرات عن طريق كوات اما الفتحات الداخلية فكانت توافد عليها مشبكات جصية رائعة التكوين .

ويستدل على تاريخ هذا القصر من كتابتين ، الاولى نقش على ساكن احد ابواب الحان ، وهو محفوظ حاليا في حدائق المتحف الوطني بدمشق وعليه الكتابة التالية : (بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أمر بصنعة هذا العمل عبد الله هشام أمير المؤمنين أوجب أجره ، عمل على يد ثابت بن ثابت في رجب ١٠٩ هـ) .

أما الكتابة الثانية فهي على جزء من حجر دخامي ٧٥ × ٦٥ سم ،
تبين شلومبرجه بعد الترميم الكتابة التالية :

من هشام أمير المؤمنين الى :

الوليد أبي العباس

أحمد الله اليك

ويعتقد شلومبرجي أن هذه الرسالة كانت موجهة الى الحجاج بن يوسف وهذه الرقعة محفوظة في جناح قصر العير في المتحف الوطني بدمشق .

قصر العير الشرقي

يقع العير الشرقي على بعد ١٠٥ كيلومترا شمال شرقى تدمر وعلى مسافة ستين كيلومترا جنوب الرصافة . ولقد تحدث عنه كثير من الرحالة منذ القرن السابع عشر ، وكان آخر من زاره ١٩٢٥ وكتب عنه البرت غبريل A. Gabriel الذي استفاد منه كريزوبل واضاف عليه منذ عام ١٩٢٨ ، ثم تولى اوليسغ غرابار استكمال دراسته منذ ١٩٦٥^(٥٤)

يتالف الموقع من قصرين (شكل ٢٣) قصر كبير مربع طول ضلعه ١٦٠ م تقريبا وآخر صغير مربع غير منتظم طول ضلعه ٧٠ م وسطيا ، وهذان القصران مدعمان بابراج نصف دائرية ، برجان في كل ضلع اضافة لابراج الزوايا الاربعة . وينفتح مدخل القصر الكبير من جهة الجنوب ببوابة كبيرة على طرفها برجان نصفا دائرين وينتهي الدهليز بالفناء المحاط من جميع جوانبه بالغرف الواسعة ٦٦×١١ م تقريبا وتبدو مقطوعة الى قسمين الغرفة

(٥٤) انظر اوليسغ غرابار قصر العير الشرقي : الحوليات مجلد ١٥ ص ١٠٧ ومجلد ١٦ ص ٢٩ ومجلد ٢٠ ص ٤٥ ولقد كان يلخص هذه المقالات بنفس المجلدات السيد خالد الاسعد .

O. Grabar : Ars Or 8-197. وانظر مقالات غرابار في :

Rev. Etu-Islamique, 38. 1970 - 251.

City in the Desert - 1978.

وكتابه

الواقعة في الجهة الشرقية . والقصر مؤلف من طابقين ، ولهذا القصر اربعة مداخل بما فيها المدخل الرئيسي عدا مدخلين اضافيين في الجدار الشرقي .

واسوار القصرين مبنية من الحجر المنحوت والاجر ومدعمة بابراج نصف دائرة ، وبجوار هذين القصرين ثمة سور واسع بطول يزيد عن ستة كيلو مترات مدعم ايضاً بابنات وفي احد اجزائه فتحات ذات اقواس عاديّة يسكن اغلاقها بابواب من الخشب ، وثمة قناة تنقل الماء من مكان بعيد جداً وهذه الارض التي يمكن تنظيم الري فيها لا بد انها قد استعملت لزرع بعض النباتات ولا قامة الفلاحين .

تعتبر منطقة قصر العير الشرقي مدينة كانت معدة لسكنى حاشية الخليفة ، وترجع هذه المدينة الى عهد هشام يؤيد ذلك الكتابة التي عشر عليها جاك روسو في القصر وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله ، أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله هشام امير المؤمنين وكان هذا من عمل اهل حمص على يد سليمان بن عبيد » .

ولقد نقلت هذه اللوحة الى حلب ثم فقدت ولم يعرف أثرها حتى الان ولكنها نشرت في مقال غبريل^(٥٥) كما كتب سوفاجية عن هوية هذا القصر^(٥٦) .
اما القصر الصغير فله مدخل وحيد من جهة الغرب تشاهد في داخله غرفاً ذات سقف معقودة ، وتشير الجدران الخارجية بما فيها من بروزات الى تقسيمات الجدران الداخلية الرئيسية .

ولم تقدم الحفريات دلائل كافية على وجود عناصر تزيينية واسعة ولا بد ان ذلك يرجع الى استمرار استعمال هذه المدينة خلال عدة قرون من

Gabriel : Syria 8, 1927, p. 315-325.

(٥٥)

J. Sauvaget : Bul. Et. Or. Tome V, 1935, p. 136.

(٥٦)

(١٤) وخلالها تعرضت الى تحويلات واضافات واستعمالات مختلفة ادت الى ضياع الكثير من المعالم الزخرفية في أبنية هذه المدينة التي عرفت خلال القرون الوسطى باسم (العرض) كما يرى غرابار^(٥٤) .

ولقد اعتقد سوفاجيه استنادا الى نوح دوسو ، أن هذا الموقع هو نفسه رصافة هشام التي ورد ذكرها على لسان المؤرخين العرب ، ولكن حفريات الرصافة أثبتت وجود قصرين لهشام هناك . ويقى وضع منطقة قصر العير الشرقي مستقلا . ولقد قام غرابار خلال تنقياته بالتأكيد على هوية القصر الصغير من انه يرجع الى العهد الاموي والى عهد هشام كما يبدو من الكتابة ، اما القصر الكبير فهو اموي ولكنه اعيد انشاؤه في العهد العباسي وفي القرن العاشر ، حيث اصبح عنصرا اساسيا في مدينة متكاملة فيها معاصر للزيوت وصناعات زجاجية وأحياء سكنية ومسجد واكتشفت قناة تمتد ٥٧٠٠ متر تنقل المياه الى هذه المدينة يحتمل انها موجودة منذ قبل الاسلام . ولقد لعبت هذه المدينة دورا تجاريا هاما لموقعها وفعاليتها .

خرية المفجر

يقع قصر المفجر على مقربة من اريحا ، كان قد شيد هشام بن عبد الملك لكي يكون استراحة ملكية تمتاز بوفرة الزخرفة .

ولقد قام بالكشف عنه كل من العالمين هاملتون^(٥٨) وبرامكى في الفترة بين ١٩٣٥-١٩٤٨ . ولقد تأكد تاريخه الاموي نتيجة العثور على رسالتين كتبتا على قطع من الرخام وهما موجهتان الى هشام أمير المؤمنين .

(٥٧) انظر الحوليات ٢٠/١٣٠

R. W. Hamilton : Khirbet al Mafjar, Oxford 1959

(٥٨)

وَكَشَفَتِ الْحُفَرِيَّاتُ عَنْ قَصْرٍ وَحِمَامَاتٍ وَجَامِعٍ وَفَنَاءً أَمَامِيًّا أَعْدَدَهُ وَبِرَكَةٍ
مَزْدَانَةٍ بِالْزَّخَارِفِ .

وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَشَائِطُ مَحَاطَةً بِسُورٍ وَاسِعٍ يَمْتَدُ حَوْالَيْ كِيلُومُتْرَيْنِ
بِاتِّجَاهِ نَهْرِ الْأَرْدُنَ لِلْخَلِيفَةِ كَانَ يَمْارِسُ هُوَايَتَهُ فِي الصَّيْدِ ضَمِّنَ نَطَاقِهِ .
وَلَقَدْ جَرَتِ الْمَيَّاهُ إِلَيْهِ مِنْ يَنَابِيعٍ لَيْسَتْ بِعِدَّةٍ وَاسْتَمْرَ الْمَكَانُ مَأْهُولاً زَمْنًا حَتَّى
دَمَرَ بِتَأْثِيرِ زَلْزَالٍ عَامَ ٧٤٧ وَبَقَى الْمَكَانُ مَهْجُورًا مِنْذَ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَيُعْرَفُ
بِاسْمِ قَصْرِ الْمَفْجُورِ أَوْ خَرْبَةِ الْمَفْجُورِ^(٥٩) .

وَبَنَاءُ الْقَصْرِ هُوَ الرَّئِيْسِيُّ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ ثُمَّ أَضِيفَ إِلَيْهِ الْجَامِعُ
وَالْحِمَامَاتُ . وَيُشَبِّهُ مَخْطَطُ الْقَصْرِ مَخْطَطَ الْقَلْاعِ الْرُّومَانِيِّ فَهُوَ عَلَىْ هَيْثَةِ
مَرْبَعٍ طَوْلُ ضَلعِهِ ٥٤٤٥ مِتْرًا اَمَّا الضَّلْعُ الشَّرْقِيُّ فَهُوَ ٦١٢٥ مِتْرًا فِي أَرْكَانِهِ الْأَرْبَعَةِ
أَبْرَاجٌ مَدْعُومَةٌ وَأَمَامَ مَدْخَلِهِ الَّذِي يَقْعُدُ فِي الْجَدَارِ الشَّرْقِيِّ يَوْجِدُ فَسْحَةً أَمَامِيَّةً
مَعْدَدَةً تَمْتَدُ حَتَّىِ الْحَدُودِ الشَّمَالِيَّةِ لِلْحِمَامَاتِ ، وَالْمَدْخُولُ الرَّئِيْسِيُّ لِهَذَا الْفَنَاءِ
يَقْعُدُ فِي الْجَنُوبِ يُحِيطُ بِهِ بُرجَانٌ . وَلَقَدْ تَرَكَتْ مَعَظَّمُ مَسَاحَةِ الْفَنَاءِ عَارِيَّةً وَفِي
بَوْسُطِهَا تَقْعُدُ الْبَرَكَةُ ذَاتُ الزَّخَارِفِ وَهِيَ مِنْ الْمَشَائِطِ الْهَامَةِ اَذَّ أَنَّهَا بَنَاءٌ غَرِيبٌ
يَتَأَلَّفُ مِنْ بَرَكَةً مَرْبَعَةً عَمْقَهَا مِتْرٌ تَقْرِيَّبًا تَعْلُوْهَا قَبَّةٌ عَظِيمَةٌ ذَاتُ ثَمَانِيَّةِ أَضْلاعٍ
فَوْقَ أَرْبَعَةِ أَقْوَاسِ ضَخْمَةٍ ، وَهِيَ مَزْدَانَةٌ بِأَجْمَلِ الزَّخَارِفِ . وَكَانَ بَنَاءُ الْقَصْرِ
مَؤْلِفًا مِنْ طَابِقَيْنِ لَهُمَا شَرْفَاتٌ فِي الْأَعْلَى أَوْ رَوَاقٌ سَفْلَيٌ يُحِيطُ بِجَوَانِبِ هَذَا
الْفَنَاءِ ، أَمَّا الْبُوَابَةُ فَكَانَتْ ضَمِّنَ بَرْجٍ كَبِيرٍ يَعْلُوْهُ قَوْسٌ مُتَقْنَةٌ تَرْدَانٌ وَاجْهَتْهَا
الْأَمَامِيَّةُ بِصَفَّ مِنَ الْمَحَارِبِ .

Ettinghausen : Islamic World 5. 17.

(٥٩)

Creswell : E.M.A., Ed. 2 p. 554-577.

L. Harding : The Ant. of Jordan, London 1967.

تُرجمَهُ إِلَىِ الْأَنْجَرِيَّةِ سَلِيمَانُ مُوسَىٰ - عُمَانُ ص ٢١٦ وَمَا بَعْدَهَا

ويتني الدهلiz بالفناء الداخلي للقصر والمحاط بالغرف في طابقين ، وتشكل الغرف في الجهة الغربية مجموعة متكاملة وتعتبر المقر الملكي بينما تبدو غرف الجهة الجنوبية مستقلة عن بعضها واسعة ، أحدها كان بستابة مسجد .

ويقع الجامع في الجهة الشرقية بين القصر والحمامات ، ولم يبق مسقوفا فيما عدا الصدر الجنوبي المعقود الذي يضم المحراب . وتنتألف الحمامات من رحبة أمامية ومدخل مسقوف وقاعة ضخمة طول كل ضلع من أضلاعها ٣٠ م ، ويحمل سقفها على ست عشرة قاعدة ضخمة هي اعمدة متداخلة تحمل أقواسا فوقها محفظة ، وفي الجدران تجاويف خمسة مغطاة بقباب عالية . وقد فرشت أرض الحمام بالفسيفساء بتشكيلات خارقة . وعند هذه القاعة الضخمة يوجد من الناحية الشمالية غرف للحمامات الساخنة وأخرى للحمامات الباردة وغرف بخار . وفي الزاوية الشمالية الغربية غرفة خاصة للاستراحة ، وهي الغرفة التي تحفل أرضيتها بأروع الفسيفساء .

وتنتألف هذه الغرفة من قسمين ، قسم مربع وعلى جانبيه دكتان مستطيلان ، وقسم مجوف ترتفع أرضيته عن مستوى القسم الأمامي بشكل حنية مرتفعة .

قصر المشتى

اكتشف هذا القصر العالم لـ لايارد Layard عام ١٨٤٠ ثم قام برونو بدراساته منذ عام ١٨٩٥ - ١٨٩٨ واستفاد كريزوبل من هذه الدراسة وأضاف عليها .

ولقد اختلفت الآراء كثيرا في تحديد هوية قصر المشتى ، حتى ان كريزوبل وضع قائمة كبيرة لهذه الآراء^(٦٠) وهي آراء تنسب القصر إلى

Creswell : E. M. A. P. 399.

(٦٠)

Creswell : E. M. A., 2 éd. pp. 578 - 606.

العصر الاخسيسي او الى المناذرة او الى الفساسة او الى الامويين ولكن كريزويل يؤكد رأي هيرزفيلد القائل بان هذا القصر اموي وان بانيه هو الوليد الثاني ، فلقد تحدث صاحب الاغاني ان الوليد انشأ قصرا في اللقاء ، ثم ثبت ذلك بمقارنات معمارية مع قصور ومساجد اموية لاشك بهويتها : ويؤكد ذلك العثور على نص تاريخي ، يجعل هذا القصر من القصور الاموية وعلى التحديد من اعمال الوليد الثاني (٧٤٣-٧٤٤) .

ولقد أشار لامس الى كتاب سادiros بن المقفع الذي ينسب الى الوليد الثاني « الشروع في بناء مدينة لنفسه في الصحراء ، جمع لها العمال والصناع من جميع البلاد ، ومات كثير منهم بسبب الارهاق وقلة الماء ، الى ان ثار على الوليد رجل يسمى ابراهيم (لعله ابراهيم بن الوليد الذي حكم لفترة قصيرة جدا بعد أخيه يزيد الذي خلف الوليد الثاني لفترة اشهر ايضا) قتله واستولى على مقايل الامور ، واطلق العمال فتفرقوا قبل ان يتم البناء » ومن المرجح ان هذا القصر هو المشتبه به.

يحيط بالقصر سور مربع طول ضلعه ١٤٤م ، ويكتنفه خمسة وعشرون برجا دائريا . عدا برجا المدخل منها نصفا مثمنين ، يمتاز القصر بتقسيماته فهو مقسم الى ثلاثة أجنحة ، الجناح الوسطى مقسم الى ثلاثة اقسام ، يضم القسم الشمالي والجنوبي الابنية الرئيسية اما القسم المتوسط فهو يشكل ساحة مكشوفة .

والقسم الشمالي كان مقر ائل الخليفة اما القسم الجنوبي فهو مرات وغرف مسجد . ومنه ينفتح المدخل الوحيد الذي تزييه من الخارج واجهة مزخرفة .

ويمتاز بناء قصر المشتى باستعمال الواح الاجر المربعة ، وكتل الحجارة
المتنسمة الشكل بوقت واحد ، وكنا عرفنا نظيراً لهذه الطريقة في البناء
في قصر بن وردان (القرن السادس) ويضم القسم الجنوبي المتاخم للمدخل
بهوا واسعاً ومجاميع من الغرف لعلها كانت معدة كحظائر ، أما القسم الشمالي
فكان مقر الخليفة ، أو خصص لهذا الغرض ويتألف من صالة ثلاثة حنيات
متصلة بسراير طويلة وحولها دهليز تؤدي إلى مجموعات من الغرف تشكل
بيوتاً مستقلة .

قصر الطوبية

يقع قصر الطوبية إلى أقصى الجنوب من القصور الأموية في بادية
الأردن التي أنشئت في عهد الأمويين في وادي الفداف على بعد مئة كيلومتر
من جنوب شرق عمان ، وهو أكبر موقع أموي بعد موقع العير الشرقي
والمحجر . ويطلق عليها اسم الطوبية ، وال الأول هو الاصح لأن هذا البناء
انشئ من الحجر والطوب وليس الاجر .

اكتشف هذا القصر عام ١٨٩٨ العالم موزيل وذلك قبل أيام من اكتشافه
العظيم لقصير عمره ، وقد قام بوصفه في دراساته التي نشرها منذ عام ١٩٠٢
عن قصير عمره ، واستفاد منها واضاف إليها كريزويل^(٦١) . ويبلغ طوله
١٤٠ متراً وعرضه ٧٣ متراً وتendum جدرانه الخارجية خمسة أبراج نصف دائرة
من الشمال وبرجان من الشرق والغرب إضافة لاربعة أبراج في الزوايا بشكل
دائري أما في الجنوب فيوجد برج في وسط الجدار ذو مخطط غريب والى
جانبي المدخلين برجان مربعان وينفتح كل مدخل نحو فناء محاط بغرف
مختلفة المساحة منفتحة على بعضها وهكذا فإن هذا القصر في الواقع يقسم
إلى قسمين متطابقين يصل بينهما دهليز وحيد .

ويمتاز هذا القصر بطابعه الاموي الواضح من طريقة النحت على الحجر ولكنه يختلف عن غيره من القصور اذ أنه انشيء من الحجارة والطوب والبن (وهو الأجر غير المشوي) على السواء . ومع ذلك فان بناء القصر لم يكتمل كليا فلقد تم انشاء الجناح الشمالي اما الجناح الجنوبي فلم يتتجاوز مرحلة انتهاء الاساسات ، وتقوم غرف كبيرة جميلة في الجناح الشمالي ذات عقود مرتفعة ، ويرجع القصر الى عهد الوليد الثاني .

العمارة الشامية بين الاصلية والتحديث

كانت الحياة الاجتماعية والمعاشية في سوريا متخلفة ابان الحكم العثماني، لاعتماد السلطان على مبدأ التزيم في جباية الضرائب ، فكان هم الولاية ارهاق الناس بدفع الاموال والضرائب لتفطير ما يدفعه الوالي الى السلطان دون الاهتمام بعمليات الاصلاح والتنظيم الضروري .

وكان هذا الارهاق مدعاه الى قصور الامكانيات عن تلبية الاسكان فلم يكن بامكان عامة الناس اقامة بيوت مستوفية للشروط الصحية ، هذا باستثناء بعض البيوت الفخمة التي كان ينشئها الباشوات او الاقطاعيون . وما زال في دمشق بعض منها مثل منزل ناظم باشا (وهو القصر الجمهوري حاليا) ، ومنزل زوار باشا (وتشغله اليوم ثانوية جول جمال وكان عام ١٩١١ مدرسة للطب) وسراي عزت باشا العائد من تصميم المعمار درندندر عام ١٩٠٨ اما البيوت العادية فكانت تنشأ وفق الاصول التقليدية ، دون ان تحتاج الى مهندس معمار ، بل كان معلم المعمار هو الذي يشرف على انشائها مصنوعة من مواد ترابية مضافا اليها بعض المواد الملاطية على هيكل خشبي او بطريقة الدك اما السقوف فكانت ترتفع على اعمدة خشبية مشدبة ومدهونة وتنصب فوقها رفوف من الخشب وفوقها توضع مادة الطين الاحمر ممزوجا بالتين وترش الارض بالحجارة المنحوتة والمصقوله .

اما طراز العمارة المألوفة فهو قديم يرجع الى عهد الراfdin وكانت التغطية على ما يبدو مسطحة او مقببة وتشهد على ذلك الدور المتشرة في شمالي سوريا ، ومن الثابت أن ابتكار الاقواس والقباب منشأة الشام وببلاد الراfdin ، وما زالت قبة الباتيرون في روما تدين الى معمار دمشقي لعله ابو اللودور الدمشقي نفسه الذي مضى في عهد ادريان لاقامة كثير من المنشآت في روما وخارجها .

ويمتاز الطراز الشامي التقليدي في العمارة بالمبادئ التالية :

- ١ - عدم اهتمامه بالاظهر الخارجي .
- ٢ - انكفاء المنزل على صحن داخلي .
- ٣ - وجود الايسوان .
- ٤ - تقسيم المنزل الى قسم داخلي وقسم للضيوف واخر للخدمات .

ولقد امتازت العمارة الشامية بتنوع الزخرفة ، فلقد حفلت (القاعات) بزخرفات حجرية نافرة او ملونة (الابلق) او بزخرفات خشبية ملونة ونافرة (العمجي) . وكانت هذه القاعات تتالف من غرفة كبيرة ذات جناح او أكثر (كرز) وتتوسط الغرفة بركة صغيرة او فسقية ، وفي صدرها سلسيل ماء (المصب) .

ولقد ازدانت هذه القاعات بالزخارف المختلفة وفرشت بالرخام والمرمر وحليت أفاريزها بالكتابات الجميلة والشعر .

اما الصحن فهو فناء مكشوف تحيطه غرف ارضية وعلوية وتنوشه بركة واسعة محاطة بأشجار البرتقال والليمون والنارنج وأزهار الياسمين والورد البلدي والفل .

ولقد تتنوع طراز العماره خلال العصر الحديث نظراً لوفود كثير من المهاجرين إلى الشام من أكراد وارمن وجركس وغاربة^(٦٢) . وكان لكل من المهاجرين طراز مبسط في تنظيم بيته ، لعله أكثر بساطة من الطراز المحاسبي .

ولابد من الاشارة إلى اختلاف طراز العماره من مدينة إلى أخرى ، ونأخذ مثلاً على ذلك الاختلاف الصريح بين نظام العماره في دمشق ونظيره في حلب وخاصة خلال الربع الأول من هذا القرن . ويرجع السبب في ذلك إلى توفر الحجر في حلب حيث تقوم المقاالم في أطراف المدينة ، مما يسهل الاستفادة من هذه المادة في الاعتناء بالواجهات الحجرية المنحوة والمزينة بالطنفات والأفاريز وتميّان الأعمدة والاقواس المحلاة بالزخارف ، مما نراه واضحة في ابنيّة العزيزية والجميلية مثل بناء الاسود وبناء كبابة وذلك على عكس نظام العماره الدمشقية التي لم تعتمد على الحجر كثيراً لابتعاد مقاالمه وزيايدة كلفة ، فجنحت إلى النظام الذي تحدثنا عنه والذي اهتم بالترتيب الداخلي وأهمل الواجهات والشكل الخارجي ، إلى أن ظهرت طريقة البناء بالاسمنت ، خاصة بعد أن دخل استعمال الاسمنت في العماره بعد إنشاء معبد الاسمنت الأول بدمشق عام ١٩٣٠ ، وأصبحت الخرسانة والاسمنت المسلح هي الطريقة الجديدة لإقامة السقوف المتينة السهلة ، بل لإقامة الابنية ذات الطوابق المتعددة ، ولعل قصر العابد في دمشق هو من أوائل الابنية التي استعمل فيها الاسمنت المستورد . على أن العثمانيين والفرنسيين أيام الانتداب على سوريا اغروا بالأسلوب العماره الأوروبي الريفي الذي يعتمد الجملون الاجري كتفطية وبقى هذا الطراز شادداً في الشام ويعتبر من علامات العماره الهجينة .

(٦٢) انظر مخطوطات وشرح هندسة هذه البيوت في كتاب دمشق لصفوح خير ص ٢٨١

ولقد ابتدأت العمارة الحديثة في حلب ودمشق منذ العشرينات متأثرة بالتطورات الحديثة في العمارة العالمية وإن كان الطابع الكلاسيكي المحدث هو الغالب في أكثرها .

ويقوم نظام العمارة الحديثة على مبدأ الطبقات ، ففي كل بناء عدد من الطوابق يزيد على ثلاثة ويصل إلى اثنى عشر طابقاً ، وفي كل طابق عدد من الشقق المستقلة ، وكل شقة مؤلفة من عدد من الغرف وصالحة مركبة مع منافع . ولقد جهزت البيوت بالتدفئة المركزية والمصاعد الكهربائية واحتضنت البناءيات بوجانب جعلت حدائق محيطة بكل منزل ، ولقد استفید من افكار لوکور بوزيه Le Corbusier في إقامة مجمعات سكنية كمجمع مرسيلية ، وأقيم مؤخراً في دمشق عدد من الأبنية في شوارع تقوم على أوتاد تستعمل كمراكب للسيارات أو حدائق ومداخل .

ولقد اشتغل الجدل حول نظام العمارة الجديد الذي أصبح يختلف عن الأسلوب التقليدي بالأمور التالية :

- ١ - أصبح مطلاً على الخارج لا يدخل النور إلى جوفه .
- ٢ - صار مشتركاً مع غيره وصغيراً .
- ٣ - أصبح استثناء لا يتناسب مع المناخ السوري .
- ٤ - ابتعد عن الأسلوب التقليدي .

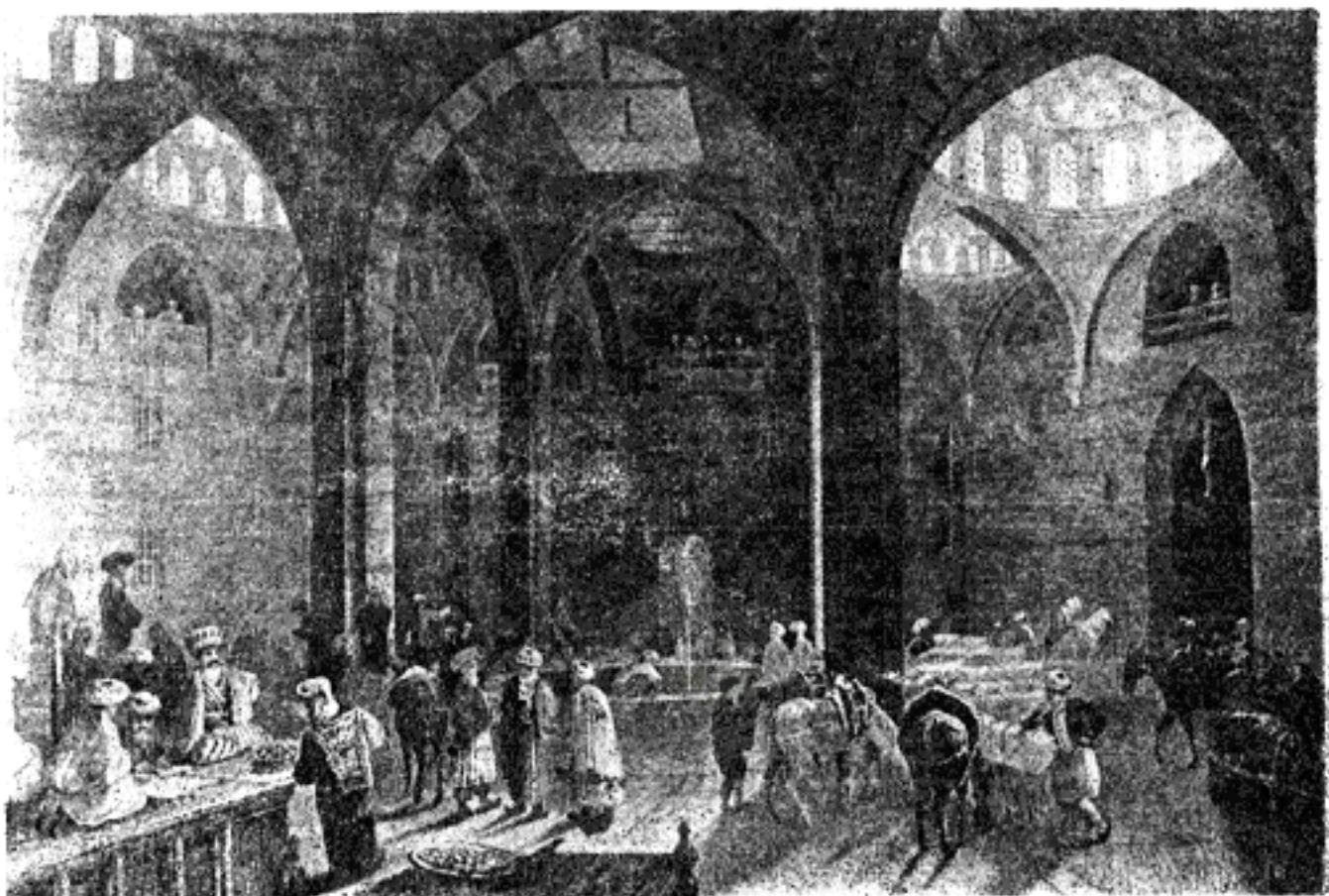
على أن العمارة الحديثة لم تقتصر على المنازل السكنية ، بل تعدتها إلى المدارس ودور الحكومة والمساجد والملعب .

والحق أن النظام المعماري الجديد قد غير نظام الحياة الاجتماعية والتقاليد التي كانت سائدة ، وجعل المجتمع الشامي أكثر افتاحاً وأكثر تلاحمًا وأصبحت العمارة اقتصادية جميلة الشكل والتلوين ، حسنة التنظيم وتتوفر فيها جميع الشروط الصحية .

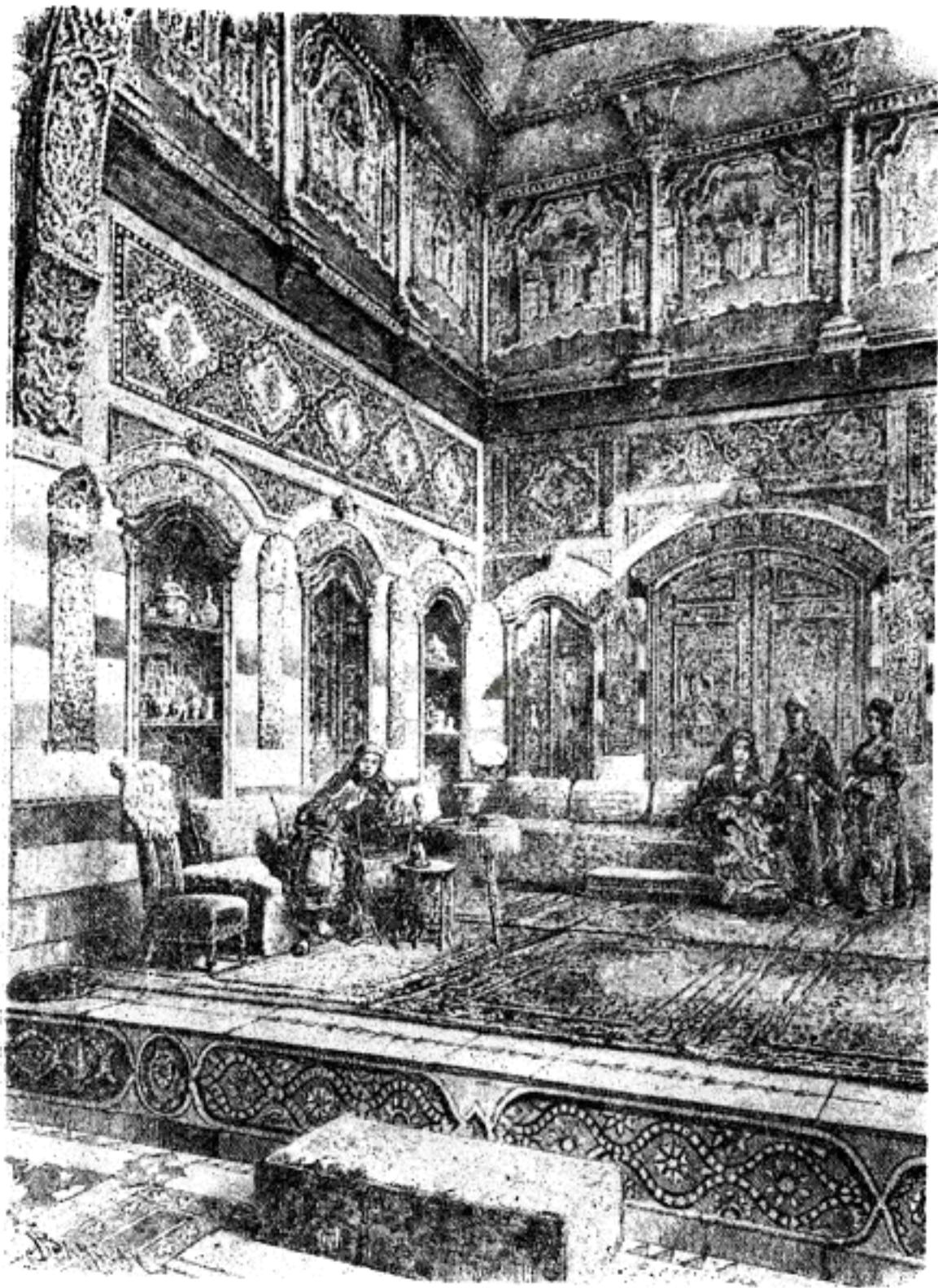
ولقد انشئت في سوريا منذ عام ١٩٥٨ مؤسسة الابنية المدرسية قامت بدور هام في بناء مدارس حديثة وفق افضل الشروط المعمارية والصحية والتعليمية ، ولقد انتشرت هذه المدارس في جميع المدن والقرى النائية ، واصبح من الممتع ان ترى في قرية صغيرة من قرى الجنوب الفقيرة ، مدرسة جميلة ذات لون باهي وتقسيمات مدروسة ، تفسح المجال امام الطلاب لتلقي العلم في احسن الشروط .

اما المؤسسات الحكومية فلقد كانت قدوة في عمارتها العربية الطراز المحتل بابه التزيينات ، ومثال ذلك في دمشق محطة الحجاز وعين الفيجة والبرمان والقصر العدلي كما انشيء في كل محافظة وقضاء مقر حكومي ، او عدد من المقرات ازدادت مع الايام حتى اصبحت جميع المؤسسات الحكومية مستقرة في ابنية ضخمة مناسبة ، يحمل أكثرها الطابع العربي ، عدا المنشآت التي كانت تنشأ عمارتها بسابقة دولية كالمصرف المركزي بدمشق والمتحف الوطني بحلب .

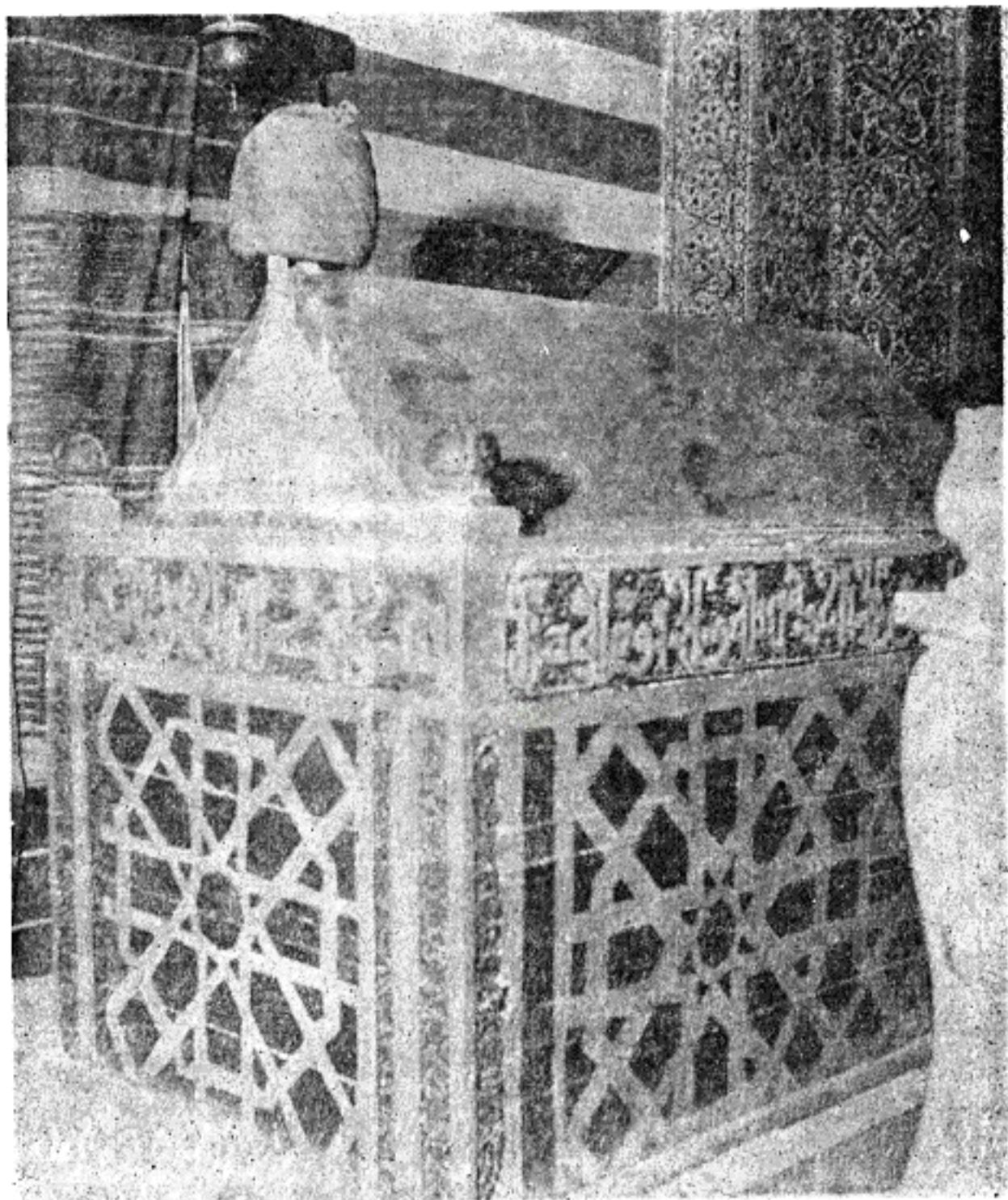
ولقد انتشرت المساجد في المدن الكبرى تتجلی فيها أجمل العناصر والزخارف العربية الاسلامية . الا ان اکثرها اقتصر على العرم وألغى الصحن ، كما ان المآذن استمرت مضلعة متأثرة بالاسلوب الفاطمي والمملوكي اما الكنائس الجديدة فانها مستوحاة من الاسلوب الرومي وهو اسلوب شرقي ظهر في غربي اوربا ولكن اصوله من الشام ذاتها .



خان – او فندق
خان اسعد باشا ١٧٥٠ م – دمشق



بيت شامي قديم - القاعة



ضريح صلاح الدين الايوبي في دمشق

الفصل الرابع الفنون الشامية

- بداية الفن الإسلامي في بلاد الشام
- أشهر الرسوم الجدارية الإسلامية في بلاد الشام
- لمحات عن فن الأيقونات الشامية
- بوادر الفن الحديث
- الفنون التطبيقية الشامية
- السيف الدمشقي
- السجاد الدمشقي
- صناعة النسيج

بداية الفن الإسلامي في بلاد الشام

تأثير الفن الإسلامي في بداية تكوونه في بلاد الشام بالفن السasanاني والفن البيزنطي ، ومن مظاهر اتصال الفن الإسلامي في بدايته بالفن السasanاني ما نراه في زخرفات قصر المشتى من تفريعات للمرابح التخiliة ومشتقاتها، وما نراه واضحا وبصورة مشتركة مع التأثير البيزنطي ، في العوائط الإسلامية الأولى كما في قصر الحير (٧٢٨) ، أو في الصورة الجدارية الأموية كما في قصیر عمره (٧١٢) او في فسيفساء قبة الصخرة في بيت المقدس (٦٩١-٦٩٢) .

اما تأثير الفن الشامي الكلاسي . فلقد كان واضحا في مجال الزخرفة في استعمال نبات الاكانت (شوكه اليهود) ، وورقة الكرمة التي كانت اكثر الصيغ الزخرفية شيوعا في الفن المسيحي الشامي ، وكان هذا الفن قد استمدتها من الفن الهلنستي والروماني، ثم امتد بها الفن القبطي في مصر بشكلها المسن وصيغتها الزخرفية المحسنة ، ثم تطور شكل هذه الصيغة النباتية ، حتى ابتعد كثيرا عن اصله الكلاسي ، لكي يظهر بطريقة جديدة في العهد الإسلامي متدمجة مع شخصية الفن الجديد ، حيث بدت هذه الصيغ مختلفة مع غيرها من الصيغ النباتية التي تبدو بوضوح في واجهة قصر المشتى .

ويلاحظ اشبنغلر^(١) هذا التحول واضحا في التاج الكورشي الذي يقوم

(١) عبد الرحمن بدوي : اشبنغلر ص ١٣٤

على تأويل ورقة الأكانت ، فقد تغير شكل هذه الورقة على يد الفنانين الشاميين اذ حولت الى شبكة من الخطوط الزخرفية البعثة ، بحيث أصبحت تماماً المسطحات كلها بطريقة غير عضوية ٠

واستمرت تقاليد الزخرفة المسيحية الشامية سائدة حتى ظهرت في الفن الاموي ، وتبين ذلك بمقارنة الزخرفة الاسلامية بالخشوات العاجية التي تزين كرسي الاسقف مكسيمليان في رافينا ، وهي خشوات مسيحية شامية ، تبدو فيها طريقة الحفر المحلاة بفروع الكرمة والزاخرة بأشكال الحيوان والطيور النافرة على خلفية مفرغة ٠

ولعل الزخارف النحتية الموجودة في واجهة قصر المشتى الاموي وهي من أهم الآثار الشامية الاسلامية الاولى ، تقدم لنا حجة قاطعة على تبلور الشخصية الفنية المحلية ، وخاصة في الزخارف المولفة من أشكال الحيوان والطيور والأشكال الادمية ، والتي صيغت وسط تفريعات من سيقان الكرمة ، وهذه الزخارف تعبر عن استمرار الشخصية الفنية السورية التي كانت سائدة ، ولا علاقة لها بتأثير ساساني ٠ أما المجموعة الثانية وتشمل مثلثات توجد على يمين المدخل فليس فيها أثر لصيغة تشبيهية بل لقد غلب على تفريعات سيقان الكرمة صيغة تجريدية تستند في اسلوبها الى الطابع الراافيدي ٠ ويؤكد هرتزفلد ان هذه الزخارف تكشف عن وجود اسلوب جديد تصح تسميته بالاسلوب الاموي ٠ على ان هذا لا يمنع من استمرار وجود تأثيرات هلستية نراها واضحة في الزخرفات الخشبية في المسجد الاقصى ، حيث نرى تغييرات عن الاكانت وتفريعات من الكرمة تماثل الموجود في فسيفساء قبة الصخرة او في الجامع الاموي الكبير او في الزخارف النحتية الموجودة على تيجان عشر عليها في الرقة محفوظة في متحف المتروبوليتان ٠

ومما لاشك فيه ان نظام الزخرفة العربية (الارابسك) وقواعدها هو ارث محلي قديم حيث نرى الزخارف ذات مستوى واحد وتكتسوا السطح كله ، كأنما هناك خشية من استقرار الشر ، وهو اعتقاد قديم استمر سائدا في الفن الاسلامي . كما نرى الزخارف منتظمة في خطوط عمودية على خلفية غائرة مما يعطي تأثيرا جماليا جذابا مستمدًا من التباين بين الضوء والظل ، ولقد طور الفنانون المسلمون فيما بعد هذه المبادئ تطويرا هاما لاحدود له .

لاشك ان العناصر التزيينية الفسيفسائية الموجودة على جدران المسجد الكبير في دمشق وعلى جدران قبة الصخرة في القدس تبقى من أهم آثار الزخرفة الاسلامية في شائرتها . ومما لاشك فيه ايضا ان هذه الزخارف قد انجزت من قبل سكان البلاد من اهل الشام ، ومن برعوا في هذه الصناعة الفنية .

فلقد اكدت فان برشيم Van Berchem انه «نظرا لأن العمارة الاسلامية الشامية في شائرتها كانت قد تميزت بوضوح عن العمارة البيزنطية ، فإن جميع الدلائل تدفعنا للاعتقاد أنه كان في الشام ايضا مدارس لتعليم الفسيفساء ، ولعل ثمة مصانع للفسيفساء » .

« اني أعتقد جازمة أن العرب اعتمدوا على عمال الفسيفساء المحليين في الشام »^(٢) .

وهكذا فقد اشتراك أهل الشام في اقامة تقليد تصويري محلي ، اذا كان مستمدًا من الطرز الكلاسيكية والساسانية ، فلان سلطان هذين الطرازين كان واسعا واستمرا زمنا يزيد عن عشرة قرون ، لم تكن خلالها بلاد الشام تتمنع بسيادتها ووحدتها ، عدا أن الطراز الكلاسيكي ، لم يكن طرازا محليا

(٢) انظر : Cresweell E. M. A., p. 155.

قوميا خاصا ببلاد اليونان أو روما ، بل أصبح منذ فتوح الاسكندر نظاما عالميا نموذجيا ، ولقد كان الاتماء اليه ، طوعيا أو ازاميا اتماء للجديد الراسخ والجليل .

ويوضح ذلك ارتباط العالم الهلنستي والروماني والبيزنطي بل وعصر النهضة والكلassية المحدثة ، بهذا الطراز الذي اتصف دائمًا بالقاعدة والترف على ان معطيات تكوين الفن الزخرفي والتصويري الاسلامي كانت اوسع بكثير من معطيات الثقافة الكلassية والساسانية . فالدين الاسلامي ، على قربته من الدين المسيحي ، قد اكده على مفاهيم اساسية في تحديد مكانة الانسان من الله ، او دور الخالق ، في تقرير مصائر الناس ، ودور المخلوق في عمليات الخلق ، مما وجه الفن التصويري نحو التجريد والرمز والتوريق والرقش .

فالله « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ، وهو الخالد « كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » .
اما الانسان فهو كائن ضعيف مصيره الموت المحتم « اينما تكونوا يدرككم الموت لو كنتم في بروج مشيدة » .

ولكن هذه العلاقة لم تمنع الانسان من التمتع بالحياة وزينتها « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق » .

على ان الدين الاسلامي قد حرم الانصاب من دون الله . وان الرسول انما نهى عن مضاهاة الله في علية الخلق . وتوعد المصورين بالعذاب يوم القيمة ، لتصویرهم الله في صورة الاجساد^(٣) . فقد حرم الاسلام تشبيه الله بالکائنات « وليس كمثله شيء »^(٤) .

(٣) انظر كتابنا الفن والقومية - دمشق ١٩٦٥ ص ١٢ وما بعدها .

(٤) انظر بحثنا صورة الرب ، مجلة المعرفة العدد ٥١

ولقد استطاع الفن الاسلامي ان يتطور نحو شخصية فنية متميزة عن سابقتها ، ذلك ان جيل الفنانين الذي اف ممارسة الصيغ والصور حسب ارشادات الكنيسة البيزنطية او القصور الساسانية ، قد حل محله جيل جديد من دخل الاسلام الى قلوبهم وعقولهم فأثر في مفاهيمهم وأذواقهم ، فكان انتاجهم أكثر تحررا من الصفات الموروثة وأكثر ارتباطا بمفهوم جمالي جديد .

ولم يكن الفنان الشامي ليتحاشى تصوير الوجوه والمخلوقات في عمله الفني ، فلئن فعل ذلك في قبة الصخرة والمسجد الكبير في دمشق ، فلأن هاتين المنشأتين الدينيتين تحتاجان ، بحكم صفتهم ، الى تزيينات مطلقة مجردة ، وحتى ما نراه من صور بيوت وأنهار وبساتين على جدران المسجد الكبير ، فإنه يبقى رمزاً محظياً عن الواقع ، ولم تنجح جميع المحاولات المؤلفين والمؤرخين لربط هذه الصور بمشاهد محلية أو بالكعبة أو بغير ذلك من الاماكن المعروفة في ذلك الزمان .

لقد عاش المصور الشامي قبل الاسلام في بيئة مسيحية لم تنظر الى الصور المشبهة على أنها أوثان ، ولم يخطر في ذهن الكنيسة الشامية أن تقدس الصور ، بل على العكس لقد قام الاباطرة البيزنطيون من أهل الشام من أمثال الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ - ٧٤٠) بمحاربة تمجيد الصور (الايكونوكلازم) ، بل كان هو اول من اصدر قراراً بتحريم التصوير عام (٧٣٦) خشية العودة الى الوثنية ، ثم جاء ابنه قسطنطين الخامس واصدر القرار الثاني ، وقاوم جميع المحاولات المضادة ، الى ان تمكن تيودورا من تحقيق الاصلاح الارثوذكسي (٥) .

(٥) انظر كتابنا تاريخ الفن والعمارة - دمشق ١٩٧٠ ص ٢٣٣

وهكذا استمرت ممارسة التصوير التشبيهي في بداية الاسلام ، بل استمرت طيلة الحكم الاموي ، ولقد كان ظهور النقد الاسلامي عام (٧٥ هجري) وعليه صورة عبدالملك بن مروان رغم ورعيه^(١) من اوضح الامثلة على عدم وجود مانع ديني يحول دون التصوير التشبيهي وخاصة تصوير الخلفاء، وهكذا قام المصورون المهرة بتزيين جدران وبلاطات القصور ، بصور آدمية ملونة قريبة من الواقعية وقريبة من القواعد التشريحية وقواعد المنظور احيانا ، مرتبطة برموز ومواضيعات لعلها ذات أصل وثني تم ذلك في قصور الخلفاء انفسهم ، مثل قصر العير الغربي الذي اعيد انشاء واجهته في المتحف الوطني بدمشق ونقلت اليه اللوحات الفريسك التي تمثل فارسا قاتلا فوقه صورة موسيقيين ، وعازفا على الناي وعازفا على القيثار وثمة لوحة اخرى تمثل (جيا) آلهة الارض يحيط عنقها ثعبان وفوقها مخلوقان عجبيان اطلق عليهما شلومبرجي اسم (القنطورس البحري)^(٢) .

أما في قصیر عمره الذي اكتشفه موزيل عام (١٨٩٨) ، فانه Musil يحوي عددا من الصور الجدارية بل تکاد تغطي جميع جدرانه صور تشبيهية ملونة تمثل مشاهد المصارعة والاستحمام ونساء عاريات ، ومجموعات من الاسر مع مشاهد عمارات ووجوه لعلها مستوحات من الاساطير الوثنية . كما غطيت القبة من الداخل بالابراج السماوية . وثمة مشاهد قد اتلتقت مع الاسف ومازالت صورها التي التقاطها اعون موزيل موجودة حتى الان ، منها ما يمثل الخليفة بوضع جليل وعليه كتابة عربية ناقصة يصعب استكمالها والمشهد الثاني الذي تلف تماما فيما بعد ، هو مشهد الملوك الستة ، وقد

(١) يروى ابن الطقطقى في « الفخرى في الاداب السلطانية » – القاهرة ١٩٢٧ ص ٨٩ ، ان الخليفة عبد الملك كان قبل الخلافة « أحد فقهاء المدينة » ، وكان يسمى حمامه المسجد لما دامته تلاوة القرآن .

R. Ettinghausen : La peinture arabe, p. 34.

(٢) انظر

ظهروا في صفين بحسب اهميتهم وقد كتبت اسماؤهم بالعربية واليونانية فوق رؤوسهم ، وهم امبراطور الروم البيزنطيين، وشاه ايران الساساني، ورودريك اخر ملوك الفيسبونت في اسبانيا ، ونجاشي الحبشة . ولعل الامبراطورين الآخرين ، هما امبراطور الصين وملك تركي او هندي^(٨) .

ويدعى بعض المؤرخين ان التأثير الهلنستي في التصوير التشبيهي الذي نراه في قصور الامويين في بلاد الشام واضح ، ولكن المؤرخين من امثال برهيه Lammens و لامنس Bréhier يجمعون على القول ان بلاد الشرق الادنى كانت قد ابتعدت منذ البداية عن العناية بتصوير الاجسام واحترام علم التشريح وفق القواعد الهلنستية ، بل رجع الفنانون الى اصول الفن الراfdi يستوحون من قواعده الفنية والجميلة . وتبعا لهذه الاراء يتضح لنا ان التصوير الاسلامي في نشأته اتبع تقاليد محلية ، ومارسه فنانون محليون وفق تقاليدهم الخاصة ، ولم يمارسه الغرباء ولا حتى الفاتحون ، ولم يتأثر هذا الفن بمحاولات منع التصوير التشبيهي التي ظهرت على مايبدو فيما بعد .

أما في مجال تصوير المنمنمات فان المدرسة العراقية اذ تأثرت بالخطوطات المانوية ، حيث احتضن هذا المذهب العقائدي والتصويري ، المؤمن (٨١٣ - ٨٣٣) ، فان المنمنات السورية بقيت مرتبطة بـ تقاليد الفن المحلي التي حفظها المصورون الشاميون النساطرة واليعاقبة ، الذين استمروا في ممارسة تصوير الكتب الاسلامية وتذهيبها .

أشهر الرسوم الجدارية في بلاد الشام :

اكثر القصور الاموية في بلاد الشام ، زينت برسوم جدارية تشبيهية ومن ابرز هذه الرسوم ما زاد مائلا حتى اليوم في قصير عمره .

(٨) نفس المرجع ، ص ٣٠

يرى ايتهاوسن^(٩) ان الرسوم الجدارية في قصير عمره تمتاز بأمرتين هامين : التنوع الخارق في الموضوعات التي اتشرت في مساحات الجدران كلها ، ثم الانتقال المفاجيء من موضوع الى اخر ، والسعى التقسيم لمشهد الى وحدات اصبحت فيما بعد من صفات فن التصوير عند العرب .

ان من ابرز المواضيع التي عالجها المصور في هذا القسم من القصر او المدينة الاموية ، وهو الحمام تعطينا فكرة عن الهدف من بناء هذه المجموعة السكنية التي تخص الخليفة وجماعته ، فلقد حفلت الجدران برسوم ملونة تمثل مشاهد الصيد ، وبعضاها يمثل الصيد وذبح الظباء دون أن يedo بوضوح أمير الصيد ، كذلك تظهر مشاهد استحمام ، وتمارين رياضية ، وأوضاع مصارعة ومنازلة ، وبعض الصور لنسوة عاريات في اوضاع مختلفة أو ضمن مجموعات متجانسة . ولقد عثر على رسوم آلهة اسطورية اغريقية للفلسفة والتاريخ والشعر .

وثمة ثلاثة مواضيع مميزة لا بد من عرضها مستقلة وهي :

- ١ - مشهد سماء مزينة بالنجوم والكواكب وقد رسمت داخل قبة قسم المشلح في الحمام ، وهو صور رمزية للسماء وما فيها من أجرام تعطي دلالة على « تفهم مباشر وعقلاني للظواهر الطبيعية »^(١٠) .
- ٢ - وفي نهاية الرواق الاوسط لقاعة الدخول الكبرى . عثر على صورة جدارية لل الخليفة جالسا على عرش ومحاطا بهالة ومعه مرافقوه ، ويضم المشهد صور وحوش بحرية هائلة بصورة طير مائي ، وكان ثمة كتابة

R. Eittinghausen : La peinture arabe - Skira

(٩)

انظر الترجمة العربية ص ٢٩ قام بالترجمة الاستاذان عيسى سلمان و سليم التكريتي

(١٠) نفس المرجع ص ٣٠

تشير الى اسم الخليفة تلقت في عهد موزيل دون ان يتمكن أحد من قراءتها .

ومن الصور الهامة المشاهد الموجودة على السقوف المعقودة والمقسمة الى أفاريز مربعة وكل مربع يتضمن مشهدا من مشاهد العمل العادي ، مثل الفخاري والنجار والمزارع الخ ..

٣ - والمشهد الثالث الذي أثار كثيرا من الجدل ، صور ستة ملوك عليهما كتابات عربية واغريقية تميز أربعة منهم وهم قسطنطين وروذريق آخر ملك قوطي في إسبانيا والنجاشي ملك الحبشة وخسرو ملك الساسانيين ، ويعتقد أن الملكين الآخرين هما امبراطور الصين وحاكم هندي أو تركي .

ولقد رأى أولينغ غرابار^(١) ان هذه الصور تمثل الملوك الذين هزموا على يد عبدالملك بن مروان الذي وقعت في عهده فتوحات واسعة في آسيا وافريقيا وأوروبا فوصل العرب المسلمين إلى الصين واعالي الترستان وشمال افريقيا وإسبانيا وكانت له في الواقع سيطرة على هؤلاء الملوك جميعا .

ويعتقد ايتنهاوسن^(٢) ان مواضع هذه الصور وهي صورة الخليفة المتوج الذي يشبه صورة سيد الكون ، وصور الملوك الستة ، تدل على الفكرة القائلة « من ان الخليفة كان يحكم الأرض التي كان يظن انها محاطة بالمحيط ، تدل عليه الوحوش البحرية وتقطنه السماء التي رمز إليها بالطيور^(٢) »

(١) نفس المرجع ص ٣٠

(٢) نفس المرجع ص ٣٢

وتبدو الصور العارية نموذجا واضحا على مفهوم الجمال الذي كان سائدا عند العرب حتى العهد الايوبي ويقول ايتهاوسن^(١٣) « ان هذه الصور تعكس بصدق المفهوم العربي للجمال الانثوي ويلخص المشاهد الفرامية المستحبة في الشعر العربي » .

على ان اصول الرسم في قصیر عمره تعطينا دليلا على تأثيرات كلاسية كانت قد تركت بصماتها في المنشآت التي أحدثت خلال العصر الروماني والبيزنطي في البلاد ولكن شخصية الفنان العربي استمرت واضحة ويتجلی ذلك في عمليات التحوير والتبسيط التي بدت بصورة خاصة في رسم الهيئات البشرية ، مما ينسجم مع مفهوم الفن العربي الذي استمرت ملامحه واضحة في الفن التدمري وفي الفنون المسيحية .

ولذلك فانه ليس من شك اطلاقا في هوية الفنان الذي رسم هذه الصور، فهو عربي آرامي او عربي مسلم من سكان البلاد ولقد صور حسب الطريقة التقليدية التي كانت سائدة ويفوكد ايتهاوسن ذلك بقوله^(١٤) :

« لقد تبين عند التدقيق في الرسوم الجدارية في قصیر عمره ان الكتابات الاغريقية التي نقشت كانت معرضة للخطأ والمحذف ، وان الرسام عندما اراد ان يكتب بالعربية لم يكن صعبا عليه ولكن بعض الكتابة العربية ما زالت متعلقة بالعروق الارامية ، مما يدل على ان السكان العرب الاصليين وليس ضروريا ان نسأل ما إذا أصبحوا مسلمين ، قد قاموا فعلا بنقل هذه الرسوم ، وهو امر بدائي ولكن هذه الواقعية تزيده وضوحا . »

(١٣) نفس المرجع ص ٣٢

(١٤) نفس المرجع ص ٣٢

ذخرفة قصر الحير الغربي

لقد تبين ان بعض الجدران في قصر الحير الغربي قد زينت بالخشب المنقوش عشر على قطع منها تحتفظ بعض الرسوم الملونة والمذهبة تمثل أزهاراً واسكالاً هندسية انحصر وجودها في البناء الداخلي ٠

اما جدران الغرف فلقد كانت مطلية برسوم ملونة بعضها ذخرفي لا يمثل اشخاصاً او حيواناً ، وهي تزين غرف الطابق السفلي من البناء ، وهذه الزخارف على ثلاثة انواع ، منها ما يمثل نضداً من الخطوط او الشرائط الافقية العريضة وقد استعمل فيها ثلاثة الوان هي الابيض والحديدي والخمرى ، والنوع الثاني هو عبارة عن تمثيل ملون يشبه الرخام ويصور عمداً متشابهة تقوم في الزوايا مؤلفة من اتفاقيات متكررة ، والشكل الثالث يمثل رسوماً هندسية او نباتية وواحد منها فقط يمثل حيواناً خرافياً ، تضاف الى هذه الرسوم وعلى صف مواز دوائر تزيينية ممتعة ٠

وتتألف ذخرفية قصر الحير الغربي من الزخارف الجصية في واجهة القصر ومن الزخارف الجدارية المشابهة للتمثيلات الرخامية ومن ذخرفات الكوات (شكل ١٨) ومن الصور الملونة الكبيرة وفيما يلي شرح لهذه الانواع من الفنون :

أ - واجهة القصر

وهي مجموعات من الزخارف الجصية النافرة منتشرة بارتفاع ٤٥ متر على البرجين المحيطين بالمدخل الشرقي الوحيد وهذه الزخارف الكثيفة تذكرنا ببعض الصيغ التزيينية التي كانت ت نقش على القطع القماشية الشائعة وخاصة السياسية منها ، ويزيد من التأثير السياسي في هذه الواجهة استعمال الجص للمرة الاولى ٠ وكثافة الزخرفة تفسر المفهوم العربي الراسخ في الزخرفة وهو املاء الفراغ الذي فسر تفسيرات كثيرة منها الخوف من الفراغ Ramchu

كما يقول هيرزفيلد^(١٥) . وتألف هذه الزخرفات النباتية من اوراق الاقنة والسعف والكرمة ، ومن مواضع هندسية مختلفة يضاف اليها بعض الفسيفساء الزجاجية في زاويتي القوس المدور فوق المدخل^(١٦) .

ب - الرسوم التشبيهية

ومن اهم الالواح التزيينية التي ما زالت بوضع جيد ، صورتان كبيرتان أعيد تركيبيهما في القسم العلوي من جناح قصر العير الذي أعيد بناؤه في المتحف الوطني بدمشق ، وألوان هاتين الصورتين أصبحت باهته مع الايام وكانتا كما يقول شلومبرجيه تعطيان أرضية زوايا الدرج ، ويعتقد ايتها وسن أنها تقليد للفسيفساء أقيمتا حيث عزت أحجار الفسيفساء وتقاليده .

تألف الصورة الاولى من شكل دائري في الوسط يضم صورة نصفية لأمرأة تمسك بقطعة قماشية مليئة بالفواكه ولقد طوقت عنق هذه المرأة أفغى مما يذكرنا بصورة حيا آللة الأرض ، ويحيط الشكل الدائري نطاق فيه دوائر صغيرة متابعة فيها رسوم نباتية ويزين أطراف الدائرة من الخارج زخرفة نباتية محورة يعلوها مخلوقان يبدآن انسان ورأس وقدمي حيوانين وذنب أفغى ، أطلق عليهم شلومبرجيه اسم القنطورس البحري . وصور حيوانات الجهة الأخرى لم تعد واضحة لتلفها وهي تمثل ثعلبين أحدهما يأكل عنبا وطيرين من الكراكي وكلب يتعقب حيوانا آخر .

ويحد الصورة من الطرفين شريط من الزخارف النباتية سيصبح في الرقش العربي أساسا للزخرفة والتزيين ، أما الصورة الثانية فهي تتألف من مستطيل كبير مقسم إلى ثلاثة أقسام ذات ارتفاع غير متساو ، ويحيط الصورة

(١٥) E. Herzfeld : Problem Der Islam P. 32.

(١٦) انظر تفاصيل زخرفة واجهة القصر في دراسة الدكتور عدال الحق - الحوليات ٣٨/١٢

كلها شريط زخرفي مؤلف من وردة مكرورة ذات أربعة وريقات ، موضوع القسم العلوي موسيقيان ، امرأة تعزف على العود ورجل ينفخ في ناي يفصلهما قوسان منفصلان ، ولقد وجد الفنان المصور أنه من الممكن اشغال بعض الفراغ في الصورتين فأضاف غرستين ملوتين في كل قسم .

وظهر في القسم الثاني فارس يسابق الريح يطارد العزلان فيسقط أحدهما على الأرض جريحا ، بينما يهرب آخر وقد التفت مذعورا إلى قناته الذي يسد سهمه باتجاهه .

وتبدو هذه المشاهد أليفة في الفن الساساني ، إن ظاهرة الاهتمام بالتقالييد الفنية الساسانية تفسر حسب رأي « ه . أ . ر . ج » تطلع هشام بن عبد الملك لتوسيع ثفوذه باتجاه الشرق الفارسي بعد أن يئس من القضاء على الروم . ولقد كلف الخليفة هشام ، المؤرخ العربي المسعودي ، بترجمة المعلومات المفصلة ملك الساسانيين المنحدرين مع صورهم بملابسهم المميزة . وترمز هذه الصورة التزيينية إلى أن العالم الممثل بجيأ آلهة الأرض مع الوحوش البحرية الدائيرية ، وقد انبسط هذا العالم تحت أقدام الخليفة الذي شمل سلطانه أكبر رقعة مسكنة ، ومن المؤكد أن الفنان المحلي الذي ما زال يحتفظ بكثير من ذكريات الأساطير الوثنية التي كانت سائدة في الفن قد صور تلقائيا هذه الرموز دون أن يكون لها أي ارتباط بالعقائد الوثنية .

ج - النحت

يمتاز قصر العير الغربي باحتواه على نوعين من النحت ، النحت الزخرفي وهو عبارة عن أشكال نباتية محورة أو هندسية مجردة مصنوعة من الجص البارز (في الواجهة) او من الجص المفرغ (في النوافذ) ، وهذا النوع من الزخرفة هو بداية الرقش العربي Arabesque على الرغم من عناصر ساسانية ورومانية .

والنوع الثاني من النحت هو النحت التباهي الذي حفل به القصر والذى يشابه بأسلوبه وطريقة تنفيذه النحت الذى عثر عليه في قصر المفجر قرب اريحا . ونستطيع القول منذ الان ان وحدة فن النحت في هذين القصرين واضحة جدا .

ومن اهم اللقى النحتية التباهية التي عثر عليها واعيد ترميمها ، هي تمثال شخص يمكن ان يكون الخليفة هشامما يؤكد ذلك مقارنته مع تمثال مشابه وجد في قصر المفجر ، ويعتقد ان مكان هذا التمثال هو العجيبة الخارجية فوق الباب مباشرة .

وفي اعلى الواجهة صف من التماثيل النصفية عثر على ثلاثة منها تمثل نسوة عاريات وفي مكان اخر ثلاث قطع منحوتة لثلاثة خراف وحيوانات اخرى يميز من بينها فهود .

وفي طرف القوس العلوي اليمين اعيد تركيب تمثالين احدهما رجل مضطجع وجلس الى جانبه امرأة في وضع يشبه اوضاع التماثيل التدميرية «الجنازية» ، وثمة تماثيل اخرى يعتقد انها كانت موجودة في جدار رواق الطابق الثاني من الواجهة الداخلية الشرقية ، ولقد أعيد تركيب ما عثر عليه منها ، تمثال بارز لفارس متوجه الى اليمين فقد رأسه وبقي معطف الفارس وكتاته وكان هذا التمثال ملونا ، ومنها تمثال رجل جالس على عرش قائمتاه محرزتان ويضع قدميه على كرسي صغير ولم يبق من هذا الرجل الا نصفه السفلي ، وهو ملون أيضا ، ثم تمثال نسر باسط جناحيه بأرياش منتظم آفاقيا . وثمة تماثيل اخرى كتمثال امرأة في وضع متحرك ذات ثوب شفاف ملتصق على جسمها المكتنز . وتمثال امرأة عارية الصدر ورأسها مفقود ، وجذع تمثال لامرأة عارية الصدر ونصف تمثال رجل .. وغير ذلك .

ان اسلوب فن النحت شأن اسلوب فن التصوير يعطيها فكرة واضحة عن مبادئ الفن العربي التي ظهرت دائماً في عهود سابقة للإسلام على الأرض العربية وهي دائماً تميل إلى التحويه والارتباط بروية ذاتية ولكن بنوع من التمطية واستمرت هذه الخصائص في الفن الإسلامي الذي جنح نحو التجريدية ليس لمنع واضح ولكن لطبع متصل^(١٧) .

لقد اعيد انشاء جزء من هذا القصر في المتحف الوطني بدمشق عام ١٩٥٠ بعد جهود استمرت اربعة عشر عاماً ، ولقد ساهم في ذلك العمل الامير جعفر الحسني والدكتور سليم عادل عبدالحق باعتبارهما المديرين العامين للآثار المتابعين والسينان جان ايكونشار ونسيب صليبي^(١٨) .

ابتدأت أعمال ترميم قصر العمير عام ١٩٣٩ ثم تباطلت بسبب الحرب العالمية الثانية ثم انتهت عام ١٩٥٠ ولقد اعيد بناء البرجين بارتفاع ١٤٤٥ متراً ، كما شيد بيتان داخليان من بيوت القصر وانشئ في داخل الواجهة جناح مفتوح عرضت فيه بعض القطع الأثرية التابعة للقصر مع مجسمين ، وفي الطابق العلوي اقيمت بعض العواجز العاشرة بالتماثيل النافرة ، وفي الداخل تركت قاعة كبيرة بدون تقسيم لكي تضم لوحتي الفريسك الشهيرتين مع بعض القطع الأخرى .

وفي عام ١٩٧٤ قمنا بإنشاء فرع آخر في متحف تدمر ، عرضنا فيه بعض القطع المتبقية من آثار قصر العمير وخاصة أجزاء من الرسوم الجدارية ومن المنحوتات وال شبكيات .

(١٧) انظر دراستنا في هذا الموضوع في كتابنا (الفن والقومية)

(١٨) انظر د سليم عبدالحق . اعادة تشييد جناح قصر العمير الغربي في متحف دمشق الحوليات المجلد ١ - ١٩٥٠ .

زخرفة قصر المشتى

يعتبر قصر المشتى من اكثـر القصور الاموية زخرفة ويـكفي ان نـذكر زخرفة واجـهـته ، والمـوجـودـة في مـتحـفـ الدـولـة في بـرـلـينـ وهذهـ الـواـجهـةـ تـعـطـيـ القـسـمـ الـاـمـامـيـ لـلـبـنـاءـ الـاـوـلـ الـذـيـ يـتـضـمـنـ الـبـوـاـبـةـ الرـئـيـسـيـةـ وـيـتـأـلـفـ هـذـاـ القـسـمـ مـنـ بـرـجـيـنـ دـائـرـيـنـ وـبـرـجـيـنـ مـضـلـعـيـنـ (ـ ٥ـ أـضـلاـعـ)ـ وـبـيـنـهـماـ جـدـارـانـ عـلـىـ جـهـةـ عـرـضـهاـ سـتـوـنـ مـتـرـاـ .ـ وـتـعـطـيـ الزـخـرـفـةـ جـمـيـعـ هـذـهـ الـواـجهـةـ وـبـشـكـلـ كـيـفـ اـبـتـدـاءـ مـنـ الـقـاعـدـةـ ٤ـ٧ـ سـمـ ثـمـ الـعـتـبـةـ (ـ ٢ـ٨ـ)ـ ثـمـ الـواـحـ الجـدـارـ ٢ـ٩ـ٥ـ سـمـ يـعـلوـهـ طـبـانـ ٩ـ٠ـ سـمـ .ـ وـتـأـلـفـ الـواـحـ الـواـجهـةـ مـنـ مـسـاحـاتـ مـثـلـيـةـ يـعـدـ ضـلـعـيـهاـ الـمـتـسـاوـيـيـنـ اـطـارـ زـخـرـفـيـ مـمـتدـ وـمـتـصـلـ عـلـىـ طـوـلـ الـجـهـةـ بـشـكـلـ مـنـكـسرـ وـكـلـ مـثـلـ حـافـلـ بـالـزـخـرـفـةـ النـبـاتـيـةـ وـالـحـيـوـانـيـةـ وـفـيـ وـسـطـهـ زـهـرـيـةـ كـيـرـةـ مـنـ ستـ حـنـيـاتـ فـيـ الـمـلـثـاتـ الـقـائـمـةـ إـلـىـ أـعـلـىـ .ـ

ولـابـدـ مـنـ اـبـدـاءـ الـمـلـاحـظـةـ التـيـ عـرـضـهاـ كـرـيـزـوـيلـ مـنـ اـنـ نـوعـ الزـخـرـفـةـ فـيـ مـلـثـاتـ القـسـمـ الـاـيـسـنـ مـنـ الـبـوـاـبـةـ يـخـتـلـفـ عـنـ الزـخـرـفـةـ فـيـ القـسـمـ الـاـيـسـرـ وـاـنـهـماـ تـيـقـيـةـ مـدـرـسـتـيـنـ مـخـتـلـفـتـيـنـ مـنـ الصـنـاعـةـ الـفـنـيـةـ الـيـدـوـيـةـ ،ـ فـيـ مـلـثـاتـ النـصـفـ الـغـرـبـيـ نـرـىـ الزـخـرـفـةـ مـؤـلـفـةـ مـنـ اوـرـاقـ الـكـرـمـةـ وـبعـضـ الطـيـورـ تـنـقـرـ العـنـبـ ،ـ كـمـ نـرـىـ فـيـ الـمـلـثـ الـرـابـعـ وـالـنـاسـعـ زـوـجاـ مـنـ الـحـيـوـانـاتـ الـمـتـقـابـلـةـ فـيـ مـرـكـزـ الـمـلـثـ يـلتـقـيـانـ حـولـ مـزـهـرـيـةـ ،ـ بـعـضـهاـ بـعـاـيـةـ الـاـنـقـانـ .ـ وـمـنـ الـمـؤـسـفـ اـنـ القـسـمـ الشـرـقـيـ مـنـ الـبـوـاـبـةـ اـصـابـهـ التـعـدـيلـ مـنـذـ عـامـ ١٨٧٢ـ حـيـثـ زـارـهـ تـرـسـتـراـمـ اـذـ فـقـدـتـ كـثـيرـاـ مـنـ الزـخـرـفـاتـ التـيـ كـانـتـ تـتوـسـطـ مـلـثـاتـ الـعـلـيـاـ ،ـ وـتـبـدوـ الزـخـرـفـةـ النـبـاتـيـةـ هـنـاـ اـكـثـرـ دـقـةـ .ـ وـنـرـىـ فـيـ مـلـثـاتـ الـاـوـلـ وـالـثـانـيـ وـالـخـامـسـ اـنـ هـذـهـ الزـخـرـفـةـ النـبـاتـيـةـ تـصـدـرـ عـنـ فـرـعـيـنـ مـعـروـسـيـنـ بـاـنـاءـ فـيـ الـوـسـطـ ،ـ اـمـاـ فـيـ الـثـالـثـ وـالـرـابـعـ فـانـ الـفـرـوعـ تـصـدـرـ عـنـ الـاـرـضـيـةـ مـباـشـرـةـ وـفـيـ اوـسـطـ الـمـلـثـ شـجـرـةـ نـخـيلـ .ـ

الرسوم في قصر المفجر

واكتشف العلман هاملتون وبaramki في قصر المفجر ما يقرب من مائتين وخمسين قطعة مصورة وعشرا على عدد كبير من الفسيفساء والتي بقيت بحالة جيدة ، ولقد نقلت أكثر القطع التصويرية إلى المتحف الفلسطيني بالقدس^(١٩) ولقد وجدت الصور في الجزء الرئيسي من القصر وفي الحمام الكبير التابع للقصر . وهي جميعها تقريباً مؤلفة من صنع هندسية غنية التوع، كثيفة .

ويمتاز قصر المفجر بـ خارقه الفسيفائية الهامة جداً^(٢٠) ، فإذا استعيض عن هذه الألواح بصورة ملونة في قصر العير الغربي ، فهي هنا فسيفساء حقيقة مؤلفة من مكعبات حجرية ملونة تشكل صوراً تشبيهية أو زخرفية رائعة التصميم والتنفيذ .

ومن أهم هذه الألواح الفسيفائية قطعة كبيرة تغطي قاعة الاستراحة بالحمام الكبير وتزين القسم المجوف المرتفع الذي يقع في نهاية القاعة . ويتصل بهذه الصورة الكبيرة عدد من الصور مما يجعل هذه الغرفة المترفة شديدة الزينة رائعة الجمال ، فأرض القسم المربع مفروشة بالفسيفساء أيضاً، ولكن برسوم هندسية ملونة بنفس الشكل الذي استعملت به على الدكة المجوفة المرتفعة المحيطة بها ، ويظن هاملتون^(٢١) أن قطعة الفسيفساء هذه هذه تمثل بساطاً لأن فيها أهداباً تشبه حاشية أنواع معينة من الأبساطة .

D. C. Baramki : Deep. Ant. Palestine, 5, 1936.

(١٩)

S. 32 ff 6-1937

S. 157 8-1939

51 10-1940

(٢٠) نفس المصدر .

R. W. Hamilton : Khirbet al-Mafjar, An arabian mission in
in the Jordan Valley. (٢١)

ومع ذلك فان هذه الزخارف الهندسية تعتبر من اروع الآثار الاسلامية في الفن بل يجعلها نماذج من تأثير الفن الاسلامي على الفن الحديث التجريدي والبصري . فلقد رصفت ضمن تشكيلات منسجمة كل تشكيل مختلف عن الآخر ، وهذه القطعة هي أضخم قطعة فسيفسائية عرفت حتى ذلك الوقت ، وهي مازالت بحالة جيدة كاملاً حتى اليوم .

اما الصورة الاساسية التي تزين ارضية الحنية في غرفة الاستقبال هذه فهي صورة تشبيهية رائعة التكوين مؤلفة من شجرة تنام او نارنج مع نباتات اضافية على طرف الشجرة حيث تختلط هذه النباتات من اليسين بصورة اسد ينقض على غزال هلم ، بينما يبدو في الجهة اليسرى غزالاً هادئاً ينعمان بقضم بعض اوراق هذه النباتات ، ومتنازع الشجرة بواقعيتها اذ روعي فيها اختلاف مقاييس الفروع والاغصان الطبيعي كما روعي التكوين المدرسي فلقد ظهرت الاوراق في الوسط صفراء شاحبة يعقبها اوراق خضراء ثم اوراق زرقاء مخصوصة قائمة ومقابل هذه الالوان تبدو الشمار بلون احمر ساطع ولقد التفت فروع الشجرة واغصانها بشكل واقعي صرف .

وتعتبر هذه الفسيفساء هي الوحيدة ذات التصوير التشبيهي ولأنها وضعت على منصة مرتفعة مخصصة للخليفة على ما يبدو ، فانها ذات قيمة خاصة او وظيفة خاصة كما يرى ايتناوسن (٢٢) « اذ أنها توضح حسب رأيه قوة الخلافة التي لا تقاوم فلقد نجح الفنان بالتأكيد على الانسجام الرمزي بين الشجرة و العالم وهو امر مأثور حتى ذلك الوقت) .

والشيء الهام في هذه اللوحة هو الاسلوب الانتقائي الذي جمع عناصره من مختلف الفنون القديسة والسائلدة كالفن الروماني والساساني والبيزنطي . وهذا الاسلوب يبقى الى حد بعيد ميسما الطريقة الفنية عند الامويين الذين كان عليهم دائما ان يقيموا النماذج الاولى للعمارة والفن الاسلامي .

(٢٢) نفس المرجع ص ٣٩

النحت في المفجر

وأروع ما في هذه الغرفة هو سقفها المقبب المنشى بالنحت الجصي ، ثم القبة التي تلعل القسم المربع وهي قبة عالية فيها رسوم على هيئة جياد طائرة وفوقها أفريز مؤلف من صور نافرة مدهونة تمثل طيور العجل . وفي عنق القبة نوافذ ذات زجاج معشق ملون . وتزدان القبة بمنحوتات بد菊花ة مؤلفة من ست اوراق منها ست رؤوس لرجال ونسوة ملونة وراء اغصان الكرمة وأكثر هذه الشواهد النحتية الجصية نقل الى المتحف الفلسطيني في القدس مع منحوتات حجرية من اهمها تماثيل لرجال ونساء كاملة او نصفية كان بعضها موجودا في المدخل المسقوف بقبة تعتمد على دعائم الاقواس الجانبية ، وعلى دعائم هذه الاقواس كانت تقوم تماثيل لأشخاص ذكور يحملون رباطا من اوراق الخرشوف فوق صف من الخراف العاجضة مع امتداد الدائرة^(٢٣) ويتألف عنق القبة من اثنى عشر تجويفا محرايا يقف في كل منها تمثال لذكر او اثني متاليين ، هذه التماثيل مدهونة بالوان جذابة وتضم واجهة المدخل محرايين عشر في احدها على تمثال يعتقد أنه للخليفة هشام وذلك بمقارنته مع تمثال هشام في قصر العير العربي . ولكن هذا التمثال ملون ويحمل سيفا ويقف على أسددين جاثمين .

لحنة عن فن الايقونات الشامية

الايقونة كلمة يونانية تعني الصورة او التمثال ، وهي وان كانت في الحقيقة لا تهدف الى محاكاة الاصل والواقع ، فانها تسعى الى تصوير القديسين بصورة نمطية تتجلى فيها حقائق علوية . وتتمثل الايقونات المسيح والعذراء والثالوث المقدس ، كما تمثل الانجيليين الاربعة .

R. W. Hamilton : The sculpture of living at Khirbet al Mafjar The Quarterly of Dap. Ant. Pal. V, XIV, P. 109. (٢٣)

ولم ينهض الفن الايقوني الا بعد انتهاء عهد تحطيم الايقونات
(الايكونوكلازم) واعتلاء الاسرة المكدونية عرش المملكة الرومانية الشرقية .
فلقد دخل تكريم الايقونة خلال القرن الثامن في طور متطرف ، اذ تمادي
المؤمنون في اكرامها حتى أصبحت موضع عبادة .

وتجتاز ممارسة التصوير المقدس طقوسا خاصة . فليس بمقدور أي
مصور ممارسة هذا النوع من الفن السامي .
وتلخص الكنيسة الشروط النمطية التي يجب على المصور ان يتقييد
بها فهی :

- ١ - ان ينزعه أجساد القديسين عن الهيولي .
- ٢ - ان يتحقق هدف التصوير الايقوني وهو ابراز القديسين وقد تجلى
عليهم روح الله واخذوا يتلاؤون بالضياء .
- ٣ - ان ترسّم فيهم جميعا صورة المسيح .
- ٤ - ان يصور ملامح القديسين وهي متوجهة نحو الكمال المتمثل بالله
« الذي لم تره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر » .
- ٥ - يقتضي ان لا تحمل الايقونة طابع الفنان او اسلوبه او تخضع لتقلب
الظرف حسب العصور .

ومن المؤكد ان اكثرا الصور المقدسة الموجودة في سوريا كانت من صنع
رهبان من الشام ولقد ابتدأ ذلك منذ القرن السادس عندما ظهرت في انتاكية
صورة السيد المسيح التي اطلق عليها اسم (المسيح السوري) والتي حلّت
في الغرب محل الصورة المستعارة من صورة أبولون او الراعي الصالح
واصبحت الصورة تمثيل السيد المسيح نحيل الوجه صوفي الملامح ذات الحية
مدينة صغيرة عيناه سوداوان او زرقاوان ، شعره ناعم مسترسل على كتفيه ،
تغمره المهابة والجلال وتحيط بهامته هالة من نور .

اما العذراء فلقد صورها الفنانون بشكل جليل مهيب ووجه مستطيل
وثياب فضفاضة ، ووقفة رصينة وقورة .

ولقد استمر الصليب المجرد زمناً يرمي الى عذاب المخلص ، وكان أهل
الشام اول من صور المسيح على الصليب .

ومنذ بداية القرن الثامن عشر بدأنا نرى تمسكاً بانتقادات الفنية المحلية
رافق ذلك استعمال اللغة العربية مكان السريانية في الطقوس والاداب الدينية
وكان من مشاهير هذه الحركة التعرية عبدالله زاخر في اللغة ويوسف
المصور ونعمة في التصوير . ولقد اعتبر جول لوروا ان ايقونة العموديين
الموجودة حالياً في دير الامان في لبنان « نقطة رائعة للدراسة ينبغي القيام بها
للرسم الديني ، في نهاية القرن السابع عشر » .

اما يوسف المصور فهو اقدم مصور ايقوني شامي معروف ، ولقد ذكر
اب نصر الله معلومات عن حياته فقال : « انه ولد في حلب في النصف الثاني
من القرن السادس عشر وامضى القسم الاكبر من حياته في مدینته ومارس مهنة
تصوير الايقونات والنسيخ وتصوير المنمنمات ، ومات كاهناً بين عام ١٦٦٠-
١٦٦٧ . وهو اول ممثل لعائلة من رجال الدين الحلبيين الذين قدموا سلالة
من رسامي الايقونات تبتدئ بالكافن يوسف وابنه اب نعمة وحفيدته
الشمام خانيا واخيراً حفيد ابنته الشمام جرجس » . ومن اعمال يوسف
المصور منمنمة في مخطوطة محفوظة في المتحف الآسيوي مؤرخة في عام
١٦٦٠ ، وايقونتان محفوظتان في بيروت في مجموعة هنري فرعون . ويعتبر
اسلوب يوسف المصور وسيطاً بين التقليد اليوناني والاسلوب المحلي الذي
ظهر بوضوح في اسلوب ابنته عمه المصور .

ولقد تجاوز نعمة المصور والده يوسف ببراعته في تصوير الايقونات
التي عشر على عدد كبير من صورها خلال الاعوام ١٦٩٤-١٧٥٢ . ويمتاز
اسلوبه بدقة التصوير ونقافة المساحات اللونية في الوجه .

ويبدو الطابع المحلي في اسلوب نعمه واضحًا في ملامح الوجوه والالوان
وفي الاشياء ، وهو واز تقيد تماما بتعاليم التصوير الایقوني فانه تمت بحرية
كاملة في تصوير موضوعاته مما جعل فنه نموذجا هاما للفن الشامي في القرن
الثامن عشر ترك أثره في جيل كامل من المصورين من أمثال حنايا وجرجس.
وكثيراً يلوس عدا غيرهم من الفنانين الذين لم تصلنا أسماؤهم والذين تركوا
ايقوناتهم في الكنائس والأديرة السورية واللبنانية .

وحنايا المصور تدرب على يد والده نعمه في حلب ، واخذ عنه
جميع مكتسباته الفنية وما ان نهض حنايا مصورا بارعا حتى اصبح يدا
لوالده يقايسه الكثير من اعماله ويشتراكان معا في تأليف الايقونة وتكوينها
ومن أمثلة هذه الاعمال التي انجزها الاب والابن معا لوحة الدينونة او
الحساب الاخير الموجودة في كاتدرائية الأربعين شهيدا الارمنية في حلب .
وبمقارنة هذه اللوحة مع تلك التي صورها نعمه منفردا ، والتي تحمل اسم
الأربعين شهيدا ، محفوظة في دير سيدة البلمند في لبنان تتضح لنا فوارق
بين الاسلوبين تنبئ عن ولادة شخصية فنية جديدة ، هي شخصية حنايا
المصور .

ينتهي النصف الاول من القرن الثامن عشر ليظهر الشمس جرجس.
ابن حنايا مصورا نشيطا كثير الاتاج لم يلبث ان احتل شهرة بعيدة المدى
ليس لانه سليل اسرة عرفت بالمهارة والجدارة في تصوير الايقونات وحسب
بل لأن الشمس جرجس حرص على ارضاء الذوق العام الذي بات متأثرا
بتيارات الفن اللاتيني والفنون الكلاسيكية . تم ذلك في زمن كان تيار الكلاسيكية
المحدثة في الفن التشكيلي قد بلغ اوجه في باريس على يد دافيد وانفرز ، فكان
لابد ان يتاثر المثقفون من المسيحيين العرب بهذا التحول القوي نحو فن شديد
الارتباط بالواقع والقواعد التشريعية والمنظر .

ان شواهد فن التصوير والنحت في الشام كثيرة وافرة ، ولكن أغلبها يبتعد عن التشبيه ومحاكاة الواقع ، ويتجه نحو التحوير والتجريد . ولقد فسر هذا الاتجاه غير التشبيهي على انه ميل اصيل لدى العربي وأسلافه تجلى في الفن الراافي والأموري والارامي والكتعاني بصيغ معهودة او رمزية او تجريدية زخرفية . ولقد ايد الاسلام هذا الاتجاه ، بل لعله تشدد في الاحجام عن تصوير ونحت الكائنات الحية تبعا للحديث الشريف « يعذب المصورون الذين يضاهون بخلق الله »^(٢٤) .

ولقد مال المصورون المسلمين في الشام إلى تصوير المشاهد والازهار والفوائح بأسلوب مبسط بدائي تجلت فيه البراءة والعفوية والخيال ، وبالوان زاهية جداً ، ولكنهم برعوا في تكوين العناصر الزخرفية الهندسية والنباتية وتلوينها .

وهذا الفن الذي حمل دائماً التسمية العربية (ارابيسك) Arabesque ونطق عليه اسم (الرقش) ، هو فن عريق يرجع إلى ما قبل الاسلام ، ولكنه ازدهر منذ العصر العباسي واستمر خلال الفاطميين والايوبيين والماليك حيث بلغ ذروته .

ولقد تجلى الرقش العربي إلى جانب التصوير التشبيهي في محاولات تزيين المنشآت المعمارية المساجد والقصور ، نرى ذلك واضحاً منذ بداية الاسلام في مسجدبني أمية الكبير بدمشق وقصر الحير الغربي المنقول إلى المتحف الوطني بدمشق . واستمر شائعاً حتى العصر الحديث ، كما نراه ممثلاً على الخشبيات التي تزين جدران وسقوف القاعات . ولقد خصصت الحشوارات لتكون الواحة لصور ملونة نافرة احياناً ، بعضها يمثل زخرفات

(٢٤) انظر كتابنا الفن والقومية ص ٦٣

محورة مستوحة من الفصون والأوراق والازهار ، وببعضها ذو تشكيلات هندسية جاذبة ونابضة مركزها شكل مضلع او نجمة ، وتتفرع الخطوط اشعاعيا لتشكل تكويناً جذاباً طريفاً . وثمة حشوات اخرى كانت الواحاً موضوعات تشبهية .

ونحن نرى امثلة هذه الالواح الزخرفية في اكثر البيوت الشامية التي ماتزال قائمة حتى اليوم ، ولعل اشهرها قاعة مردم بك التي نقلت الى المتحف الوطني عام ١٩٦١ وأصبحت بعد ترميمها وبعد اضافة عناصر جديدة لها قاعة للمحاضرات تحت اسم « القاعة الشامية » ، وخشبات هذه القاعة الاصلية انجزت في عام ١٧٣٧ م ثم اعيد ترميمها عام ١٨٧٦ م . ولقد كان هذا التقليد الفني شائعاً في جميع المدن الشامية ويمتد الى العصر العباسي ، حيث عثر في الرصافة على اجزاء من تخسيبات مماثلة ، وفي متحف الدولة ببرلين . مخشبات صالة حلبية ترجع الى عام ١٦٠٠ م وتتوالى هذه الشواهد مماثلة في قصر العظم في دمشق عام (١٧٤٩) الذي يشغل متحف التقاليد الشعبية ، وقصر العظم في حماة (انتهى ١٨٣٠ م) الذي يشغل متحف حماة ، عدا عن الدور الشهيرة مثل دار السباعي ودار المجلد ودار حورانيه ودار جبرى وغيرها في دمشق ، او دار الدلال وبيت آجقباش في حلب^(٢٥) ، والكيلانية في حماة .

ومن اهم الاعمال التي انجزت في مطلع هذا القرن ، زخرفة وترزين . الجامع الاموي بعد ان احرق كله عام ١٨٩٢ واصبح انقاضاً متراكمة . ثم اعيد بناؤه وباموال الدمشقيين وتطويعهم العملي . واستمرت الاعمال الفنية فيه من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٥٩ ، وكان من اشهر المعماريين والمزخرفين الذين اشتراكوا في اعادة بنائه « الحموي ومعاونوه والتواام ، وملص واخوانه وان الذين نقشوا هذا النقوش البارع الذي جاء على مثال النقوش القديم واربى عليه

(٢٥) أسعد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٩١ - ٢٩٢

هم اولاد ابي نجيب الدهان الشامي العامي ، وانهم هم الذين صنعوا هذه الشبائك العجيبة الثلاثة التي هي فوق المحراب والثلاثة المقابلة لها » (٢٦) ولقد انتقل فن التزيين الملون على الخشب الى ابي سليمان الغياط . واولاده ومعاونيه من امثال احمد محفوظ ونادر اوشه باشي .

ان هذه النماذج وغيرها تشكل مجموعات رائعة من فن التصوير الزخرفي والتشبيهي ، مما يقدم لنا امثلة عن الفن التشكيلي الشامي قبل تأثيره الكامل بمفهوم الفن الحديث في العالم .

لقد جنح المصور حذرا الى الانتقال من الصيغ النباتية بشيء من الواقعية ، ففي اضمامه زهرة احيانا ، وهي مزهرية تضم باقة من الورد والاوراق ، ثم هي مشهد طاولة عليها مزهرية او صحن من الفواكه مما يسمى اليوم بالطبيعة الصامتة . وقد تتضمن الصورة مشهد مدينة او منظرا طبيعيا او بحرا . كل ذلك باسلوب بدائي بسيط لا يقيم وزنا للدقة وقواعد المنظور والنسب ، وهذا ما يسمى اليوم بالفن الساذج *naff* او بالفن المحلي *Insitic* وهو الفن الذي يعتمد على مشاعر فطرية لم تصقلها قواعد التصوير وعلومه ، ويمارسه هواة كوتهم الممارسة المستمرة التي ثبتت التجارب الاولى التلقائية .

ولابد من الاشارة الى نوع من الفن الشعبي احتل مرکزا هاما اليوم هو فن التصوير على الزجاج . ولقد رافق هذا الفن في بدايته ظهور القصص الشعبية واتشارها مكتوبة او مروية بواسطة (الحكماوي) الذي كان يتربع في بعض المقاهي ، يقص على الناس قصصا من الف ليلة وليلة ، او من الزيناتي خليفة او من الزيز سالم او من ابي القاسم الطنبوري وعترة وابي زيد « وهي قصص مأخوذة من التاريخ الاسلامي ، محورة بصورة ردية

(٢٦) علي الطنطاوي : الجامع الاموي ص ٨٨

خلقد كانت المبالغات اساسا في اجتناب الناس الى ساعتها وقراءتها ، وهي مع ذلك روايات حماسية تمثل الشجاعة والكرم والانفة والحمية والوفاء والصدق والمرؤة والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الدمار والجار (٢٧) ٠٠٠

وكانت هذه الروايات منسوبة أو مطبوعة مزينة برسوم على عادة الروايات المترجمة الى الفرنسية والالمانية والعربية كألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والتي زينها المصوروون الاوريون بالصور التوضيحية ٠ وتقن المصوروون السوريون في تمثيل بعض مشاهد هذه الروايات وفي تصويرها على صفحات مستقلة عن خطوط الروايات ، او على صفحات منفصلة تعلق في المقاھي حيث الحکواتي - المستمعون وامامهم صور تجسد بعض ما يروى ويثار من مواقف بطولية حماسية ٠

ويتھافت الناس على هذه الصور الملصقة على الزجاج والمؤطرة بالورق او الملونة مباشرة على الزجاج بصورة معكوسه لكي تظهر صحيحة على الوجه الآخر ٠ وكان على المصوروين ان يلبوا طلبات الراغبين فينسخون الواحدة تلو الاخرى باسلوب متأن احيانا او متسرع اکثر الاحيان ، وهكذا تبدو الموضوعات الواحدة على مستويات مختلفة من الجودة والدقة ، والعجيب ان النسخ الاخيرة لم تكن تنطوي على نضوج المصور بقدر ما تدل على تھافته وتعبه ، فهو يصور الخطوط مرسلة دون اهتمام بالنسبة وبالضروريات التشريحية في أجسام الاشخاص والحيوانات ، ثم هو يثبت الالوان مبرقة تتجاوز الخطوط او تقصر عنها ، ويحشد في الصورة الوانا متباعدة وينشر الكلمات بخط رديء مغلوط ومعكوس أحيانا ، ويشير الى الموضوعات بأسماها هنا (عنتر) وهذه (علبة) وذلك (ابو زيد) ٠٠٠ كل هذا باسلوب بدائي لايسعنه قانون او علم ٠ ومع ذلك فلقد لاقى هذا

(٢٧) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٦

النوع من التصوير رواجا فأقبل عليه السواح وبائعوا العادات واقتني منه أصحاب المجاميع الفنية . ولقد برزت في هذا المجال اسماء مصورين مثل « متولي » و « علي المصور »^(٢٨) و « حرب التيناوي » وابنه أبو صبحي التيناوي وأولاده الذين قاموا بصنع هذه الألواح الملونة والمذهبة والمكتوبية واستمر أبو صبحي^(٢٩) يمارس هذه الصنعة ويربع منها كثيرا ، وهو قابع في مشغله في باب الجاوية ، يأتيه الراغبون متشوقين لاقتناء بعض اعماله ، فيبيعهم دون اذ تبدو عليه رغبة في استغلال شوقيهم ورغبتهم في الاقتناء ، ودون ان يستجيب لاي علامة من علامات المدح والرغبة بالدعاه ، فهو يرفض الحديث مع الصحفيين ويرفض رواية حياته ويرفض تصويره ويكتفي ببيع انتاجه الوفير ، ولايهمه ان يقوم بعض التجار بجمعها واحتكارها ورفع اسعارها ، كما لايهمه ان تقام لاعماله المعارض في بيروت وباريس وفي لندن ، وان تكتب الصحف العربية والاجنبية عنه ، فهو بعيد تماما عن اضواء الشهرة ، متذکب لاقلام النقاد والمذاخة ، قانع بصنعته سبيلا للارتقاء وليس سبيلا للفن .

ومن المؤكد ان اهتمام المتذوقين في سورية وخارجها بهذا الفن يرجع الى ارتباطه بتيار واسع ظهر مع بداية الفن الحديث ، وسار باتجاه التعبير عن الحس الفني البريء من جميع المطبات العلمية (والتي تجعل من الفن علم كما يقولون) . كما يرجع ايضا الى اعتبار هذا النوع من الفن اصدق معيار عن اتجاه محلي مرتبط بالفن الجداري والفن الديني والفنون القديمة التي تحدثنا عنها ، ويشكل معها وحدة مترابطة .

(٢٨) محمد علي المصور ولد في دمشق ١٨٨٠ وتوفي عام ١٩٦٣ وكان حكواتيا وكركوكليا وصاحب صندوق العجائب .

(٢٩) ولد أبو صبحي التيناوي في دمشق عام ١٨٨٣ وتوفي في اواخر نيسان

على انه لابد من فرز الاعمال الجيدة من هذا الاتجاه اذ ان بعضها
قام على النسخ الرديء او التقليد التافه ، ولقد دلت الاعمال الجيدة التي
طبعت على بطاقات بريدية او التي اصدرت على طوابع تذكارية على روعتها
واصالتها واهميتها في دراسة تطور الفن التشكيلي في الشام .

وثلث نوع اخر من التصوير كان يتم على لفائف طويلة ويوضع بين
قضيبين ليعرض ضمن علبة ذات نوافذ صغيرة اسمها « صندوق العجائب » .
وفي متحف التقاليد الشعبية لفافة طويلة من رسم وتلوين على المصور تعتبر
مثلاً صادقاً لمستوى الفن في بداية هذا القرن .

كذلك ظهر فن الحفر على الخشب مستمدًا من تأثيرات بندقية ايطالية
ويبدو واضحاً على صناديق الملابس وبعض الايثاث .

وشاع في الشام واستمر حتى عهد قريب فن التمثيل بخيال الظل (قره
كوز) . والذي يهمنا من هذا الفن هو صناعة الشخصوص التي تمثل ابطال
القصص المروية والتي تتحرك بقضيب خلف ستارة مضاءة . ان هذه الشخصوص
هي عمل فني له أهميته وهي تصنع من الجلد وتلون وتقص وفق ترتيب معين
ثم تربط مفاصلها بخيوط تساعد على تحريكها . واسلوب هذه المقصوصات
هزلي بارع ، والشخصوص بعيدة عن محاكاة صور كائنات سليمة ، بل هي
كائنات تكاد تكون خرافية ، وان اقتربت من الملامح البشرية الاصلية .
ويمكننا ان نعتبر هذا الاسلوب اقرب الى السريالية ولكن مع الاحفاظ
بالطابع الشعبي الخاص .

ولابد من الاشارة الى فن تصوير النوافذ وفق الاسلوب المسمى
(الزجاج المعشق) من الواح مفرغة من الجص وفق تشكيلات زخرفية
وتشبيهية مقطعة بقطع من الزجاج الملون . ولقد عاد هذا الفن الى الظهور
مؤخراً بواسطة سالم الشوا .

ولم يقتصر الفن التشكيلي على التصوير الجداري او الزجاجي او على الجلد ، بل لقد انتشر التصوير على النسيج ، وهو شامي قديم ، ولقد عرف منذ عهد الفاطميين من المصورين «الغبي الشامي» وله قطع في المتحف الاسلامي في القاهرة . واستمر هذا النوع من التصوير حتى اليوم وكان توفيق طارق ١٩٤٠ وعبدالحميد عبدربه من المستغلين بهذا النوع من التصوير ، وما زال ذهير الصبان تلميذ طارق يمارس هذا النوع من الفن . وعدا ذلك هنالك فن التصوير على القاشاني وهي الواح خزفية نقش برسوم ملونة ثم تطلى بميناء وتشوى فتكون بلاطات جميلة اذا ما جمعت مع بعضها شكلت رسوماً متكاملة او زخرفية متابعة ، ومن اقدم من اشتهر بهذا النوع من الفن (محمد الدمشقي) الذي يحتفظ له المتحف الاسلامي بالقاهرة بلوحة كبير على صورة مكة المكرمة وفيها الكعبة وعليها اسم المصور وتاريخ الصنع ١١٣٩هـ .

وفي نهاية القرن الثامن عشر اشتهر اسم فاضل بن علي بن عمر الظاهر الزيداني الصفدي الذي ولد عام ١١٧٤هـ وكانت له « مهارة كلية في التصوير والنقش وتجسيم البلاد والعباد وله في ذلك العجب العجاب » كما يقول الكمال الغزي .

وثمة فن احتل مكانة عالية في تقدير المؤرخين وهو فن التصوير الديني او الفن الايقوني .

ومن المعتقد ان منشأ هذا الفن الذي انتشر في اجزاء العالم المسيحي كان بلاد الشام ذاتها^(٣٠) ، وما زالت في كنيسة المهد في بيت لحم واجهة تمثل زيارة المخلص للمشرق ترجع الى بدوات هذا الفن . ثم انتقل هذا الفن عبر العالم عن طريق الحجاج . واهتمت به الكنائس تزيين به واجهات المذاياح (الايكونستاز) بمواضيع انجيلية ، تملأ حشوات هذه الواجهة بأسلوب

(٣٠) انطون هبى : الصور المقدسة او الايقونات ١٩٦٨ .

حوفي شاعري رمزي . ولعل من اقدم الايقونات الشامية الشهيرة ، ايقونة العذراء الرحيمة سيدة دمشق الموجودة حاليا في كنيسة لافاليتا عاصمة جزيرة مالطة .

ولقد اتبع في تصوير الايقونات الشامية التقاليد المحلية ، وكان يوسف المصور وابنه نعمة الحلبيان من ابرز المصورين الذين وضعوا أساس اسلوب محلي أصيل منه بداية القرن الثامن عشر^(٣١) الا ان ظهور المصور اليوناني ميشيل الكريتي واقامته في الشام من عام ١٨٠٩ - ١٨٢١ شكل تيارا غريبا في الفن الايقوني مارسه تلاميذه من المصورين وهو يحمل الطابع اللاتيني القائم على النظام والبراعة . ولقد يرى من اسما المصورين الشاميين في ذلك الوقت جرجي المصور ونعمه ناصر الحمصي وهما من الفنانين الحمصيين تركا عددا هاما من الايقونات دون ان تحمل طابعا متميزا وان كانت تميل أحيانا نحو الطابع الشعبي البدائي فتكون بذلك اكثر ارتباطا بالبيئة واقرب الى الاسلوب المحلي ، ونرى ذلك واضحا في اعمال المصور بطرس عجمي وفي اعمال نعمة ناصر الحمصي نفسه .

ان ما أتينا على ذكره حتى الان انما يتناول الفن بحالته الفطرية (او الاركاييك) ولكن الفن التشكيلي الشامي عندما ابتعد عن الاغراض التزيينية والدينية التعبدية ، ابتدأ ينهل من مفهوم الفن العالمي ، وابتدا ذلك في الساحل الشامي نظرا لأن حدود الشام قبل عام ١٩٢٠ كانت تشمل لبنان ، وهكذا فان الفنانين الذين ظهروا في المناطق اللبنانية قبل ذلك التاريخ لابد ان يكون لهم مكان لائق في تاريخ الحركة الفنية الشامية الحديثة خلال المائة عام الاخيرة .

(٣١) انظر دراستنا عن « الفن الايقوني السوري في القرن الثامن عشر » مجلة المعرفة السورية العدد ١٣٤ ص ١٢١ .

وفي مقدمة الفنانين الذين ظهروا في لبنان خلال القرن التاسع عشر^(٣٢) نجيب يوسف شكري (من دير القمر) ونجيب فياض (من بيروت) وعبدالله مطر (من عبيه) ولقد هاجر إلى مصر ونال فيها شهرة واسعة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ، ظهر شيخ الفنانين ، الاخ نعمة الله المعادي الذي درس الفن في بلجيكا ، ورئيس شدودي الذي انهى حياته بتعليم التصوير في مدرسة الفنون في أسطنبول .

ثم ظهر فنانون آخرون اهتموا بظاهر الحياة الوطنية^(٣٣) منهم داود القرم الذي درس الفن في روما عام ١٨٦٥ وحبيب سرور درس أيضا الفن في روما عام ١٨٧٠ وخليل صليبي درس الفن في إنكلترا عام ١٨٩٠ ثم في فرنسا حيث تأثر بالانطباعيين وخاصة رنوار ، ثم سافر إلى لندن وتأثر برلينولدز ، ويعتبر أول فنان مجدد .

وبعد الاتتداب الفرنسي على سوريا ولبنان واهتمام الفرنسيين بالفنون المحلية ، ظهر بوادر الحركة الفنية في المدن الداخلية مثل دمشق وحلب .

وكان بدوات اللوحات الزيتية في الثلاثينيات وبدوات النحت في الأربعينات وظهور فن الحفر في الخمسينيات وفي السبعينيات ظهرت فنون الديكور والإعلان .

ومما لا شك فيه أن تقاليد هذه الفنون جاءت نتيجة تأثيرات عالمية تمت عن طريق الفنانين الأوروبيين الذين وفدوا على سوريا أثناء الاتتداب الفرنسي أو جاءت نتيجة اطلاع الفنانين الشاميين الأوائل على تطور الفن في أوروبا وأخذهم بعض الأساليب الفنية الشائعة .

(٣٢) صلاح كامل : الفن اللبناني ١٩٥٦

(٣٣) مصطفى فروخ : طبعة الفنانين اللبنانيين

ومن أشهر المصورين الفرنسيين الذين زاروا الشام واعجبوا بمشاهدتها والحياة فيها ادوار بينيون Pignon الذي انجز عددا هاما من اللوحات الزيتية عن الشام ، ، وفيRNAة Vernet الذي امضى خدمته العسكرية في الشام واطلق عليه بودلير اسم المصور العسكري . اما جان كاروزيان والملقب بـ كازو Carzou فإنه مولود في حلب عام ١٩٠٥ من ابازمي شامي كان يعمل مصورا فوتوغرافيا في باب الفرج وبعد وفاة والده ذهب الى باريس فتابع دراسة الفن واصبح من مشاهير المصورين ، وأقام عددا من المعارض في الشام ولبنان ، واخر زيارة له الى سوريا كانت في عام ١٩٧٣ .

ومن ابرز الفنانين الذين زاروا سوريا كان موريس دوني M. Denis تم ذلك عام ١٩٢١ وقد اورد في مذكراته عن دمشق^(٣٤) « انها لوحة خضراء يخصبها نهر بردى الذي يمتليء بخمير المياه الواردة من كل نبع ، كنهر الفيغا في غرناطة . وفيها اسواق في كل مكان ذات أروقة عالية ومراكز بيع مغطاة بصفائح التوقيع المتموجة والملقبة بالرشاشات » .

اما فان دونغن Van Dongen وكاندينسكي Kandinsky وكوكوشكا Kokochka فقد زاروا سوريا أيضا زيارات قصيرة وصوروا اطباقا لهم عنها . اما جان شارل دوفال Jean-Charles Duval (الذي ولد في باريس عام ١٨٨٠ فقد دعاه الجنرال ويغافن المندوب السامي الفرنسي في سوريا بمنحه تابعة للمعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق^(٣٥) ، ولقد كان لدى دوفال متسع كاف من الوقت لكي يلتقط مجموعة كبيرة من المشاهد الطبيعية في لوحات زيتية ، عن حي الميدان والصالحية وسفح قاسيون وفي قصر العظم

M. Denis : Journal, La Colombe, Paris 1957, p. 7.

(٣٤)

Syria VIII 1827, p. 248 - La mission du peintre Jean-Ch. Duval.

(٣٥)

في دمر . ولوحات مأخوذة من زوايا حارات المدينة . وفي حلب صور القلعة ، وصور في حماة النواعير ، كما صور قلعة شيزر ونهر العاصي والرسن وحمص ٠٠٠ ولقد اتصل دوفال بكثير من الشباب المثقف الذي تعرف بلهفة على فن التصوير الحديث .

ومن المصورين الفرنسيين الذين لعبوا نفس الدور ميشل Michelet الذي ترك مجموعات كثيرة من لوحاته قبل مغادرته البلاد عام ١٩٤٦ .

ولابد من القول ان تاريخ الفنانين الاوربيين الى سوريا قديم ، وكان كاساس Cassas^(٣٦) من اوائل من زاروا البلاد وقاموا برسم تحطيط الاوابد التاريخية في الشام ، ولقد زينت لوحاته كتاب فولني Volney^(٣٧) ولكنها لم تكن لوحات دقيقة بل كانت معدلة احيانا .

ثم ان المصور الروماتي مونتفور Montfort (١٨٠٢ - ١٨٨٤) وهو من تلاميذ جيريكيو قام خلال زيارته الى سوريا عام ١٨٣٧ - ١٨٣٨ بتنفيذ رسوم وصور ملونة بالمايي مطابقة للواقع حتى انها تعتبر وثائق صادقة واكثرها محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس والباقي لدى اسرته^(٣٨) .

على ان المطبوعات الفنية الملونة مع المعارض الاجنبية كان لها الدور الحاسم في توسيع الاطلاع على الفن الحديث . ومن أهم المعارض التي أقيمت في دمشق معرض مدرسة باريس الذي اقيم في مدرسة الاليك عام ١٩٤٨ ومن الاعمال المعروضة موحات ليكاسو وموديلياني وفان دونغن .

Cassas : Voyage pittoresque de la Syrie, de la Palestine etc... (٣٦)
Paris in f 1788-1804

Volney : Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années ١٧٨٣ - ١٧٨٥ Paris, 1787. (٣٧)

René Dussaud : Le peintre Montfrot en Syrie (1837-1838) ; Syria, 1920, p. 58; Syria 1921, p. 63 (٣٨)

ولكن انصرف بعض المهووبين لدراسة الفن في اوربا كان نقطة البداية في فتح باب الفن الحديث . وكان من اوائل الذين سافروا الى باريس لدراسة الفن توفيق طارق ومشيل كرشة وعبدالوهاب ابو السعود كان ذلك حوالي ١٩٣٠ ، ولقد استفاد هؤلاء كثيراً من زياراتهم لباريس وان لم يتبعوا فيها دراسة منظمة . ثم مضى عام ١٩٣٥ الى ايطاليا بمنحة من البعثة الثقافية الايطالية كل من محمود جلال وصلاح الناشف ورشاد قصبياتي وسهيل الاحدب . وتواترت بعد العرب البعثات الى اوربا وآل مصر واستمرت حتى اليوم وعلى الرغم من افتتاح كلية الفنون الجميلة عام ١٩٦٠ ، ولكن الاليفاد اصبح متذبذباً للتحصيل العالي فوق الجامعي ذلك ان نظام الكلية يقضي بالحصول على مؤهل عاليٍ لممارسة التدريس فيها .

على ان عدداً من الفنانين السوريين استقر بعيداً عن بلاده يمارس الفن بعد ان توضّح لديه اسلوب خاص ، ومن ابرز هؤلاء المغتربين مصطفى يحيى الذي بلغ شهرة عالمية بأسلوبه البسيط ذي الالوان المشرقة وسامي برهان بلوحاته المستوحاة من الصحراء والفن الراافي ، وهما يعيشان في روما ، وفي برلين يمارس مروان قصاب باشي الحفر والتصوير بتفوق واضح ، كما ان عبدالقادر نائب في لبنان يملأ البيوتات الكبيرة بلوحاته الشخصية الواقعية كما افتح الفريد بخاش مرسمها لتدريس الفن في بيروت .

وهكذا دخل الفن الحديث الى سوريا متأخراً ، ولكن دخوله كان عارماً فلقد وردت جميع الاتجاهات الحديثة دفعة واحدة ، الواقعية (توفيق طارق) والانطباعية (مشيل كرشة) والتكعيبة (ممدوح قشلان) والシリالية (عدنان ميسر) والتجريدية وكثير من الاتجاهات الفردية المستوحاة من الاساتذة الذين وجهاً المؤلفين . وانتشرت هذه الاتجاهات في صفوف الناشئين بسرعة ، حتى شكلت تيارات موقته لم تثبت ان غيرت اتجاهاتها نحو فن اكثر اصالة او أكثر حداثة .

والى جانب ظهور فن التصوير باتجاهاته المتشعبة ظهر فن النحت الذي مارسه المصورون انفسهم (مثل جلال وبخاش) . وكان جاك وردة اول من مارس النحت في سوريا بعد زيارته اطلاعية في باريس .

ثم ظهر من النحاتين عدنان الجليلة ومخلص صابوني وعدنان رفاعي ووديع رحمه وعبدالسلام قطرميز . على ان فتحي محمد قباوة (١٩٥٨-١٩١٧) الذي توفي مبكرا ترك نماذج رائعة تدل على موهبة فذة لم يسعفها الدهر للتفتح الكامل .

اما سعيد مخلوف فلقد تفرد بالنحت على الخشب والحجر وبلغ في ذلك شهرة جيدة .

أما فن الحفر فلم يكن معروفا قبل عام ١٩٥٨ وكان حماد وفشلان اول من مارسه ، على ان غياث الاخريس هو اول من اختص في هذا الفن ، درسه في باريس ومدريد وحصل فيه على الجائزة الثانية في بينالي الاسكندرية لعام ١٩٧٢ ، وقام بتدريسه في كلية الفنون الجميلة بجسيع فروعه ، الحفر على المعدن والخشب واللينوليوم والطباعة الحجرية .

وظهر فن الاعلان الحديث منذ عام ١٩٦٠ على يد عبدالقادر أرناؤوط الذي ابتكر انماطا من الخطوط الحديثة . كما ظهر فن الديكور الداخلي اولا على يد هشام المعلم منذ عام ١٩٥٨ ثم ازداد عدد المختصين بهذا الفن بعد انشاء قسم خاص لتدريسه في كلية الفنون الجميلة .

الفنون التطبيقية الشامية

ما زلتا نجهل اخبار فن المعدن والنسيج والمنمنمات في العهد الاسلامي الاول في بلاد الشام لعدم توفر الادلة وال Shawahed حتى الان . ولكن شواهد صناعة الخزف تبدو اكثرا توفرها ، وهي وان كانت تحمل المعالم الساسانية

احيانا ، الا ان اشكال الاواني ورموزها الحيوانية تجعلها اكثر استقلالا عن التقليد السادساني ، وان كانت الاصول التقنية متشابهة ٠

ومن أقدم الآثار الخزفية الشامية آنية محفوظة في المتحف الوطني بدمشق تحمل كتابة كوفية تنتهي بهذه الجملة (عمل يحيى بن امية ، لصاحب الحيرة) وهي ترجع الى القرن الثامن الميلادي ٠

وكانت الرقة منذ اقامة الرشيد فيها (٨٠٩ - ٧٨٦) ، وحتى عصر متأخر ، مركزا هاما لصناعة الخزف ، ولقد عثرت بعثات العالمين الالمانيين زاره Herzfeld Sarre وهرتزفلد في تلك المنطقة ، على كثير من بقايا الخزف التي ترجع على ما يبدو الى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . وخف الرقة على انواع ، منه ما كان ذا بريق معدنى على شكل زهريات وباريق سلاطين وطلاءات ، والوان البريق المعدنى السائد هي البني الداكن وهو لون يميز خزف الرقة عن غيره . وتزين هذا النوع من الخزف زخارف نباتية وكتابات نسخية او كوفية واحيانا رسوم طيور محورة وكانت الخلفيات ذات اشكال حلزونية ٠

وطريقة البريق المعدنى التي ظهرت في الشام هي من ابتكار السلاجقة . وتنسب الى سامراء او مدينة الري او الى قاشان . ويصنع هذا النوع من الخزف من طفل اصفر نقى ، يعطى بطبقة غير شفافة من الطلاء القصديرى ترسم عليها الزخارف بالاكاسيد المعدنية بعد حرقها للمرة الاولى ، ثم تحرق ثانية حرقا بطيئا جيدا تحت درجة حرارة اقل من الاولى تتراوح بين (٤٠٠ - ٢٥٠) وعندئذ تتحول الاكاسيد المعدنية باتحادها مع الدخان الى طبقة معدنية رقيقة جدا . وهكذا يصبح لون البريق المعدنى المحاصل ذهبيا او قريبا من الاحمر . وفي المتحف الوطنى بدمشق زهريتان مزينة بخطوط زرقاء ، وزهريتان ذات عناصر نباتية وكتابية وجدت في الرقة ، وابريق جميل عشر عليه في شمالي الشام ، ومجموعات اخرى واكثرها من صنع الرقة في العصر

السلجوقي بين القرن ٢-٣م . وظهر ايضاً الخزف المسمى (الغبرى) وهو اسم لعبدة النار ، ولعل هذا النوع من الخزف مأخوذ عن البيزنطيين السوريين وفي المتحف الوطني بدمشق نماذج كثيرة من هذا النوع كصحن مزين بوعل وعدد من الزبادي المزينة بصورة آدمية او نباتية .

وانتشر في بلاد الشام ايضاً وبكثرة وافرة الخزف المزین بزخارف ملونة تحت مينا شفافة غير ملونة او ذات لون أزرق وهو خزف كانت تتميز به الرقة اكثر من غيرها .

وظهرت في الشام انواع من الخزف ذي أشكال تمثيلية كراج خروف او حمامه وجد بعضها في الرصافة وببعضها في الرقة ، وينسب الى دمشق خزف ذو بريق معدني على هيئة اوعية اسطوانية زخارفها اشرطة افقية او حلزونية من الزخارف النباتية او الكتابات الدعائية او رسوم الطيور منها قدران كبيران في المتحف البريطاني ، وثمة تحفة محفوظة في باريز كتب عليها اسم صانعها (يوسف) .

ويتصف خزف الرصافة (سيرجيوبوليس) التي ترجع الى عهد هشام ابن عبد الملك ، بنفس صفات الخزف في الرقة القريبة من الرصافة ، فهو اما مزخرف ذو بريق معدني او ذو زخارف مرسومة بدون بريق ، والوانه اقل قاتماً واقرب الى الاحمرار .

وفي عهد الفاطميين استمرت صناعة الخزف ذي البريق المعدني ناشطة في بلاد الشام . وفي متحف اللوفر سلطنتان من صناعة الشام احداهما مزينة برسم ارنب والثانية مزينة باشكال اللوتس وبكتابات عربية ، ويعتقد انها من صنع دمشق . واستمر التقليد الشامي في التلوين الازرق الفيروزي الذي تصطبغ خلفيته بلون ارجواني ، ثم اصبح اللون مخضراً في عهد الماليك ولا بد من القول ان تقاليد صناعة الخزف التي ظهرت في الرقة والرصافة كانت

قد انتقلت الى مختلف الديار الشامية والمصرية ، وانها استمرت في مختلف العهود الايوية والملوكية والعثمانية بل ان الصناع الشاميين نقلوا اقسامهم الى مراكز اخرى كالقسطاط حيث كرسوا تقاليد هذا الفن هناك .

اما الزجاج فقد كان من المكتشفات الفينيقية التي استمرت فيما بعد ، واشتهرت في العصر الاسلامي الاولى باسم الزجاج الفينيقي^(٣٩) وخاصة في الفسيفساء الزجاجية الموجودة في قبة الصخرة والمسجد الكبير وفي صناعة الشمسيات والقمريات التي كانت قد استعملت في قصر العير الغربي . اما الاواني الزجاجية فلقد كانت على شكل قوارير واباريق وكؤوس وحقن ، ولقد عثر في جبل ايسين بين اطلال القصر الاموي على كثير من الشواهد الزجاجية التي ترجع ولاشك الى القرن الثامن الميلادي والتي تقدم لنا فكرة واضحة عن تطور اشكال الاواني الزجاجية وتطور صناعتها ، فهي ذات الوان زرقاء او خضراء بعضها شفاف وبعضها عاتم . وفي الرقة عثر على قدح من الزجاج ذي البريق المعدني كتب عليه صنع في دمشق ويرجع الى القرن التاسع الميلادي^(٤٠) .

ولقد تحددت شخصية النساج الشامي بنفس الطريقة التي تحددت فيها شخصية النقد ، ذلك ان المصادر الساسانية والبيزنطية تجمعـت في شخصية محصلة لم تثبت ان افترقت عن اصولها لكي تولد متميزة تحمل اسم مكان صنعها (دامسكو) متنقلة عبر العالم بزهو واعتزاز .

ومع ان الساسانيين اشأوا مصانع للمنسوجات الحريرية ذاعت شهرتها في جميع بلاد الشرق الادنى ، الا ان شاهبور الاول كما ذكرنا كان قد استقدم

(٣٩) انظر : د . سليم عادل عبدالحق : اسهام في دراسة الزجاج الاسلامي بين القرنين ١٥٨ - ١٥٥ م الحوليات ١٥٥ ص ٩ - ٨ .

(٤٠) انظر ابو الفرج الفشن : الزجاج السوري المسمى بالميناء والذهب - الحوليات ١٦٢ ج ١ ص ٤٠ .

عمالاً شاميين للعمل في مصانع نسيج خوزستان . ذلك ان الشام كانت قد اشتهرت بهذه الصناعة ، ولقد نشر بفستر بحثاً هاماً عن المنسوجات التي اكتشفت في تدمر ودوره اوربوس ^(٤١) . كما ان مجموعات من المنسوجات الحريرية الموجودة في المتاحف العالمية تنسب الى الصناعة الشامية القديمة وتمتاز برسوم المجموعات قطعة محفوظة في روما نسجت عليها رسوم تثلب الشارة ميلاد المسيح ، وقطعة ثانية ، معروفة باسم نسيج ديوسكوري محفوظة بكنيسة القديس سرفاتيوس في ماستريشت ، كما توجد قطعة حريرية ثالثة تزيينها مناظر صيد محفوظة في متحف المتروبولitan ، ولقد جرت العادة ان تنسب رسوم هذه المجموعات الى الفن الساساني ، ولكن الاتجاه الصحيح الذي تبناه في أساليب التزيين ، وهي على اية حال شخصية فنية متطرفة ، سراها اكثراً وضوحاً في بدواث الفنون الاسلامية .

وظهرت صناعة التحف المعدنية كتقليد راسخ في بلاد الشام ، وانتقلت تقاليدهذه الصناعة الى اوربا وخاصة الى البندقية التي كانت مركز هذه الصناعة وكان الصناع الشاميون او من مارس في البندقية ذاتها هذا الفن ، ومن التحف الباقيه عدد من الصوانى والسلطانيات عليه اسم احد الفنانين الشاميين (محمود الكردي) .

السيف المشتق

عرف السيف عند العرب كأداة اساسية للدفاع عن النفس والقتال وحمل اسماء كثيرة كالحسام والصمصام والمهند والصارم .

R. Pfister : *Houveaux textiles de Palmyre - Paris, 1937* (٤١)

(٤٢) انظر ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة احمد محمد عيسى

ويصنع السيف العربي من الحديد فيقال له السيف الانثى ، او من الفولاذ ، او من الحديد وراسه من الفولاذ ويقال له السيف المذكر^(٤٢) . وخلافا لما هو معروف وشائع فإن السيف العربي الاول كان مستقيماً وذا حد وحيد ، ويحدثنا الشعراء عن سيوف ذات حدين في قسمها السفلي ، كما يتردد الحديث الذي رواه الرسول في معركة بدر ، « لاصيف الا ذو الفقار ولا فتنى الا علي » ، وقد أصبح هذا الحديث منقوشاً على اكثر السيوف . ولقد عدد الكندي^(٤٤) من انواع السيوف خمسة وعشرين نوعاً تبع تسميتها لنوع الفولاذ فيها والمكان الذي صنعت فيه ، كالسيوف اليمانية والقلعية والهندية وهي سيوف كريمة « عتيبة » ثم السيوف الخراسانية والبصرية والدمشقية والمصرية والكوفية وهي سيوف « مولدة » . اي ان فولاذها مصنوع حديثاً .

والسيف العربي مختلف القياس بحسب المقاطعات التي انتشر فيها العرب ، وكان له في كل منها اوصاف خاصة ، وهكذا لم يكن للسيف العربي صفات موحدة كما يقول ستون^(٤٥) .

ولكن يمكن تمييزه عن السيوف الساسانية القديمة والسيوف الهندية ، كما يمكن تمييزه ببساطة عن السيف الفارسي الذي يطلق عليه اسم (شمشير) وتعني بالعربية لبدة الاسد ، كما يختلف عن السيفين التركيين « اليطغان » وهو خنجر طويل و « القلبيج » وهو من السيوف المنحنية ذات الكتابات المحفورة او المكتفة .

(٤٢) ان تقسيم المعادن الى مؤنث ومذكر جاء عن قدماء الصين الذين قدسوا عملية صهر المعادن فلا يقوم بها الا الورعون ، ولقد اطلقوا صفة الانثى نرماهن او ارمهان والفولاذ بـ شابوركان او شبرقان .

(٤٤) رسالة الكندي ، السيوف واجناسها طبعة ليدن ٢٨٧

Stone G. C. A Glossary of the Construction and Use of Arms and Armour, Portland Maine 1934, p. 535. (٤٥)

ولقد صنعت السيوف العربية قبل الاسلام في اراضي مؤاب وعرفت السيوف باسم المشرفة ، وفي نفس الوقت كانت تصنع سيوف عربية عند المناذرة في الابلة وهي قرية صغيرة على دجلة في العراق ، كما كانت يصرى الشام عاصمة الغساسنة تصنع سيفيا ذكرها الشعاء منسوبة الى قرية تسمى أريح^(٤٦) .

وفي حمير عرفت السيوف اليمنية الشهيرة التي امتازت ببروتتها وحسن صناعتها ويصف الكندي^(٤٧) السيوف اليمنية فيقول : ويصل طول السيف «اليماني العتيق» اربعة قدود ، ومنها العريض الاسفل المخروط الرأس المربع «السيلان»^(٤٨) تربعا مغروطا الى طرف السيلان ويجري على نصله اربع شطبات^(٤٩) ، منها المحفور ، وهو الذي شطبه شبيه بالانهار مدورة الحفرة ومنها ما شطبه ذات زوايا مربعة . وتكون هذه الشطبات متساوية في وجه السيف ، ومنها ذو ثلاثة شطبات ، واحدة في الوسط واثنتان في الشفتين واكثر السيوف اليمنية يصل عرض نصلها ثلاثة اصابع تامة ، ويبلغ عرض اقل ما يكون منها اصبعين ونصف اصبع .

ولقد عنى المسلمون باقتناء السيوف ، وكان للرسول (ص) سيف مشهورة «منها المسعور الذي ورثه عن والده ، والقضيب والبatar والحتف والمخرم والراسوب والعبد ، والقلعي «من القلع (او كالا) في شمال الهند وهي مشهورة بجودة اسلحتها » .

(٤٦) الجواليني : العرب . تحقيق احمد شاكر ص ٥٩

(٤٧) نفس المرجع اعلاه

(٤٨) السيلان هو الجزء القائم من نصل السيف .

(٤٩) شطب السيف ج شطبة هي الفتوات المحفورة على وجهي نصل السيف لتقليل وزنه وتجعله اكثر قوة ولدونه .

وانتشرت صناعة السيوف بعد الاسلام في جميع البلاد العربية ومنها دمشق التي كان لصناعة السيوف فيها شهرة وامتياز . وازدهرت صناعة السيوف الدمشقية ابتداء من القرن العاشر الميلادي وكانت صناعتها تتم في دمشق وفق اسلوب خاص اطلق عليه اسم الدمشقة Damasquinage بالفرنسية او Damascening بالانكليزية .

وليس بين ايدي المؤلفين الذين تحدثوا عن السيوف العربية معلومات كافية عن مشاغل السيوف هذه ، وعن طريقة الدمشقة ، مما دفع بعض الباحثين الى الاعتقاد ان هذه التسمية لا تعني صناعة السيوف بل تجارتها^(٥٠) ، ذلك ان دمشق كانت توزع السيوف مع البضائع التي كانت تردها من اطرافه الشرق ، فحملت السيوف اسم (دمشق) مكان التوزيع ، وهذا زعم خاطئ وهناك رأي اخر يرى ان التسمية جاءت عن صناعة التكفيت والتزيين المزخرف التي قام بها الدمشقيون على سيف مصنوعة من فولاذ مستورد ، وهذا زعم قاصر ايضا . فقد تكون صناعة التكفيت على السيوف منتشرة في دمشق ، وهي ما زالت قائمة حتى اليوم فعلا ، ولكن هذا لا يفسر حقيقة صناعة السيوف الدمشقية ، التي يقتضي ان تقييد معنى صناعة الفولاذ ذي الجوهر المعين الذي يمتاز به السيف الدمشقي . ولتأكيد ذلك لابد من الاجابة على سؤالين اثنين ، الاول هل كان السيف الدمشقي موجودا عبر التاريخ ، والثاني ما هي ميزاته التقنية المعدنية .

الحقيقة ان صناعة السيوف قديمة في بلاد الشام وكانت معروفة قبل الاسلام ، ولعلها ابتدأت منذ عهد ديوفلسيان ، ثم بُرِزَت في العهد البيزنطي حيث كانت تحصل على الحديد من مناجم الاناضول في اماسيا واضنة

Zaki A. Rahman : On Islamic swords studies in Islamic Art (٥٠),
and Architecture in Honour of Prof. K. A. C. Creswell,
Cairo 1965.

جوكيليكيا العليا ، ويتحدث المؤرخون العرب عن سيف شامية اشتهرت في بصرى عاصمة العساسنة واستمرت رائجة بعد الاسلام ، ويقول الكندي في وصفها أنها ذات شفرات حسنة ، مختلفة القدود من عراض ودقاق وقصار وطوال ، لم يطبعها احد من صناع بصرى الا « سليمان » طبعها عام ٩٥٥هـ وقطع العمل سنة ١٠٩هـ . وتذهب عقد فرمذها بعد الطرح ويختفي جوهرها وكانت تحمل الى اقليم الجبال بایران وتتباع بدینارين ونصف .

كما يتحدث الكندي^(٥١) عن السيف الدمشقية فيقول ، عرفت تلك بجودتها منذ القدم . وامتازت نصالها بقطعها الجيد ، اذا كانت على سقايتها الاصلية . والسيوف الدمشقية اقطع جميع السيف المولدة . وتتراوح اثمانها بين خمسة عشر درهما الى عشرين .

ويذكر الكندي في رسالته نوعا يسمى سيف الشراة ، التي تقع جنوبى بلاد الشام في البلقاء ، وهي سيف نصالها من الحديد الانىث (الترماهن) برققة طويلة .

واذا أضفنا الى هذه السيف ، السيف العتيقية التي تنسب الى صانعها صخر بن بحر الاخفى بن قيس وكان من مشاهير التابعية ، والسيوف الاربعية التي تنسب الى أربع في الشام ، والسيوف الديافية نسبة الى دياف في جنوبى البتراء حاضرة الانباط ، فأنا نكون قد جمعنا أهم أنواع السيف الشامية التي كانت معروفة قبل الاسلام وفي صدره حتى عهد الكندي (٨٠١ - ٨٧٠) والتي كانت تصنع في مسابك خاصة أورد ذكرها ابن عساكر^(٥٢) والقلقشندي^(٥٣) وغيرهما .

(٥١) انظر : رسالة الكندي ، السيف واجناسها طبعة ليدن ٢٨٧

(٥٢) تاريخ مدينة دمشق - ج ١

(٥٣) صبح الاعشى ج ٢ ص ١٨٨

ومن ابرز نماذج هذه السيوف ، تلك التي كانت للخلفاء الامويين وهي سيوف متميزة صنعها العمال الدمشقيون ، وما زال بعضها محفوظا في متحف طوب كابي سرای في أستنبول من أهمها^(٥٤) :

- ١ - سيف معاوية وهو سيف مستقيم •
- ٢ - سيف عمر بن عبدالعزيز مؤرخ في عام ١٠٠ هـ ومتقوش عليه اسمه واسم الصانع ولكننه غير مقرؤء •
- ٣ - سيف منقوش عليه تاريخ ١٠٥ هـ مع اسم هشام بن عبد الملك •
- ٤ - سيف مستقيم عليه اسم سعد بن عبادة من الصحابة مع كتابات دمشقية متأخرة •
- ٥ - سيف عليه تقوش متابعة لاسماء عمر بن عبدالعزيز وهارون الرشيد والسلطان قايتباي •

ولقد استمرت صناعة السيوف الدمشقية رائجة معروفة في العهد العباسي تحدث عنها الكندي ووصف صناعتها تحت اسم الجوهر • ولكن هذا الوصف لم يكن كافيا للتعرف على اسرار الصناعة •

واتتقلت السيوف الدمشقية وطريقة صناعتها إلى الاندلس^(٥٥) ، ولقد عني عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) بتشجيع صناعة السيوف طليطلة وفي الميريا التي قطنها الدمشقيون خاصة ، وتحدث عن سيفها المقوى ، وقال انه خلال القرن الثاني عشر فأن الميريا كانت من أشهر المدن في صناعة السيوف والأسلحة وكذلك الامر في اشبيلية ، فيما عدا قرطبة •

Gladius : Etudes sur les armes anciennes.. Vols I-IX (Instituto de Estudios sobre Armas Antiguas) C.S.I.C. 1961-70 (٥٤)

A. Bruhn de Hoffmeyer Arms and armour in Spain, 1972. (٥٥)
P. 113.

أما غرناطة فقد اشتهرت بصناعة السيوف في عهد بنى عبد الله في القرن الخامس عشر ، وفي المتاحف الإسبانية نماذج كثيرة من هذه السيوف .

ولقد برزت مزايا السيف الدمشقي خلال الحروب الصليبية حيث كان السيف الدمشقي مصنوعاً من الفولاذ الجوهري . فأخذ المغاربون الصليبيون يبحثون عن خصائصه وطرق صنعه ، وكانت المادة الأساسية التي يصنع منها هي الفولاذ الدمشقي الذي تحدث عنه المؤرخون في ذلك الوقت ، واوضحوا افتراقه عن الفولاذ الهندي ، مما يدفع كل شك في أصوله .

وانتقل السيف الدمشقي إلى الغرب عن طريق الصليبيين وانتشرت الكلمة *Damask* لكي تعني السيف الدمشقي ، كما اشتهرت صناعة السيوف الدمشقية تحت اسم *Damascinage* .

ولقد تعرضت صناعة السيف الدمشقي منذ عام ١٤٠٠ إلى الانحطاط بفعل ثلاثة عوامل هي :

غزو تيمورلنك وأنتقال الصناع السوريين المهرة إلى اصفهان ووفرة الفولاذ الصناعي .

وعندما جاء الغزو التترى العنيف قام تيمورلنك بأسر جميع العمال التقنيين في سوريا ، وبخاصة صناع السيوف المهرة الذين نقلهم إلى سمرقند منذ عام ١٤٠٠ م ساعياً من وراء ذلك إلى إضعاف صناعة السلاح في بلاد الشام واحتياطها في بلاده ، مما أدى بهذه إلى الانحسار والغياب .

وفي عهد الشاه عباس (١٥٥٧ - ١٦٢٨) الذي ضم العراق إلى مملكته واهتم بالعمران والفنون والصناعات ، واستجلب الصناع المهرة من جميع البلدان وخاصة من بلاد الشام وتشهد اصفهان على آثار هؤلاء الصناع في ذلك العهد . ومن المعتقد أن السيف الإيراني (الشمشير) الذي اشتهر

بخاصة في عهد الشاه عباس وبعده ، كان محاكيًا للسيف الدمشقي ، فلقد حدثنا السيد عصام الفاني عن مخطوط هندي بالأرديّة موجود في لندن ووعدنا بتصويره . ويتضمن شرحاً عن حياة أسد الله الاصفهاني ، ويذكر أن اسمه الصحيح هو « علي أكبر ». وأنه استعار اسم اسد الله من اسم صانع دمشقي شهير اسمه اسد الله الدمشقي ، ولقد حصل السيد عصام العاني على سيف منقوش عليه اسم أسد الله الدمشقي هذا واطلعنا عليه . ولا بد من التذكير من أن اسم اسد الله أصبح أشبه بالعلامة ، استمر استعمالها خلال قرنين .

ومع ذلك فلقد استمرت صناعة السيوف والنصال في دمشق حتى القرن الماضي ، ثم انقرضت هذه الصناعة عندما بدأ الفولاذ الأوروبي الرياحن الشن والذي تقل جودته عن الفولاذ الدمشقي يغزو أسواق الشرق^(٥٦) . وانقرض صناع الفولاذ والسيوف الدمشقية وانطوى سر هذه الصناعة الشريفة التي تميزت بها دمشق عبر العصور ، وكان على الباحثين التنقيب وممارسة التجارب لكشف أسرار هذه الصناعة وتحديد مميزاتها التقنية المعاصرة .

لقد كانت صناعة الفولاذ الجوهر قديمة في البلاد العربية . ولقد تحدث الكندي عن ذلك في السيف اليمانية فقال^(٥٧) :

« ولا تكاد تخلو السيوف اليمانية من الفرند ، وهو الجوهر ذو اللون الذي يميل إلى السواد ، يشبه المروق في تناثرها على النصل . وقد توضع عليه الرسوم والتمايل وتكتب عليها الأسماء لتختفي أنثر الفرند » .

(٥٦) د . الحسن ، نفس المرجع ص ١٣٠ .

Comte de Ferrières-Sauveboeuf : Mémoire historiques, politiques et géographiques, (Paris 1782-89) Vol. II, p. 9.

(٥٧) الكندي : نفس المرجع

و قبل الحديث عن اسرار الدمشقة في صناعة السيف لابد من التأكيد على حقيقةتين ، الاولى ان العرب عرفوا صناعة الفولاذ في البواتق ، وثانيةما ان الفولاذ الدمشقي هو غير الفولاذ الهندي Wootz .

ويتحدث الجلدي في شرحة لكتاب الحديد لجابر بن حيان عن صناعة الفولاذ فيقول : « واما أصحاب الفولاذ ، فانهم يأخذون قضبان الحديد ويجعلونها في مسابك لهم مناسبة لما يقصدونه في معامل الفولاذ ويركبون عليه الاكور ، ويطيلون عليه النفح بالنار ، حتى يصيروه كماء الخرار ، ويطعمون بالزجاج وبالزيت المغلي ، حتى يظهر منه النور في النار ، ويتخلص من كثير من سواده بقوه السبك مدي الليل والنهار ، ولا يزالون يرتفبونه في دورانه بالعلامات حتى يتبيّن لهم صلاحه ويضيء منه مصابحه فيصبونه في مجاري حتى يخرج كأنه الماء الجاري فيجدونه كالقضبان او في حفر من طين مخدرم كالبوارق الكبار . ويخرجون منه الفولاذ المصفى كبيوض النعام ، ويصنعون منها السيف والخوذ وأسنة الرماح وسائر العدد .

ان وصف الجلدي يبقى كافيا لتأكيد صناعة صهر الفولاذ والهديد من مواده الخام ، في بلاد الشام ومصر حيث عاش . وهو ينفي اعتماد صناع السيف على الفولاذ الهندي ، فلقد تأكد للباحثين ان صناعة الفولاذ في البواتق (او البواتق) قديمة في بلاد الشام ، واذا كانت موجودة أيضا ومنذ القدم في الهند ، فان ذلك لا يعني ان الفولاذ الدمشقي هو نفسه الفولاذ الهندي الذي اطلق عليه اسم ووترز (٥٨) فقد فرق العرب دائما بين الفولاذ الهندي والفولاذ الدمشقي .

ولكن من المحتمل ان دمشق خاصة كانت تستورد الحديد الخام من الهند كما كانت تستورده من الاناضول بالإضافة الى الحديد الموجود في

(٥٨) تعني كلمة Wootz الفولاذ ذا الفرن

مناجم الشام وبيروت والزبداني والبقاع وبشري^(٥٩) .

فلقد ذكر غودال^(٦٠) ان النصال الدمشقية كانت تصنع من حديد مناجم كوناساموندروم Kona Samundrum في حيدر آباد وكان ينقله التجار الفرس الى دمشق ، وكان هؤلاء يعنون باتفاقه الخامدة الجيدة ، ويغسلونها ويحمصونها أحياناً ، ثم يوقدون عليها بالفحم الخشبي في بوائق ، ويتركونها تبرد بيضاء ويلبي ذلك الطرق والسباية حتى يتم صنع النصال الرقيقة وكانت المواد التي تخلط بالحديد خالية من الكبريت والفسفور ، وتحوي على القليل من النحاس الأحمر » .

وهذا شرح واضح لأصل صناعة السيفون الدمشقية ولا يطعن في هويتها استيراد الحديد الخام من مناجم الهند .

ان هذه المعلومات عن صناعة الفولاذ التي أوردتها الجلدكي لم تكشف لنا بعد عن سر الفولاذ الدمشقي ، لأنها لم تتناول في وصفها ذكر المواد العضوية التي تضاف الى الحديد عند صهره .

ولتوسيع ذلك لابد من الرجوع الى مرجعين هامين : الاول مخطوط بعنوان (تبصرة الالباب في كيفية النجاة من العروب من الاسوء ونشر اعلام الاعلام في العدد^(٦١)) مؤلفه مرضي بن علي الطرسوسي ، الذي عاش في دمشق والقاهرة خلال القرن الثاني عشر وألف هذا الكتاب العربي بتكليف من السلطان صلاح الدين الايوبي ، وهو يتضمن شرحاً لصناعة السيفون ، تقله عن الحكماء المتقدمين وعن من لا شبهة في حذقه من صناع هذا الفن من متأخرین .

Thomson W. M. : The Land and the Books, London 1886

(٥٩)

Goodale : Chronology of Iron and Steel, p. 26

(٦٠)

Bulletin d' Etudes Orientales, T. XII, 1947, p. 106
(٦١) حققه ونشره وترجمه كلود كاهن في مجلة :

ولأن الطرسوسي كتب هذا الكتاب عن صناعة السيف وغيرها في ظل
الابواب ومن جاء قبلهم من وحدوا بلاد الشام ومصر ، فان ما قدمه من
وصف يعني صناعة الفولاذ الدمشقي والسيف الدمشقي على اختلاف طرائق
صنعته .

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب « الجماهر في معرفة الجوادر » لأبي
الريحان البيروني^(٦٢) وهو يوضح بصرامة صناعة الفولاذ الدمشقي نقلًا عن
كتاب ألفه حداد دمشقي .

ونسوق أولاً ما أورده الطرسوسي في مجال التعريف بطريقة صناعة
الفولاذ الدمشقي فهو يقول :

« صفة عمل الفولاذ الصحيح ، ومعنا بأن نضاف اليه في حين ، شبكة من
العقاقير ما يخفف رطوبته ، ويكتبه ييسا يسرا تعتدل به طبيعته . وتتنفس التراياية
المفسدة لترويقه التي خالطته في المعدن . وتصفية من أذیاته تصفية يشرق بها
نوره ويظهر فعله المستبطن .

يؤخذ من الحديد النرماهن وان كان من رؤوس المسامير القدم كان
أجود منوال ، فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهما اهلينج كابلي وابليلج^(٦٣)
من كل واحد بالسوية ويوضع الحديد في قصعة ويفصل بالماء والملح غسلا نقلا
ثم يلوث بذلك الدواء ، ويصير في بوطة ويدر عليه درهم ونصف مغليسيا
مكسر ، وينفح عليه في المسبك ثم يذوب ويجتمع بيضة ، وذلك في أيام عدة
يبرد ويعمل منه سيفا ، فانه سيف قاتل .

(٦٢) البيروني أبو الريحان : الجماهر في معرفة الجوادر ، مخطوط الاسكوريات .
رقم ٩٠٥

(٦٣) الاهلينج او الابليلج ، هو ثمر هندي من كابول

ونوع منه آخر يصنع بان يؤخذ ثلثه ارطال حديد نرماهن ومن الشابرقان
نصف رطل يجعل الجميع في بوطة ويلقى عليه وزن خمسة دراهم مغنيسيا
وكف قشور رمان حامض وينفع عليه حتى يذوب في المسبك ويتدور بيضة
ثم تخرجه وتعمل منه سيفا ٠

ونوع منه آخر يصنع من جزء مغنيسيا ذكر وجزء سبند وجزء تنكار
البوركس يسحق ذلك جميعه ويعزل ثم يؤخذ من برادة الحديد النرماهن
النقي الجسمانيا فيجعل في بوطة ويلقى عليه من هذه الاخلط اوقيتان
وينفع عليه فانه يذوبه ويرقه حتى يدور في البوطة ثم خذ جزء حرمل وجزء
عفص بلوط وجزء صبر ومثل جميع هذه الاجزاء ذراريج ، تسحق ذلك ثم
تلقى على المن الحديد من هذه الاخلط ، اوقيتين ثم ينفع عليه حتى ترى قد
ارتفع من البوطة شبيه قوس قزح فإذا انتهى الى تلك الحال فبرد ثم اطبع
منه ماشيت » ٠

اما البيروني فلقد اورد مايعرفنا بوضوح على طريقة صناعة الفولاذ
الدمشقي فيقول :

ولزيyd بن علي العداد الدمشقي كتاب في وصف السيوف التي اشتملت
رسالة الكندي على أوصافها ٠ ابتدأ العمل بنصب الفولاذ ، وصنعة الكور
و عمل البواطق ورسومها ، وصفة أطيانها وتعيينها ٠ ثم امر ان يجعل في كل
بوطة خمسة أرطال من نعال الدواب ومساميرها المعمولة من النرماهن
(الحديد) ومن كل واحد من الروستنج (الفوسفور) والمرقشيشا الذهباني
والمغنيسيا الهشة وزن عشرة دراهم ٠

ويطين البواطق ٠ وتودع الكور ، ويملا فحما وينفع بالمنافيخ الرومية ،
كل منفاخ بوجلين ، الى ان تذوب وتدور ، وقد اعد له صررا فيها اهلينج وقشر
رمان وملح العجين واصناف اللؤلؤ بالسوية مجرشة ، في كل صرة أربعون

درهما ، يلقى في كل بوطقة واحدة ، ثم ينفع عليها ساعة تقفا شديدا بلا رحمة
ثم ترك حتى تبرد وتخرج البيضات عن البواطق » .

ان هذه الطريقة التي شرحها علیها حداد دمشقي ، هي نفسها
الطريقة التي تسمى الدمشقة Damsquinage التي ورد تعریفها في معجم
لاروس غامضا ومنسوبا للهند ، فهو يقول (٦٤) :

كان السيف الدمشقي او الفولاذ الدمشقي بصورة عامة يصنع عن
طريق دمج قطع من الحديد بعد تحميته في بوقحة حتى تصبح لينة قليلا ثم
يضاف إليها مواد عضوية (قش الرز - خشب - اوراق خضراء) والفولاذ
الذی يحصل عليه هو الدمشقي الهندي ، ويصنع على الغالب أيضا بواسطة
قضبان الفولاذ ذات الصلابة المختلفة ، وذلك لسبب طبيعتها المختلفة التفحيم ،
ثم تعقد هذه القضبان بصورة غير متساوية ، ثم تلجم مع الاستمرار في العقد
والطرق مع ثني جميع هذه القضبان على بعضها ، وعندما لا يبقى الا صقل
هذه السیكة الناتجة ، لكي يقدم لنا السطح مظهرا متوجا .

ويمکننا ان نستخلص مما ورد في مصادر عربية موثوقة ، طريقة صناعة
السيف الدمشقي الفولاذی بالنقاط التالية :

١ - ان السيف الدمشقي يصنع من الفولاذ الدمشقي المصنوع محليا .
وذلك عن طريق تفحيم الحديد المستخرج من بلاد الشام او المستورد
من خارجها وبخاصة الحديد المستورد من الهند او من ثغایات الحديد
 كالحدوات والمسامير .

٢ - ثمة شبه بين الفولاذ الدمشقي والفولاذ الهندي Wootz ولكن لكل
نوع منها طريقة صنع مختلفة .

٣ - يصنع الفولاذ الدمشقي عن طريق تحميم الحديد في كور او عن طريق صهر الحديد في بواتق وسبكه ، ويضاف الى البوتقة مواد معدنية كالمنغنيس وذلك لزيادة لمعانة ومنع تأكسده .

٤ - اضافة مواد عضوية نباتية كالااهلينج او قشر الرمان او قش الرز او الخشب او اوراق الشجر الى الحديد في البوتقة او الحديد المحمي اللين، هذه المواد التي تصبح فحما يختلط بالحديد ليكون فولاذًا ذو خصائص متميزة من أهمها ؛ ظهور تنسيمات على صفة النصال يطلق عليها سُم الجوهر او الفرند (او الدمار او الدبان او الشرابين) .

٥ - يطرق الخليط ليأخذ شكله النهائي وهو شكل السيف المستقيم ذي الشطب والتزييلات الجميلة والكتابات . وقد يكون سيف اسد الله من ابرز نماذج السيف الدمشقي الذي انتشر في فارس منذ القرن السادس عشر .

ان هذه المبادئ تبقى كافية لايجاد الطريقة الخامسة في صناعة السيف الدمشقية ، اذ ان التجربة والممارسة قمينة بكشف أساليب هذه الصناعة كشفاً نهائياً . ونحن ندعو مراكز الابحاث في هذا القطر للعمل على انتاج الفولاذ الدمشقي ومن ثم السيف الدمشقي .

ولقد حاول الجنرال الروسي أنوسوف^(٦٥) أن يدمشق السيف الروسية وقام بتجارب خلال عدد من السنوات ، وفي عام ١٨٣٧ أعلن أنه اكتشف سر الدمشقة . ولقد تمت صناعة سيف دمشقة في روسيا ، واستطاع بياتسكونفسكي أن يعرض طرقها وأنواعها وهو يعتقد أن انتاجها ممكن جداً .

Anocoff : Mémoire sur l'acer damassée, Annuaire du journal des Mines de Russie, 1841, pp. 192-287-184. (٦٥)

وحاول كثير من الباحثين في القرن الماضي كشف أسرار الدمشقة من أمثال بريان Breant الذي نشر دراسة تحت عنوان «وصف طريقة للحصول بواسطتها على نوع من الفولاذ المجهود مشابه لفولاذ السيوف الشرقية المدمشقة» .

وفي بداية هذا القرن ١٩١٨ قام بيلاليو Belaiew بأبحاثه فتبين لديه أن صناعة السيوف الدمشقية الجوهر تقوم على مبادئ خاصة ولكنه لم يتمكن من استكشافها كاملاً ، لأنها لم يطلع على المصادر العربية في هذا المجال .

السجاد الدمشقي

في العصر المملوكي ازدهرت صناعة السجاد في مصر وسوريا ، وقد تحدث بعض الرحالة الأوروبيين عن وجود مشاغل لصناعة السجاد في العصر المملوكي ، ولقد اشتهر في سوريا نوع من السجاد أطلق عليه اسم سجاد دمشق ، انتشر هذا النوع من السجاد في أوروبا خلال القرن السادس عشر وخاصة في البندقية «مرفا الشرق» ، إذ تردد اسم سجاد دمشق في سجلات الأسرات العربية إذ كانوا يستعملونه كأغطية وستر .

وفي متحف الفن والصناعة فيينا مجموعة من السجاجيد الدمشقية تعتبر من أجمل ما بقى من هذا النوع . وسجاد دمشق يمتاز برسومه الهندسية المتراصة ك بلاطات منسقة عدا عن العروق والأشجار والعقائد ذات الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء . والسجاجيد المعروفة حتى الان ذات أرضية خصبة وأطارها ذو لون أزرق أو أخضر مصفر وكل لون درجات وأطياف مما يجعل الرسوم ذات أبعاد وأعمق .

وسجاد دمشق مصنوع من خيوط الصوف والسدادة من الصوف أيضاً وفي فيينا سجادة واحدة مصنوعة من خيوط الحرير . وبعض نماذج هذا النوع من السجاد موجود في متحف المتروبوليتان وثمة سجادة كبيرة بقياس 6×9 م

موجودة في متحف فيكتوريا والبرت في لندن . وكانت ولاشك مخصصة لمكان رحب قد يكون مسجدا أو قصرا ، وهي بلون أحمر خمري وفيها أشكال هندسية زرقاء مع بعض الاشكال المعينية المخططة شطرنجيا . وفي مركز السجادة جامة كبيرة وتبعد في السجادات اشارات مميزة . وهي نموذج من الوسم العربي ، الذي قد يرجع الى العهد الاموي . وتعتبر هذه السجادة من أجمل ما تحتويه المتاحف من سجاد دمشق . وفي بيروت سجادة ملك هنري فرعون من صنع دمشق .

ولقد اشتهرت سوريا بالبسط ذات الوبر ، ولقد ذكر المقرizi أن العصر الفاطمي كان يضم بسطا من صناعة القلسون « محافظة دمشق » كما أن متحف المتروبوليتان يحتفظ بساطا من الحصير صنع في طبريا « فلسطين » يرجع الى القرن العاشر الميلادي .

أما السجاد المصري فإنه لا يختلف كثيرا عن سجاد دمشق ، بل كثيرا ما يقع المختصون والمحفيون في خطأ تحديد هوية السجاد العربي ، إذ إن أسلوب دمشق والقاهرة والمغرب والأندلس أسلوب مستمد من مفاهيم الفن العربي الذي يجنب نحو الأشكال الهندسية او الرمزية او النباتية المحورة او الكتابات ، مبتعداً ما يمكن عن الرموز والاشكال الحيوانية ، على عكس السجاد الفارسي الذي اهتم بالاشكال البشرية والحيوانية .

والواقع ان السجاد المصري والمغربي استمد ايضا الزخارف الهندسية من الزخارف المنقوشة على القطع المعدنية والجلدية والخزفية الملوكيّة التي تحمل نفس الطابع ، ولعل السجاد التركي كان وريث التقاليد الملوكيّة هذه . ويتشابه سجاد القاهرة مع سجاد دمشق في لونه الاحمر الخمري الذي يهيمن على الخليفة ، على ان خيوط هذا السجاد هي من الحرير ، وبعض السجاجيد مصنوع كله من الحرير ، ومثالها سجادة ترجع الى القرن السادس

عشر ولكن أكثر سجاد هذا النوع مصنوع من خيوط الصوف ، وطريقة العقد متقاربة مع طريقة العقد الدمشقي والأندلسي ، ومن أقدم نماذج سجاد القاهرة ، سجادة محفوظة في القسم الإسلامي من متحف برلين ، وهي ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر أي إلى العصر المملوكي .

واشتهرت مصر بصناعة البسط ذات الوبر ، وفي المتحف الإسلامي في القاهرة قطعتان من البسط ترجع الواحدة منها إلى عام ٨١٨هـ إذ أنها تحمل تاريخاً هجرياً ٢٠٢ ، وثمة قطعة أخرى في واشنطن وأخرى في السويد ، وغيرهما وفي متحف المتروبولitan في نيويورك ، وجميعها تحمل كتابات كوفية وتمتاز بربط العقدة حول خيط واحد من خيوط السداة ، وهي ترجع إلى العصر العباسي أو الفاطمي .

صناعة النسيج

اشتهرت دمشق بصناعة نسيج خاص اطلق عليه اسمها الدامسكي وهناك أنواع أخرى كالبروكار والألاجا والاغاني والديما ، أما الدامسكي فهو قماش مزین برسوم حيوانات أو سهام وتعريجات ولذلك حمل الدامسكي اسماء هذه الرسوم المظير نسبة للطير والمخليل نسبة للخيول والسميم والمرج .

وكان يصنع بخيوط الحرير وعلى أنوال يدوية وكانت الرسوم تغل باليد والأبرة ثم أصبحت تحاكي بالأبر ، ولقد انتقلت هذه الصناعة من الشام إلى الأندلس وعرفت هناك باسم الدامسكي وما زالت تعرف بهذا الاسم على الرغم من تطور صناعتها . أما البروكار فهو نسيج من الحرير الطبيعي يصنع على أنوال يدوية أو آلية .

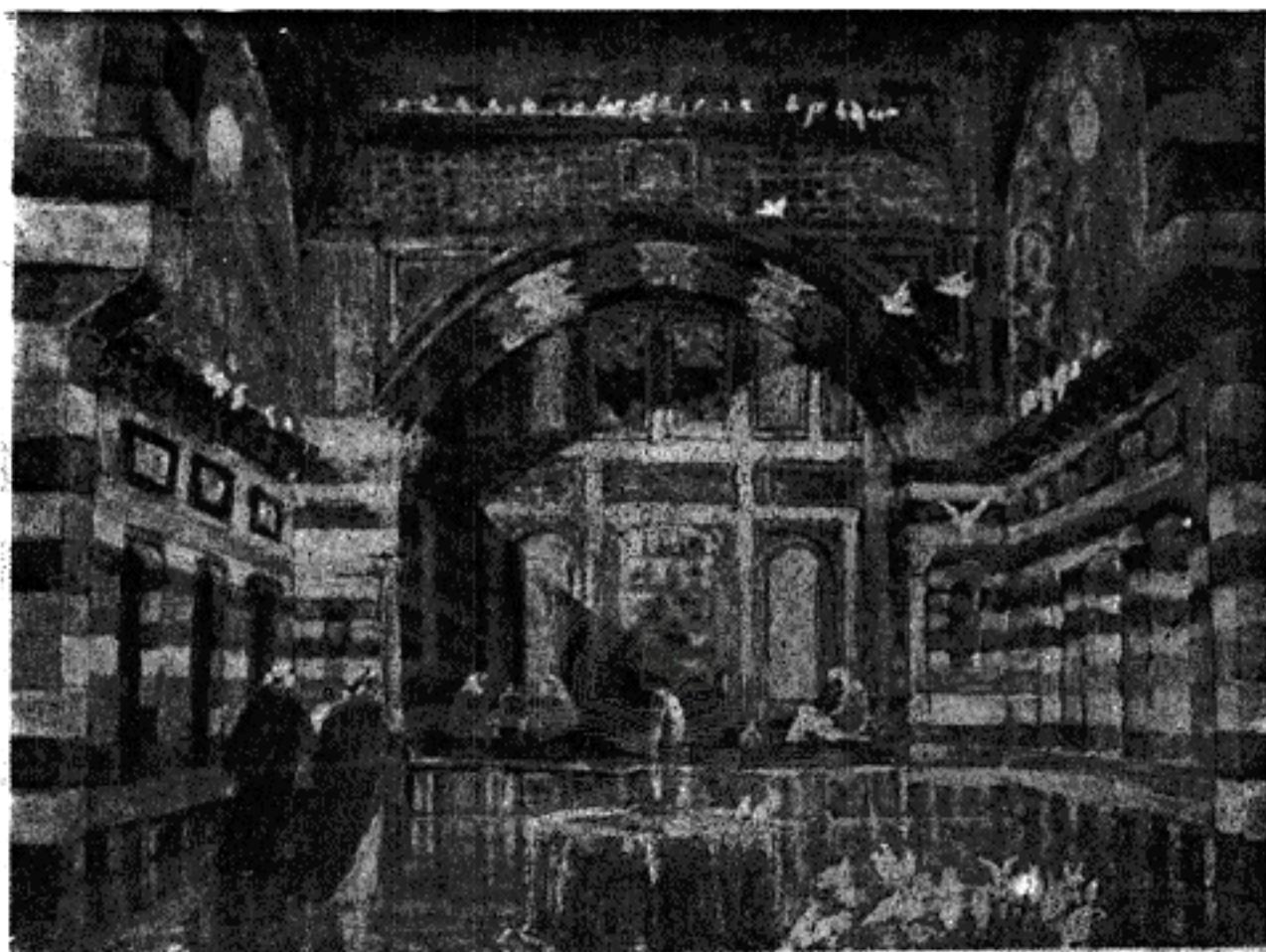
ومن البروكار ما هو مقصب بخيوط ذهبية أو فضية تشكل رسوما
جواشكلا تزيينية كصور آدمية أو حيوانية ، وطريقة جياكة الخيوط على
النول اليدوي طريقة معقدة دقيقة .

والللاجا هي الصابات الحريرية القطنية ، أما الديما فهي تقليد
اللالاجا وهي كسوة الناس في الشام .

واللاغباني هي كوفيات وزنانير وملفات او هي قماش ثوب الغرب
وهو نسيج قطني عليه رسوم وزخارف مطرزة بأسلوب خاص .



مِنْ تَرَاثِ الْمُسْلِمِيِّينَ



بيت دمشقي - الصحن والآيوان

لوحة زيتية - ميشيل كرشه

المتحف الوطني بدمشق



ريشارد قلب الاسد أمام صلاح الدين للفنان سعيد تحسين
المتحف الوطني بدمشق



المiskaة الشامية

٢٣٢

الفهرست

	المقدمة
٥
٩	الفصل الاول : الشام والحضارة
١٠	- الشام ثقافيا
١٧	- الكشف عن آثار الشام
١٩	- بيت آدم في الشام
٢٨	- الشام والترااث
٣٢	- امتداد التراث الشامي الى الاندلس
٣٤	- الشام مهد الكتابة العربية
٣٦	- نشوء النقد الاسلامي في بلاد الشام
٤١	الفصل الثاني : المدينة والعمان
٤٢	- أشهر مدن الشام : دمشق القديمة - حلب الشهباء
٥٢	- العامل الجغرافي في تكون دمشق الشام
٥٨	- العامل التاريخي
٦١	- العامل الروحي
٦٧	- العامل الحضري
٧٠	- العامل الثقافي
٧٩	- العامل السياسي
٨٢	- عمران المدن الشامية حديثا
٨٥	- المدينة الحديثة وفقدان الهوية
١٠٤	- تغير معالم المدينة واسماء احيائها
	الفصل الثالث : البيت الشامي
١٢٠	- العمارة الشامية - وبداية العمارة الاسلامية
١٢٢	- المساجد
١٢٧	- المساكن

٦٣٩	- الحمامات
٦٤٢	- الخانات
٦٤٤	- القصور الاموية
٦٦٥	- العمارة الشامية بين الاصالة والتحديث

الفصل الرابع :

٦٧٣	- الفنون الشامية
٦٧٤	- بداية الفن الاسلامي في بلاد الشام
٦٨٠	- أشهر الرسوم الجدارية الاسلامية في بلاد الشام
٦٩٢	- لمحات من فن الايقونات الشامية
٦٩٦	- بوادر الفن الحديث
٢٠٨	- الفنون التطبيقية الشامية
٢١٢	- السيف الدمشقي
٢٢٦	- السجاد الدمشقي



دار الرشيد للنشر

١٩٨٠



Кыргызстандын националдык музейи



رقم الإيداع في المكتبة الوطنية - بغداد
٦٩٧ لسنة ١٩٨٠



مَرْكَزُ اسْتِعْلَامٍ وَسَنْدٍ



دار العریسات کتابخانہ مسجدِ سید

دار العریسات لطباعة بنداد
۱۶۰۰ - ۱۹۸۰ م